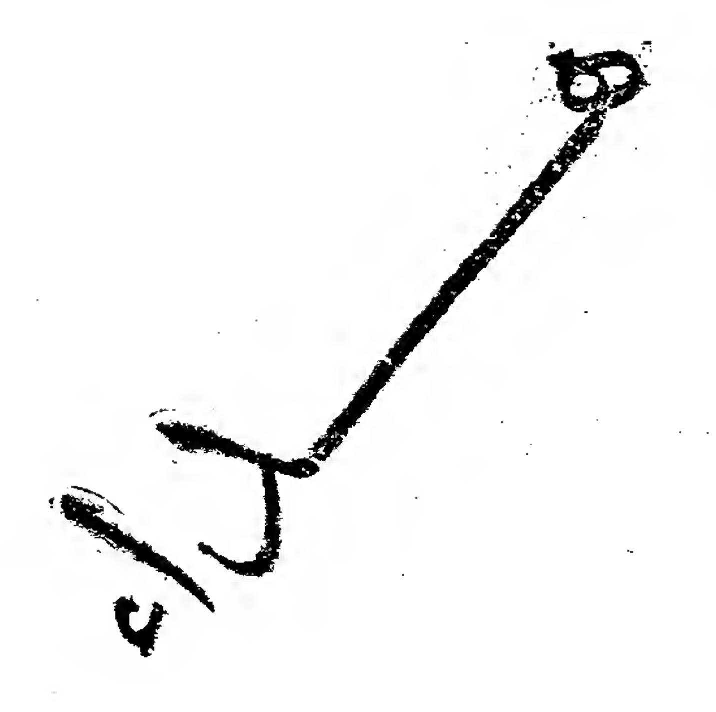


عبد العزيز بنعبد الله
استــاذ بكليــة الآداب

تاريخ المغرب

العصر القديم والعصر الوسيط

نشر وتـوزيـع :
مكتبة السلام
الدار البيضاء
مكتبة المعارف
الربـاط

مقدمـــة

الفكر العلمى فى كتابة التاريخ

ان ثلة من المؤرخين المغاربة والاجانب قد ساهموا فى جمع الوثائق التى تتسم باهمية كبرى وتحتوى على العناصر الضرورية لتكوين فكرة عن المعطيات الجوهرية فى تاريخنا الوطنى فالدراسة النقدية المقارنة لهذه النصوص كفيلة بالقاء أضواء كشافة عن تسلسل الاحداث ورسم الخطوط الرئيسية للاطار العام الذى تبلورت فيه هذه المعطيات •

وجدير بالباحث النقاد ان يتساءل عن القيمة العلمية لهذه النصوص وعن مدى تصويرها للحقائق التاريخية فاذا راجعنا مجموعة من النشرات والمصنفات فى هذا الحقل من مظاهر حضارتنا لاحظنا ان معظم المؤلفين يتأرجحون بيـن مناهج فهنالك فريق ينساق فى تيار عاطفى يضفى على الماجريات لونـا خـاصا قلما يتناسق مع الواقع اولا يتوفر على الاداة الضرورية للحكم كانعدام الوثائق أو لضعف الروح النقدية وبذلك تنبثق أساطير مبهرجة تحف بها هالة براقة وهنالك فريق ءاخر يحاول التحرى ويوفق احيانا ولكن بعثرة المراجع وهلهلتها تحد من قيمة نتاجه وفريق ثالث وهو من المؤرخين الاجانب هدفه التنقيص من مقوماتنا ينقاد لعاطفة معكوسة تنكر ماحسن او تقلصه وتضخم ماساء •

فمقتضيات التحرى والاستقراء تستلزم اذن صهر جميع النصوص فـى بوتقة عامة تسلط عليها أنوار الكشف النقدى الموضوعى لاستخلاص صورة حقيقية أو قريبة من الحقيقة •

وقد حاول مستشرقون مبرزون تحليل التيارات الكبرى لتاريخ العرب والمظاهر المختلفة لحضارتهم والتطورات التى طرأت فى مختلف المجالات من خلال العبقرية العربية فانسجمت أبحاثهم مع الخطة الرصينة التى نهجها كثير من مؤرخى العرب والاسلام حيث ترتكز مصادرهم على طريقة الاسناد القويمة المدعمة بوسائل التعديل والتجريح للرواة علاوة على النقد الصحيح الذى يستمد عناصره من قواعد فى البحث العلمى لا تختلف كثيرا ونظريات الغربيين أمثال

ديكارت وفولتير وهذه الطريقة هي اقوم المناهج لمراقبة الاندفاعات العاطفية فالموضوعية خاصية جوهرية لدى المؤرخ ومن البديهي ان الموضوعية ليس معناها النقل التقليدي ولا انعدام الحاسة النقدية وانما مؤداها الاستناد الى الواقع المجرد وتركيز التاويلات على مسلمات ومعطيات يعززها المنطق والنص فالعامل الشخصي يشكل عنصر انحراف كثيرا مايكون خفيا مهما تكن نزاهة المؤرخ واستقامته الفكرية •

فالاغضاء عن الحق اذا كان مقصودا - لا يقل جناية عن محاولة التدليس والتضليل بتجريد فكرة أو واقعة من لبابها أو بافراغها في قالب مصطنع •

والاحكام الباتة التي تتغلغل في الفكر ولا تترك مجالا للتراجع تسيء الى تحريات المؤرخ لانها تقف حاجزا دون انبثاق الحق والانصياع للوازمه واذا كان هنالك حكم يشوه الحقيقة التاريخية فهو الاعتبارات السياسية مثلا التي تفرض وجهة خاصة في التاويل ومن هذا القبيل كثير من المصنفات التي أعدها بعض المرتزقة استجابة لأمير أو رئيس في عصر من العصورفهذا النوع من التاريخ الموجه الذي يؤدي الى اضفاء سمة غير طبيعية ولا منطقية على الماجريات يعتبر من النواخر العارمة التي تفت في الهيكل العلمي وتحول دون انبثاق الحقيقة التاريخية •

فاذا انضاف الى هذه الحواجز الاصطناعية عمل فكري مرتجل وتعميمات سطحية في الاحكام فان المؤدي المحتوم هو التناقض الصارخ •

فالضمير الحي النبيل والفكر النزيه يثوران ضد اي مساس بالواقع التاريخي ولو كان مصدر هذا المساس هو اللاشعور او الا الارتجال غير الواعي والمؤرخ الذي يقدر رسالته لا يسعه أن ينحاز لفكرة دون أخرى انسياقا مع دوافع سلالية او سياسية او دينية فنحن عندما نقرأ للمؤرخ الفرنسي رونان بحوثا يشيد فيها بالعرب قصد التنقيص من البربر او الاتراك ويؤكد ان انهيار الاسلام بدأ يوم وقعت امبراطوريته بين أيد خشنة (ويقصد بذلك البربر والاتراك والماليك والاعلاج) فاننا نحس بوخز اليم هو نفس ما يشعر به الفكر الانساني الحر ازاء مظلمة من المظالم ذلك ان اسباب تفكك الرابطة الاسلامية كثيرة وأعمق مما يتصور كثير من الناس •

وقد قرأنا عكس ذلك للمؤرخ كوتيي الذي زعم ان الحضارة الاسلامية لم تتفتق الا في الوقت الذي اختفى فيه العرب من المسرح العسكري والسياسي

وكثير من المؤرخين الذين فلسفوا تاريخ المغرب اعتبروا الانتفاضات التي كانت تذكي المغرب دوريا مظهرا لحيوية طبيعية لدى أمة فتية أولها حكم الامم الفتية - في عنفوان انبثاقها وطفرات تلقائية نحو بلورة الكيان والذاتية الوطنية هذا بينما رأى مؤرخون اخرون في تلك الانتفاضات «حملة دينية اقتصادية» تتدخل فيها العواطف القبلية والعصبية السلالية وهكذا فاسهام البربر الجماعي في

تحقيق توسع الاسلام وذيوع فكرته المثالية يرجع فى نظر البعض الى طبيعة حربية أو رغبة فى الاسلاب والغنائم لدى البربر بينما يرى فيه ءاخرون نتاجا لعوامل دينية فالمؤرخون الذين تذكيهم عواطف خاصة ضد العرب يزعمون ان انتصار الحركات التوسعية الموحدية يستند لكون المغرب لم يكن قد اتسم فى القرن الخامس بآثار تلك العدوى التى دكت اسس المغربين الاوسط والادنى كنتيجة لتسرب افواج العرب من بنى هلال وبنى سليم الى افريقيا الشمالية وقد رأى البعض فى ثورة البربر ضد بعض الاسياد والقواد من العرب فى القرنين الاول والثانى تمردا ضد المغير الاجنبى بينما اعتبرها ءاخرون بمثابة رد فعل طبيعى باسم الاسلام ضد فئة من الشرقيين الانتهازيين الذين داسوا مبادىء الديموقراطية الاسلامية وعاشوا على كاهل الشعب البئيس فى رخاء ورغد ولهذا تقبل البربر نظرية الخوارج لأنها كانت تدعو الى المساواة باسم الاسلام •

ولو كان الامر يمس بعض الجزئيات من تاريخنا لما كان فى ذلك كبير خطر ولكنه يتسرب الى الاعماق فيفتح المجال لاندساس اعتبارات هدامة مختلفة •

فتاريخ المغرب هو أكثر من سلسلة الحروب التى اصطدم فيها ادعياء الملك وهو أعمق من تلك الكليشيات الجوفاء التى تصور هذا العصر أو ذاك وهو أشمل من تلك الصور التى تترك الغموض الحالك فى كثير من مظاهر حضارتنا وتاريخنا هو أعظم من ان يفسح صدره للأساطير لان فى مقوماته ما يغنى لابراز مجالى نهضته التى ساوقت الانبعاثات لدى كثير من الامم والشعوب وبالجملة ففى نصوص تاريخنا صورة واضحة عن الحقيقة المرة التى تقلب فيها الشعب المغربى خلال العصور وصورة لاتقل وضوحا عن عبقريتنا وأصالة حضارتنا وعن الاسباب الخارجية التى حالت دون استمرار تطورنا فى الحقل الدولى منذ ظهور الحركة الاستعمارية الغربية •

هنالك حقائق تاريخية كامنة فى هذه النصوص لا يستخرجها الا الفكر العلمى الموضوعى النقاد •

المؤلف

❀ ❀ ❀

الفصل الاول

المغرب الجغرافى

لايمكن التعرف الى تطورات المغرب التاريخية الا باستقراء المظاهر الجغرافية للجانب الغربى من افريقيا الشمالية ، فالمغرب الجغرافى قد تقلب فى اطوار كيفت شكليته الطبيعية وتمخض هذا التلون الجيولوجى عن نوع من الاتجاه فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

فمن الوجهة الجيولوجية تكونت اغلبية الصخور التى هى قوام باطن الارض المغربية فى اعماق البحر لهذا يلاحظ أن تراكم طبقاتها تم على صورة افقية تقريبا ، الواحدة فوق الاخرى بحيث تعتبر الطبقات العليا احدث من الطبقات السفلى تبعا للعصور الجيولوجية الخمسة التى ينقسم اليها تاريخ تكوين الارض .

ولم تكن للمغرب دائما الشكلية التى له اليوم ، فقد غطت مياه البحار آمادا طوالا الاراضى المغربية كلا او بعضا بحيث كان البحر بين مد وجزر ينسحب تارة ويعود طورا فيخلف رواسب جديدة ثم يتراجع تاركا الارض فريسة لمياه الامطار والانهار والرياح تنخره نخرا بعد هذه الاطوار المتعاقبة اتخذ المغرب هندامه الجيولوجى الحالى .

وكانت الجبال الشاهقة هنا وهناك ولكنها اندرست منذ ازمنة سحيقة مثال ذلك ما لوحظ فى جنوب المغرب من آثار الجبال التى عفت عليها المياه

والرياح قبل تراكم رواسب العصر الجيولوجي الاول الذي دهمت المغرب في اواخره موجة شديدة من الحرارة والجفاف جعلته اشبه بصحراء قاحلة مترامية .

وفي العصر الثاني غمرت المياه معظم المغرب ، فموقع الريف الحالي مثلا كان اذ ذاك عبارة عن هوة سحيقة تتراكم فيها الرواسب وكانت مواقع الاطلس مغمورة بالمياه الا انها اقل عمقا من الريف وفي العصر الثالث حدثت زلازل وتطورات هزت باطن الارض واسفرت عن ظهور الجبال الحالية وفي نفس الوقت انشق وسط سلسلة جبال الريف المقوسة بين طنجة والجزيرة الخضراء ـ مضيق جبل طارق .

وهناك تغير الطقس بسبب ماظهر على سطح الارض من وهاد وأغوار .

وفي العصر الرابع استكمل المغرب مظهره الجيولوجي العام وتغيرت مستويات البحر وخطوط الشواطىء وبينما كانت الثلوج تكلل وهاد شمالي اوربا وجبال الالب طرأت على المغرب انقلابات في الطقس بين الرطوبة والطراوة والاعتدال والحرارة والجفاف ، عند ذلك نضبت البحيرات الكبرى التي كانت تغمر في اواخر العصر الجيولوجي الثالث ناحية السايس بجنوب مكناس وفاس وبطاح تادلة وناحية الرحامنة والحوز والملوية ومدخل الصحراء ثم فتحت الانهار طرقها في شعاب شاسعة خلال جبال ووهاد تاركة على البطاح المترامية ركاما من الرواسب .

اما التراب النباتي فانه يعتبر احدث مظاهر التطور الجيولوجي ذلك ان التراب هو الجزء السطحي للقشرة الارضية التي تغذي النبات ، وهو يحتوي على عناصر مغذية تتراكم في شكل افقي تغرز فيه النباتات جذورها والتراب بيئة حية هي بوتقة للتفاعلات الكيماوية والعناصر التي يتكون منها التراب لها ايضا علاقة وثيقة بالطقس الذي يعدل مجرى المياه ونشاط التفاعلات الكيماوية : فاقرب مرافىء الاندلس لاتبعد عن ميناء القصر الصغير او المجاز الا ببضعة اميال وهي اقرب المسافات بين قارتي افريقيا واوربا لذلك كان المغرب اول دولة افريقية امكنها ان تقوم بدور الوسيط بين حضارات الشرق والغرب لاسيما وان موانىء البحر الابيض المتوسط كانت المراكز الاولية للمبادلات التجارية بين اوربا والشرق الادنى .

وعندما تم الكشف عن امريكا وطريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح في

القرن التاسع الهجرى أصبح للمحيط الاطلنطيقى دور هام فى الاتصالات العالمية وصارت الموانىء المغربية الواقعة بسواحله تلعب دور الوسيط مع المغرب رغم الحواجز الطبيعية التى تعرقل تطور الملاحة على طول هذه الشواطىء ٠

فهذا الوضع الخاص يفسر بعض المظاهر التى اتسمت بها التطورات السياسية والعلائق بين المغرب والدول الاوربية ٠

اما فى البر فان ممر تازة كان هو المعبر الاساسى بين الجانبين الشرقى والغربى للمغرب العربى علاوة على الممرات الجبلية التى كانت تصل بين الاطلس والهضاب الشرقية نحو تافيلالت وفيجيج ٠ وبقدر ما كانت الحواجز البحرية حائلا بين المغير الاوربي وبين التراب المغربى بقدر ماكانت السلسلة الاطلسية الشامخة حجر عثرة حالت دون تسرب كثير من الجيوش التى احتلت تونس والجزائر سواء فى العصر الهيلينى او فى عهد الاتراك ٠ ومع ذلك وصلت حدود المغرب الشرقية الى ما وراء هذه الحواجز مما دل على ان التخوم كانت ارادية اكثر منها ترابية لان رغبة الواحات الشرقية واندفاعها التلقائى الى الانضواء تحت الراية المغربية هما اللذان اعطيا السمة التاريخية والقانونية لهذه الحدود السياسية التى تصل المغرب الاوسط بالصحراء المغربية كما تربط التيارات المتوسطية بقلب افريقيا وهذا العامل هو الذى فسح ايضا المجال لتوغل الحضارة المغربية عبر الفيافى الى نهر السنغال ٠

فمقومات هذه الوحدة الطبيعية قد تعززت بعناصر جغرافية لم تنقص من قميتها ولم تفت فى اعضادها تلك الفروق الملحوظة بين السهول والجبال والاقاليم الصحراوية فالنواحى الواقعة شمالى الاطلس وغربيه تشمل مجموعة من الهضاب والبطاح الثرية ذات الطقس المتوسطى والاطلنطقى حيث تهطل الامطار وتتوافر المحاصيل وقد كانت هذه المناطق الممتدة من مراكش الى فاس الى القصر الكبير حيث توقف العدوان الاجنبى فى وادى المخازن ـ الاطار الطبيعي والمحور المركزى للدولة المغربية منذ الادارسة الى العصر الحديث ومنها كانت تنبثق الاشعاعات الحضارية للتوغل داخل الاطلس والصحراء فالتشبه ملحوظ (I) فى كل من المغرب وفرنسا فالعائلات المالكة التى توالت على المغرب من المرابطين والموحدين والمرينيين الى الشرفاء كانت تنحدر من تلك الواحات كلما

(I) على عكس ما يراه طيراس فى تاريخه (ج I ص I2) ٠

انهد كيان هذا الاطار فتجعل منه بوتقة لصهر مقومات الدولة نفسها رغم انحدار مؤسسها من الشرق العربى ولم تتخلف عن الانسياق لهذا العامل ٠

فكلما توفرت وسائل الاتصال بين الاقاليم الصحراوية والاطلسية والسهلية تمخض الاحتكاك رغم الاصطدامات الشخصية العارضة عن انصهار متجدد لعناصر الوحدة المغربية ٠

ويشغل الاطلس مساحة شاسعة من التراب المغربى ويمتد تأثيره بصورة غير مباشرة الى ما وراء المنطقة الجبلية ومن الصعب حصر حدود هذه الجبال وقد اصطلح على تقسيمها الى ثلاث سلاسل :

1 ـ الاطلس الاكبر الذى يمتد من ساحل المحيط الى الهضاب الواقعة جنوبى المغرب الشرقى ٠

2 ـ الاطلس الاوسط الذى ينفصل عن الاكبر فى ناحية تساوت ويمتد الى تازا ٠

3 ـ الاطلس الاصغر الذى يرتبط بزميله بواسطة جبل سارو البركانى وصخور هذا القسم من الاطلس عريقة فى القدم من الوجهة الجيولوجية وهو اشبه بالنجود الصحراويةمنه بجبال المتوسط ٠

وقد شبهت سلسلة الاطلس بسد شاهق لان الاتصال بين السهل المراكشى البالغ ارتفاعه تسعمائة متر والاطلس الكبير البالغة اعلى قنته 4200 متر (توبكال) هو اتصال مباشر لا تدرج فيه كما هى العادة وكذلك الاطلس الاوسط الذى يشرف على تادلة وجبال بنى ملال ٠

وقد نخرت الانهار والسهول القلل المتوسطة الارتفاع حيث يكاد يستوى سطح الجبل وهذا بخلاف ما يلاحظ فى الاطلس الكبير بناحية مراكش حيث تتشكل القنن بشكل دقيق حاد ولكن فى الاحواض العليا لام الربيع ووادى بهت وابى رقراق تكثر السطوح المستوية الاديم التى تتخللها وهدات سحيقة تعلو جوانبها قنن حداد مثال ذلك بلاد زيان بغرب ام الربيع ٠

والمنظر فى الاطلس ثقيل لارتفاع الجبال ولكن الاودية التى تحاذى هذه الجبال اما فى شكل عمودى أو مواز تحدث شيئا من الانفراج وهنا تتوافر المراكز والمجتمعات البشرية بسبب وفرة الممرات الممتدة فى عرض الجبال كممر رصيفة

في الاطلس الاوسط وزيز بشرق الاطلس الكبير والممرات الثلاثة الشهيرة بغرب الاطلس الكبير وهي ممر معاشو بمتوكة وتست بكندافة وتلوات بكلاوة وفي هذه الممرات تتجه الطرق نحو مراكش ٠

ان الحياة في داخل الاطلس الكبير تتميز في القمم الشاهقة الخالية من السكان ـ عنها في الاودية التي تتوافر فيها عوامل الثراء ٠

والسبب في قلة السكان في القمم العالية هو كثرة الثلوج في الشتاء وتخلل ذلك بالزوابع العاصفة ثم الجفاف اللافح زد على ذلك ان صلابة الصخور البركانية في غربي الاطلس الكبير وقابلية التحلل في المساحات الجيرية بشرقي الاطلس يحولان دون تطور المراعي ومسارح السوائم ولا يستثنى من ذلك الا الهضاب الحمراء في متوكة وكلاوة حيث تتمخض الرطوبة عن مرعى خصيب يحصد اعشابه سكان النواحي المجاورة في اوائل الصيف ولكن الكلا في الجبال ليس سوى مورد اضافي لذلك تتركز الحياة في الاودية على ان هنالك فرقا بينا بين شقي الاطلس الكبير اللذين يفصلهما حوض تساوت فسكـان الناحيـة الغربية فلاحون ومزارعون لهم عناية بالاشجار بينما سكـان الشرق ينتجعون كلأ الجبال في الصيف وهم في ذلك أشبه بسكان الاطلس المتوسط ٠

وكل هذه الاودية ميدان للحقول المتدرجة والزروع التي تنتشر بفضل السقي ويتطلب حفر السواقي مجهودات جبارة يتغلب عليها السكان بما جبلوا عليه من مثابرة وحيوية ولكن كثيرا ماتكون منابع هذه السواقـي محصـورة وراء حاجز واه ينهار فيجرف سيله بالقرية الواقعة تحته وتنتج هذه الحقـول المتدرجة في المنحدرات القمح والشعير والخضر (البصل والبطاطس واللفت) تتخللها ازهار منوعة وينبت الخرطال احيانا بدون سقي ولكن الذرة هي محور الاقتصاد ففي شهر اكتوبر تحصد السنابل وتترك الحقول للسوائم تمرح فيها وتكثر كذلك اشجار الفواكه كالبرتقال والكروم والزيتون والرمان واللـوز والجوز (في الاودية العالية) ويتنوع الانتاج خاصة في المنحـدرات المقابلـة للصحراء واشد ما يدهشك في فصل الربيع خضرة الحقول والجنان في قلب الوادي المتنافية مع المنحدرات الجرداء اما الدور فان فيها طابقا يصعد اليه بدرج بسيطة لا تتعدى احيانا خشبة مشققة وتوجد في الطابق غالبا غرف كثيرة ودهليز لحفظ الحبوب وتتلاحق هذه الدور في علو متدرج حتى يصير سقف هذه عتبة لتلك وما أكثر هذه النماذج في شيشاوة ونفيس (كندافة) ووريكة

وتساوت ولكن علاوة على هذه الدور توجد قصبات محصنة يسكنها الشيوخ والقواد ونوع آخر يسمى تغرمت وهو عبارة عن عمارة مربعة بداخلها ساحة وبجوانبها باب ومنافذ ضيقة وبكل ركن برج للحراسة وكثيرا ما يقطن عدة عائلات فى (تغرمت) واحد وهذا النوع متوافر فى حوض وادى العبيد وايت شخمان ونتيفة حيث تتكون الدسكرة من مجموعة هذه الدور غير ان العائلات المتواضعة تقطن فى دور وطيئة لا طبقة فيها ولا أبراج (تدارت) ٠

ويتوفر لدى اغنياء هذه الاودية عزائب فى الجبل ينقلون اليها سوائمهم خلال فصل الصيف والعزيب عبارة عن ساحة محاطة بجدار من الحجارة تستعمل كحظيرة للقطعان ويبني الراعى فى جانب منها نوالة ولكن فى بعض الاماكن يكون العزيب بمثابة دار حقيقية تمتد حولها المزروعات الصيفية ٠

ويلاحظ ان النواحى التى يوجد فيها الجير فى الاطلس الكبير تغلب فيها تربية الماشية على الزراعة ٠

ويختلف الاطلس الاوسط عن الاطلس الاكبر وعن الريف معا فهواقل ارتفاعا من الاول واقل تشققا من الثانى وهو يحتوى على أخصب المراعى المغربية ففى هضابه يكثر النبات نظرا لوفرة الامطار وطول مدة الثلوج وارتياد العواصف التى تحدد من جفاف المصيف وفى منحدراته أجمات تتوافر فيها مسارح السوائم وقد جعلت كثرة الامطار وخصب الارض من بلاد زيان مراعى يتدفق الكلأ من جوانبها ولكن المنحدرات المتجهة نحو الملوية قليلة الخصب وهى فى ذلك متعارضة مع المنحدرات المتجهة صوب المحيط الاطلسى حيث الخضرة الدافقة وابرز نموذج للخصب هى ناحية ولماس كما ان ابرز مثال للاجداب هى تمحاضيت ولكن فى الصيف يكون الماء والعشب أقل فى الهضاب الغربية منه فى أودية القمم العليا٠

ويكسو الثلج القنن التى يزيد علوها على الفى متر طوال شهرين (من منتصف دجنبر الى نهاية يبراير) بحيث يستحيل المرور والجولان فى تلك النواحى ويتعذر على قطعان الماشية الغذاء وبالاخص الشياه التى تتضرر ضررا فاحشا ويقسو فصل الشتاء احيانا فيودى بحياة الكثير من الغنم حتى يضطر الناس الى اللجوء الى النواحى القليلة الارتفاع التى تحاذى الاطلس الاوسط ٠

وتختلف حياة هذه القبائل الجبلية بل وحتى امكنة استقرارها باختلاف

احوال الطقس فبنو ورااين مثلا يضطرون الى النزول من اعالى الجبال الى سهول ملولو وهذه الحركة قديمة لان الناس يهجرون النواحى القاحلة فى الجنوب المشرقى الى النواحى المحظوظة التي تكثر فيها الرطوبة بالشمال المغربى ·

فنحن نجد مثلا قبائل زيان ترتاد الجبال فى المصيف انتجاعا للمرعى كما تنزل الى السهول فى فصل الشتاء للزراعة الشتوية وتصعد فى الصيف الى الجبال لفلح الذرة التى تحتاج الى الرى وهكذا ترتحل قبائل وادى العبيد بماشيتها الى قمم الجبال واهم المدن فى هذه النواحى خنيفرة ··· ويلاحظ ان البراكين قد لعبت دورا مهما حيث احالت اودية الى سهول داخلية يجمع ترابها بين الحرارة والخصب وسهولة الرى ويطفح بالزروع وبالاخص منها الذرة من ذلك صعيد وادى بهت وصعيد سبو وصعيد ام الربيع ·

ولا اثر فى هذه النواحى للتوابل التى تكثر خاصة بسهول المحيط الاطلسى والغالب على الناس ان لهم دارا بالقرب من حقولهم الزراعية وعدة خيام ينتقلون بها مع قطعاتهم الى حيث يطيب لهم المقام وحتى ذلك النوع الغالب من الدور متنوع حسب الجهات فهنالك بعض « المداشر » تشبه دورها ما نجده فى الاطلس الكبير (طبقة فوق القسم الارضى ومطبخ ودهليز مكشوف ودور متلاحقة متدرجة) ولكن ما اكثر الدور الواسعة الوطنية التى يوجد فى سطحها المتبسط ثقب هو عبارة عن مدخنة وتغلب القصور بالاخص فى تاماغت ومرموشة وهى كناية عن دور محصنة انتقل استعمالها من الصحراء الى الملوية ولكن يوجد نوع من الدور ينفرد به الاطلس الاوسط وهو البناء المحصن الشامل الذى ينفذ اليه من باب واحدة تنفتح وسط ساحة داخلية اشبه بالنوع المسمى بتغرمت ولكنه وطىء بالنسبة اليه عارية اركانه الاربعة عن الابراج مسقف بالخشب الذى يغطى جدرانه المتجهة صوب ناحية المطر ·

وقلما يسكن الناس في اوربا الجبال لانهم يفضلون السهول والبسائط حيث الخصب والثراء ورقة المناخ وسهولة المسالك بخلاف مافى المغرب مع استثناء المناطق العليا البالغة 1·800 متر في الشمال و2·400 متر فى الجنوب فالمواطن البشرية في هذه المنطقة قليلة رغم عدم وجود ثلوج دائمة غير ان الشتاء قارس البرد قاسى الثلوج والصيف جاف خانق ومع ذلك فهذه الجبال تلعب دورا مهما فى حياة القبائل لان فى سفوحها تتجمع المياه التى يتمخض عنها الثلج الذائب ·

ولا توجد فى الجبال مساحات تتسع جوانبها للزراعة الكافية فقبائل الريف والاطلس تشترى قسطا من الحبوب التى تستهلكها من قبائل سبو والبطاح المجاورة ولكن الزراعات التى تحتاج الى الرى كالذرة والفواكه تجد فى متوسط القمم ما يساعدها على التفتق والازدهار وفي العروض الشاهقة مسارح ومراع للقطعان وبذلك تمتاز الجبال بالزروع والاشجار والسوائم علاوة على توافر الغابات وانعدام الرطوبة ·

وقد شاهد الانسان الذى عاش فى اوائل العصر الجيولوجى الرابع ثلوجا مستديمة ونفثات بركانية قوية فى قمم الاطلس المغربى وكانت الامطار اذ ذاك تنهمر بعنف فتطفح بمياهها وديان اضخم مسيلا من وديان اليوم والاودية التى جفت جنباتها اليوم كانت مسربا لانهار كبرى لم تكن تستطيع الانصباب فى البحر ويدل دروس هذه الوديان على ان ارض المغرب لحقها جفاف تدريجى ·

وقد انتشرت فى المغرب الشرقى وكذلك فى اسبانيا والجزائر صناعة من ابرز مميزاتها دقة الآلات وصغر حجمها ·

ولم يعرف المغرب على ما يلوح عصور النحاس والبرونز والحديد لان هذه المعادن دخلت اليه بواسطة مبادلات تجارية لا بواسطة غزوات استعمارية وكانت اسبانيا فى عصور ما قبل التاريخ ميدانا انتقاليا بين افريقيا وفرنسا من حيث الطبيعة والمناخ وكان مضيق جبل طارق مفتوحا منذ اوائل العصر الجيولوجى الرابع حيث كانت وسائل المواصلات بين اوربا وافريقيا بدائية بسيطة وبذلك يكون المغرب قد لعب دورا هاما اذ ذاك فى تنقل الشعوب والحضارات ·

وقد خلف لنا هذا العصر ءاثارا تعرف فى الاوساط الافريقية بالحجارات المكتوبة وهى كثيرة على الخصوص فى الاطلس الصحراوى بين شلف وبشار ·

ومعلوم ان فى العصر الحجرى ظهرت البوادر الفنية الاولى حيث بدأ الانسان ينقش على الحجر بل يصور على جدران المغاور والكهوف حيوانات باسلوب جرىء ترتسم بعض ملامحه فى طرائق رجال الفن الحديث وقد ترك العصر الجيولوجى الرابع فى كثير من اقطار العالم دمى بديعة شهد كثير من العلماء انها نماذج صنعها اصحابها خدمة للفن ·

واول ما استعمل الانسان النحاس والبرونز فى الشرق ومنه انتقل

الفلسفة وقد استشهد على كروية الارض بانتشار المواقع التى يوجد بها الفيل لان هذا النوع من الحيوان لايوجد الا بطرفى المعمور وهما الهند واعمدة هرقل (اى مضيق جبل طارق) .

وليس بغريب وجود هذه الانواع من الحيوانات بالمغرب لان افريقيا معروفة منذ فجر التاريخ بانها مهد الفيلة والسباع والضباع والنعام .

وقد اشتهرت السلالة البشرية فى افريقيا بالمتانة والمناعة فى الصحة والهيكل الجثمانى الذى لم يكن يقهره على حد تعبير المؤرخ ساليو الا ثلاثة اشياء : الهرم والحرب والحيوانات الضارية . ومن افريقيا كان الرومان يجلبون الحيوانات لاستخدامها فى المسارح وقد انحصرت صادرات نوميديا (اى الجزائر وما جاورها شمالا) فى الضوارى والمرمر وكان المغرب اخصب عرين لهذه الحيوانات التى لم يظهر من بينها الجمل الا اواخر الحكم الرومانى .

وكان المغرب فى تاريخه القديم يعج بالحيوانات المفترسة فكان سكانه يضطرون الى مطاردة هذه الحيوانات لابعادها عن مراكز استيطانهم ثم صاروا يصطادون هذه الوحوش اما لاستئصال شافتها واما لاستخدامها فى الالعاب وحتى فى الوقت الذى عرف المغاربة الفلاحة لم ينقطعوا عن تربية البهائم من بقر وغنم وافراس وماعز فكان البعض يسكن منازل قارة والبعض الاخر ينتقل فى الصيف الى الجبال حيث يكثر العشب ويتوافر الكلأ ، ثم ينزل فى الشتاء الى السهول فرارا من ثلوج القمم ولم تتطور الفلاحة فى الحقيقة الا فى عهد الزعيم البربرى الاكبر ماسينيسا فى القرن الثانى قبل الميلاد .

وقد احتفظت القبائل البدوية بملكية الاراضى على شكل ملكية الجماعة اليوم وكانت بين السكان اشتراكية فلاحية اى ان الجماعة كانت توزع غلل العمل المشترك على الجميع او توزع الاراضى نفسها على العائلات وفى هذه العصور عرف المغاربة الملكية الفردية .

اما شكلية المسكن فان الكهوف والمغلور التى هى عبارة عن غرف منحوتة فى النجود لم تكن تصلح للرحل الكثيرى التنقل بقطعانهم لذلك كانوا يأوون الى مساكن متحركة ينقلون اطرافها معهم على ظهر عربات تجرها البهائم بينما كان القارون يسكنون (المنوايل) او الاكواخ المبنية من الطوب .

ثم صار الناس يقيمون ما يعرف (بالقصور) وهى معاقل تستند حمايتها لرجال

مسلحين اوابراجا تبنى على اطراف الجبال بمستودعات الذخيرة ومطامير القموح ٠

ومنذ عصر ما قبل التاريخ تجمع الافارقة فى « مداشر » قوامها نوايل واكواخ مبنية فى اماكن توفرت فيها بعض شروط الراحة بفضل نشاط العاملين اما المدن فلم يشرع فى اقامتها الا فى عهد الفنيقيين ٠

وكان المغاربة معروفين بمناعة البنية وقوة الجسم وطول التعمير لانهم كانوا نباتيين فكان الفلاح ياكل الكسكس والرعاة يكتفون بالالبان عن اللحوم ولم يكن الجميع يشربون سوى الماء القراح على أن طرائد الصيد والحلزون والعسل كانت من الماكولات المبتذلة عند البعض ٠

وكانت ثيابهم فى الاول مخيطات تستر العورة ثم جلود الحيوان الواقية من البرد ثم الجبة الصوفية ثم اكسية اشبه بالبرانس وكانت على رؤوس معظمهم اكاليل من الريش ٠

اما سلاحهم فكان اولا الحجارة فى العهد الحجرى ـ الذى امتد طويلا فى افريقيا حيث لم يعرف الناس منذ الاول معادن الحديد والبرونز والنحاس ـ ثم الحراب فالقوس فالخناجر وكانت درقات الدفاع مصنوعة من جلد الفيلة الذى كان ماء المطر يفسده ٠

وكان رجل عصر ما قبل التاريخ يصنع آلات واسلحة وكان ينقش اولا بالاظافر ثم رؤوس الحجارة ثم اطراف العظام الحادة ثم اسنان اشبه باسنان المناشير وعلاوة على صنع انواع الجواهر كان يرسم على الحجارة صورا تمثل بعض مواقف حياته اليومية ولا تزال هذه الحجارة المكتوبة ماثلة للعيان الى اليوم وقد كان بعضها مكتوبا باللغة الحميرية ٠

وكانوا يتحلون ـ رجالا ونساء ـ بالاسورة والعقود ويتميز الذكور باقراط الآذان والنساء بالخلاخل وكانت الاوانى كلها خزفية والمرأة فنانة تتولى نقش هذه الاوانى بنفسها كما تتولى نسج الزرابى والفن البربرى يستمد من الاشكال الهندسية لا من صور الطبيعة فقلما يستعمل الاقواس والحنايا وانما هى خطوط وتعاريج هندسية ويرجع هذا الفن الهندسى لعهود غابرة ولعله يخفى فى مظهره البسيط صورا شتى تتمثل فيها مراحل التطور وقد وصف اندرى

جوليان اصحاب هذا الفن بالحيوية الدافقة لانهم صمدوا باصالتهم الفنية فى وجه التأثيرات الاسبانية .

اما الموتى فانهم كانوا يدفنون فى عصر ماقبل التاريخ فى مغاور طبيعية ثم صاروا يوضعون فى كهوف مربعة او مستطيلة تنحت فى حجارة الجبال وكانت هذه الكهوف اشبه بمساكن تحشر فيها جثث متعددة بعد ثنيها وكسر عظامها ولكن ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد صار بعض المغاربة يحذون على مايلوح حذو القرطاجنيين واليونانيين فى احراق موتاهم ومنذ القرن الثالث وعادة صبغ الموتى بالاصباغ المختلفة موجودة وكانت حليهم واثاثهم تدفن معهم.

وتدل وفرة الاثاث والاسلحة فيما قبل التاريخ على ان المغاربة كانت لهم حياة اجتماعية منذ اعرق الاعصار ولم يكن نظام الانتساب الابوى يختلف عنه اليوم وكذلك عادة تعدد الزوجات اما ما اشاعه بعض المؤرخين من شيوعية المرأة بين كثير من الرجال فى بعض القبائل الشرقية فقد فنده اندرى جوليان فى تاريخه لافريقيا الشمالية .

وكان حق الاشراف على العائلة يتمتع به قيدومها لا الابن الاكبر خلافا لما كان عليه الامر فى كثير من اقطار اوربا وهذه العادة معروفة عند الوندال وكذلك فى نظام وراثة العرش البيلكى فى تونس الى عهد الاستقلال .

وفوق نظام العائلة يوجد نظام « المدشر » الذى يقيمه الفلاحون القارون للتحصن ضد القوم الرحل وكانت هذه « المداشر » عبارة عن جمهوريات صغيرة لها مجلس اشبه بمجلس الجماعة اليوم فى الحياة العرفية ولم تكن القبيلة تختار لنفسها رئيسا الا عند ماتشب حرب فاذا ما صادف هذا الرئيس التوفيق سعى فى تملك السلطة هو وبنوه وكانت هذه القبائل تنهار او تتقلص اوتتسع حسب مصاير الحروب فكان القائد القومى يشرف بعض الاحيان على قبائل مختلفة.

وكانت اعراف وعادات وانظمة اشبه بهذه سائدة فى باقى شواطىء المتوسط غير ان كثيرا من شعوب المتوسط انفعلوا للتأثيرات الخارجية بينما ظل المغاربة على نظامهم القديم قرونا متطاولة فكان احتلال الاجانب للمغرب يمر غالبا دون ان يترك أثرا أدبيا فى نفوس القبائل المغربية وقد خلفت الحضارة القرطاجنية بعض التأثيرات ولكن الفتح الاسلامى هو الذى استطاع وحده بفضل عوامله الروحية سبر الاغوار وقلب جوهر الاوضاع وطبع عناصر هذا الشعب التى كانت متفرقة بطابع الوحدة الدينية واللغوية .

قصة الانسان الاول

منذ مئات آلاف السنين اشتدت الحرارة وغزر المطر فانتشرت المياه وكثفت الغابات وبحث الانسان عن مخبأ أمين فى الاحراش فرارا من الوحوش وانتجاعا للثمار ثم مرت الانسانية بأربع مراحل اعتدل الجو فى اولاها فخف المطر وجفت الآراضى وتضاءل النبات فلجأ الانسان الى الشواطىء بحثا عن الصيد وبعد آلاف من السنين انخفضت الحرارة تدريجيا واشتد البرد فى اقطار الشمال وتراكمت الثلوج فى الشتاء فاستحالت الى امطار وسيول فى الصيف وعاش الانسان فى الكهوف حيث فتقت الحاجة والفراغ حاسته الفنية فنقش ورسم على الصخور وقد بدأ يربى الحيوانات ويعيش برعيها وحصد ثمار النباتات البرية عند ما لطف الجو جنوبى الاقطار الشمالية الشديدة البرودة حيث قلت الامطار وتقلصت الغابات وغطت الارض الاعشاب والحشائش غير ان الجو ما لبث ان تغير من جديد بعد عصور طويلة فعم الدفء اقاليم الشمال وجف الطقس فى الجنوب كما اشتدت الحرارة واندرست الحشائش وامتدت الصحراء القاحلة فاتجه الناس الى الانهار يزرعون وفى غضون هذه الفترات انتقل الانسان من صيد الحيوانات والاسماك والطيور باسلحة مبتكرة واكل لحومها نيئة الى استخدام النار فى انضاجها ثم ربى الدواجن فاستفاد من البانها وتساوق ذلك مع حياته فى اودية الانهار حيث تعلم الزراعة وطور ادواتها وكشف اساليب الرى فتوافرت لديه المحاصيل وصار يفكر فى ادخار الفائض لضمان العيش طوال العام ثم تفنن فى الطهى وصنع الاوعية الخزفية ثم المعدنية كما تطورت اسلحته من الخشب الى العظام والصدف ثم الاحجار ومنها الصوان واستعمل المصائد المختلفة (الشبكة ـ الانشوطة ـ الخطاف) .

وقد زرع الانسان الموز لاول مرة منذ سبعة الاف سنة وكان القمح اول ما عرف من حبوب ثم تلاه الشعير فالعدس والكتان والبصل والبطاطس والبطاطة والارز وكان وادى النيل اسبق الى هذه الكشوف من دجلة والفرات

كما كان نساؤه اول من استعمل الياف النبات (كالموز والنخيل والتـــوت والارز والكتــان والخيش « الجوت ») فى صناعة النسيج للاستعاضة عن فرو الحيوان ثم غزل الصوف والوبر فالقطن (المسمى شجر الصوف) بعد مدة طويلة اما الحرير فان الصين كانت فى طليعة الشعوب التى استخرجته من دودة القز واحتفظت بسره زمنا طويلا الى ان اذاعه جيرانهـم الكوريون فــى أنحـــاء العالم ٠

اما النار التى استفاد منها الانسان للطهى والتدفئة والصيد فقد استعملت منذ أربعين ألف سنـة وتمكن المصريـون بفضلهـا من الكشف عـن النحـــاس والازميل والمثقاب النحاسى الذين كان لهما اكبر الآثار فى تقدم التصنيـــع بالاضافة الى المنشار ثم تمكن الانسان من مزج النحاس والقصدير فصنـــع البرونز غير أن الحديد لم يستخرج من باطن الارض الا منذ أربعة الاف سنـة بينما عرف الانسان الحديد قبل ذلك عند ما كان ينزل خلال الصواعق فى شكل شهب نارية ٠

وقد استعمل الانسان الاكياس الجلدية والسلال لحمل الاثقال ثم العصى تحمل على الاكتاف وتوضع عليها الاثقال ثم ابتكر النعال وبعد اشتداد البرد صنع احذية الثلج وصار يجر اثقاله فوق الجليد على جلود الحيوانات ثم على زحافات ثم على ظهر الحيوانات ومصر أول من استعمل الرافعة لحمل الاثقال كما ان سكان الرافدين كانوا أول من استعمل العجل من قرصين متساوييـــن مقطوعين من جذع شجرة وموصولين بصخور وبذلك انتشرت العربة ورصفت الطرق وكثرت الهجرة ٠

وقد استعمل الانسان جذوع النخل للانتقال على الماء ثم صنع اطوافا من جذوع الاشجار واغصان الشجر وجلود الحيوانات المملوءة بالهواء وصنعت مصر اطوافا من الياف البردى من استعمله قوارب فى النيل ثم زوارق محفورة بالنار من جذوع الشجر المستطيلة تسير بالمجاديف ومنذ 6000 عام بنــى الصانع المصرى قوارب كبيرة بلغ طولها 25 مترا وطلاها بالقار حتى لا يتسرب اليها الماء وبعد ألف عام صنعت مصر سفنا من ارز الشام بصواريها واشرعتهـا فامتدت الملاحة الى البحر المتوسط والاحمر وحملت هذه السفن التجارية قمح وشعير مصر لمقايضته مع مصنوعات البلاد المتوسطية كالاوانى الفخاريـــة والآلات النحـاسيــة ثم استعمـل المصريون السفن البحرية لنقـل الافـراس

والسهام • وقد ظهرت صناعة السفن فى بلاد الرافدين بعد ظهورها فى مصر بخمسة قرون ثم انتقلت بعد الف عام الى اقطار المتوسط •

ومنذ سبعة ءالاف سنة رسمت قبائل النيل علامات على الاوانى وبدأت تستعمل الارقام الحسابية فى صورة خطوط تمثل الاصابع وبعد خمسة عشر قرنا استبدلت النقوش بصور هيروغليفية كتبت على ورق البردى والعظم والعاج ثم تحولت هذه الصور الى حروف هجائية اقتبسها التجار الفينيقيون بعد خمسة وعشرين قرنا • ومن فينيقيا انتشرت فى اقطار البحر المتوسط وقد اخترع الصينيون الورق بعد الميلاد بنيف ومائة عام ثم ادخله العرب فى عصر المعتصم العباسى الى سامرا ثم الشام ومصر ثم اوربا فى القرن الرابع عشر الميلادى •

الفصل الثاني

السلالة البربرية والمغرب العربي

اتفق النسابون على ان القبائل البربرية ترجع الى ارومتين مهمتين وهما برنس ومادغيس (الملقب بالابتر) بحيث لا يوجد من بين البرابرة من يخرج عن هذين الاصلين فهم اما برانس كالمصامدة وصنهاجة وكتامة او بتر كنفوسة وضريسة وقد ذكر بعض المؤرخين ان البرانس من ولد مازيغ ابن كنعان ابن حام والبتر من ذرية بربن قيس بن عيلان بن مضر من ذرية سام ٠

وحكى ابن ابى زرع والبكرى ان بر المذكور وامه يريغ بنت مجدول البربرى وان قبائل البربر كانت تسكن الشام وتجاور العرب فى المساكن والاسواق والمراعي وتشاركهم فى المياه والمسارح وتصاهرهم فازداد العنصـران بذلـك امتزاجا وتداخلا منذ أقدم العصور فالبتر عرب مضريون والبرانس أغلبيتهم من عرب اليمن٠ وقد انتقد ابن حزم كون صنهاجة وكتامة من حمير وتبعه فى نظرياته صاحبا نشر المثانى والبدور الضاوية ولكن جمهور المؤرخين والنسابين صرحوا بنسبتهم الى عرب اليمن كالمسعودى والجرجانى والطبرى وابن الكلبى والسهيلى واعترف ابن خلدون بان هذا هو المشهور عند نسابة العرب ٠

وقد نص كثير ممن درس تاريخ البربر انهم قدموا من آسيا فمروا بمصر ثم بليبيا ودخلوا الى المغرب حيث وجدهم فجر التاريخ فكانوا بذلك اول من استوطن هذه الديار بعد العصر الحجرى ٠

والمغرب فى عرف المؤرخين هو مجموع الاقطار الافريقية الممتدة غربـي مصر بما فيها برقة وطرابلس ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول لانه يستند الى حقائق انسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الاطار الجغرافى ، كما لها عوامل تاريخية تمخضت عن وحدة الفكر والتراب •

ان جزيرة العرب محاطة بالبحر فى أهم جهاتهـا (شمالا وغربا وشرقا) وتعتبر الصحراء امتدادا طبيعيا لها فى الفيـــافى الافريقية نظرا للمقومـــات الجوهرية التى يرتكز عليها المجموع •

نعم ان هذه الصحراء التى هى اعظم صحراء فى العالم كانت فى الماضى اكثر عمرانا منها اليوم كما كانت مسرحا لتطورات عميقة تجعلها من صميم المغرب العربى •

ولقد اندهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التـي كـان المغـرب يسترجع بها وحدته السياسية فى ظرف سنوات معدودة بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها فى مركز من المراكز الى اقصى التخوم مثال ذلك ان بعض أمراء نوميديا (الجزائر الحالية) مثل سيفاكس ملكوا من قرطاجنة الى راشكـون (تلمسان) كما امتد نفوذ الفاطميين من القيروان الى فاس وابن تاشفين من الصحراء الى قلب الجزائر وعبد المومن الى طرابلس وابى الحسن المريني الى حدود برقة •(I)

الا ان معظم المؤرخين الغربيين يتحاشون النتائج المحتومة لهذه الظاهرة زاعمين ان من خواص المغرب وكذلك الشرق انعدام نقطة مركزية تلتف حولها الامة على نسق ما جرى مثلا فى اوربا حيث انبثقت نواة مركزية كدولة بروسيا وجزيرة فرنسا وقشتالة وانجلترا القديمة ثم ترعرعت تدريجيا الى ان تكونت منها الدول الالمانية والفرنسية والاسبانية والانجليزية ، ولعلنا فى غير حاجة الى التدليل على ان عناصر الوحدة التى تتوفر جوهريا في المغرب العربى وتكاد تنعدم لحمتها بين الشعوب الاوربية هى القوام الحقيقى لتلك الظاهرة التـي لم تتحقق قط لفاتح اجنبى غير العرب •

ويقول اولئك المؤرخون ايضا بان الفكر الشرقى ومنه الفكر البربرى يتصور ان تاريخ الشعوب يتسلسل خارج الاطار الجغرافى بمعنى ان الوطنية

(I) المسند لابى مرزوق ــ هسبريس ج 5 عام 1925 •

العربية او البربرية لاترتكز فى نظره على التراب ولا تستلزم وجود وطن لــه حدوده وذاتيته الخاصة وان الجهاز القبلى الذى هو نواة الدولة بفهمه العرب والبربر مجردا عن قوامه الاقليمى لانه جهاز جنسى قبل كل شىء ، ولعل هذا الوهم المستتب فى اذهان بعض الاوربيين راجع الى عدة عوامل منها ان الاسلام فى عهده الاول لم يول كبير اعتبار للوطنية الضيقة-لانه كان يهدف الى نشر فكرة لاتحدها تخوم مصطنعة ومعناها كذلك ان جوهر القبيلة سلالى ككل قبائل العالم ولكن الشىء الذى اغفله هؤلاء المؤرخون هو ان فى المغرب قبائل اندمج جانب منها سياسيا ضمن قبائل اخرى واعطت بذلك الاسبقية للاطار الجغرافى وقد يكون الوازع فى هذه الحال اما امكانيات اقتصادية اوفر واما عواطف خاصة من نوع الحنين الى مسقط الرأس ومرتع الصبا • وعلى كل فان نظرية الغربيين فى هذا الموضوع تنطوى على شىء غير قليل من الافتعال •

وقد شعر سوردون فى كتابه «مؤسسات واعراف البربر فى المغــرب» (ص 348) بما فى ذلك من التناقض فصار يتلعثم فى الدفاع عن هذه الفكرة التى روجها اول الامر بعض المستشرقين والتى تريد ان توفق بين تعلق البربرى بوطنه وعدم وجود روابط قانونية بينه وبين هذا الوطن •

على انه يمكن ان نرى فى هذه الهجرة نفسها دليلا جديدا على ان العقلية البربرية لاتفرق بين اجزاء هذا الوطن الاكبر الذى هو مجموع المغرب وانه متى اعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش فى ناحية انتقلت الى اخرى ضمن الاطار الجغرافى العام بل هنالك قبائل لم تضطرها عوامل من هذا القبيل الى الانتقال الى اجزاء أخرى وكيف لا وهى تشعر هنا وهناك بنفس المنــاخ ونفس الطبيعة ونفس الذهنية والعواطف على ان البحث عن الحيز الحيوى ولو بالانفصال عن المقر الاصلى غير مستبعد حتى فى اوربا التى هاجر رجالها الى امريكا حيث كونوا لانفسهم موطنا جديدا وفى ذلك ما يحدو الاوربيين حسب م• كوتيى الى تغيير نظرهم فى ضرورة القوام الترابى للوطن (العصور الغامضة للمغرب ص93) •

ومع ذلك فان هذه الظاهرة او تلك لم تكن حادية لنفى الاطار الجغرافى كبوتقة لانصهار مقومات الوطن لاسيما وان بعض فلاسفة الاجتماع مثل رونان لايتطلبون فى تكوين الامة سوى وحدة التاريخ والعواطف •

فلنستعرض الآن قبائل زناتة والدور الذى قامت به العوامل السلالية فى تكوين المغرب العربى ·

فقد قررابن خلدون ــ واقره على ذلك مؤرخون غربيون امثال كوتيى وكزيل ــ ان زناتة الذين خصص لهم سفرا خاصا فى تاريخه منتشرون فى المغرب من غدامس الى سوس الاقصى بل يكونون معظم سكان « مداشر » الصحراء وانت تجدهم اليوم فى كورارة يتكلمون اللهجة الزناتية وكذلك فى مزاب وورغلة وقد لاحظ ابن خلدون وجود زناتة كذلك فى ناحية طرابلس ووسط سهول افريقية وجبال الاوراس بالجزائر وما زال الى الآن فى جبل نفوسة الطرابلسية «برابرة لهم صلة تاريخية وثيقة بمملكة تاهرت الزناتية » ويشعرون الى الآن بقرابتهم مع المزابيين « (كوتيى ص 195) ويؤكد ابن خلدون ايضا ان معظم الزناتيين يقطنون المغرب الاوسط (اى الجزائر) وينصب الوادى الزناتى الى اليوم شمال الاوراس فى حدود سهول قسنطينة والتل وقد تغلغلت اللغة العربية فى المواطن الزناتية واعترف بذلك بعض المستعربين المعاصرين ·

ومن زناتة كذلك بنويفرن الذين اسسوا ممالك فى اغمات وشالة وتادلة حيث ظلوا قابضين على زمام الحكم الى عهد المرابطين فى حين اقام بنو عمهم المغراويون ممالك فى فاس وسجلماسة وتلمسان وحتى فى طرابلس ·

واذا تتبعنا مواطن زناتة وجدناهم استوطنوا فى المغرب الاقصى حيث تسربوا من وجدة وفاس وممرتازة الى سهول المحيط الاطلسى المتسمة كلها بالطابع العربى ·

وهكذا نرى ان زناتة التى انتشرت فى مجموع افريقيا الشمالية تمثل احدى الدعائم السلالية لوحدة المغرب ·

ولا يخفى ان نصف البربر البتر من نفوسة ولواتة اى من اصل طرابلسى ولواتة بالخصوص قبيلة أصلها من برقة يقال انها من ارومة قبطية « وقد لعبت دورا هاما فى بداية تاريخ المغرب العربى» كما يقول كوتيى وقد غمر اللواتيون الواردون من الشرق سفوح جبال الاوراس وكانوا عضوا قويا للدولة الحفصية فى تونس ومن فروع البتر المطغريون الذين استوطنوا ممر تازة واحواز تلمسان وفى عصر ابن خلدون كان غالب سكان سجلماسة عاصمة تافيلالت مطغريين وانبث المطغريون كذلك فى واحات النخيل بين توات وفجيج وقد اكد كوتيى

ان فجيج هذه كانت فى القرن الرابع عشر الميلادى هى البقعة الوحيدة التى احتفظت فيها عائلة مطغرية بالسلطة السياسية (206) .

وينتسب المطغريون لبنى فاتن الذين توجد لهم فروع اخرى فى افريقية وباقى نواحى المغرب لاسيما اقاليم المغرب الاوسط المحاذية للصحراء وهم الذين اسسوا مملكة تاهرت وانتقلوا بعد سقوط هذه المملكة الى جنوب القطر التونسي حيث اسسوا جزيرة جربة ومن بين هذه الفروع قبائل مغيلة التى تقطن بالمغرب الاوسط من مصب شليف الى مدينة مزونة والمغرب الاقصى بين فاس وصفرو ومكناس وكذلك مديونة فى مقاطعة تلمسان وممر تازة شمالى فاس ومن اهم قبائل بنى فاتن كومية التى انتقل قسط منها مع عبد المومن الكومى الى المغرب وفى هذه القبيلة فخذة تسمى ندرومة وقد اكد اللغوى الخبير ويليام مارسي ان لهجة ندرومة عربية قديمة ربما دخلت اليها فى العهد الموحدى .

وتقطن فى نفس المقاطعات مكناسة التى اسست كرسيف ورباط تازة واقامت مملكتين احداهما فى التسول (ناحية تازة) والاخرى فى سجلماسة ودائرتها ويتجلى من هذا العرض ان البتر او زناتة استوطنوا السهول المتسلسلة بين النجاد والوهاد من طرابلس الى تازة واصلين بحبل وثيق اقطار المغرب وصحراءه .

ذلك هو بعض الدور الذى قام به البتر فماذا كان دور البرانس ؟

ان قبائل البرانس التى اتسمت باهمية كبرى فى توجيه تاريخ المغرب العربى هى كتامة وصنهاجة ومصمودة .

فموقع كتامة الجغرافى هو الاطار الذى تركزت فيه الدولة الفاطمية والذى كان تابعا لبنى الاغلب امراء افريقية وقد اختار الفاطميون مهدية عاصمة لهم وبعد انهزام ابى يزيد « ابوحمارة» الذى كاد يضعضع اركان الدولة الفاطمية الفتية رجع المنصور الفاطمى الى القيروان حيث اسس المنصورية فى ارباضها ثم كان فتح مصر ولعبت كتامة فى كل ذلك دورا اساسيا حيث كانت السند الاقوى للفاطميين ومنذ ذلك العهد صار الحكم فى المغرب العربى الى البربر المسلمين طوال عدة قرون .

والمقاطعة القبائلية فى الجزائر هى الموقع الاصلى لقبيلة كتامة التى مازال سكان شرقيها يتكلمون لهجة عربية ومعلوم ان اللغة العربية دخلت مبكرا الى

تونس وسهول عناية حيث خلفت مباشرة اللغة البونيقية التى يجمعها معها مصدر واحد فى حين انها لم تدخل الجزائر ــ فى نظر ابن خلدون ــ الا فى القرن الثامن وربما كان لكتامة اثر فى تعريب الناحيتين الوسطى والغربية للمغرب الاوسط وهذا الدور الذى قامت به كتامة فى تاريخ المغرب العربى بل وفى تاريخ الشرق الاسلامى لم يمتد اكثر من نصف قرن ولكنه كان بليغا تغلغل فى الاعماق حيث ادى الى تأسيس الخلافة الفاطمية • وانتقال الكتاميين انفسهم الى الكنانة اما صنهاجة فانها قبيلة ترعرت وامتدت فروعها فى اقاليم شاسعة من المغرب العربى وهى تقطن ناحية «القبائل» من الجزائر والصحراء الغربية (حيث يسمون الزناجة ومنها الزنوج فى بلاد السنغال) وشرقى الاطلس بين ممر تازة والصحراء وهم الذين ساندوا دولة المرابطين ولا تذكر صنهاجة الا مقرونة بكتامة وينتسب كلاهما الى حمير ــ على ما يقال ــ واذا كان اسم صنهاجة قد اندثر فى « قبائل الجزائر فان البربرية قد اندثرت كذلك وخلفتها اللغة العربية الا عند جماعة ضئيلة تسكن بين بليدة والمدية (كوتيى ص 335) •

وصنهاجة الجزائريون الذين استقروا بين المغرب الاوسط وافريقيا ليسوا من القبائل الرحالة مثل بنى عمهم المرابطين وقد خلف الفاطميين فى المغرب امير صنهاجى هو بلقين بن زيرى بن مناد الذى اسس مدينة اشير عام 324 ثم بعدها جزائر بنى مزغانة ومليانة والمدية وقد اسس حماد بن بلقين (عام 397 هـ) القلعة المعروفة بقلعة بنى حماد وهى العاصمة الثانية لبنى زيرى الذين انتقل منهم الناصر بعد ذلك بثلاثة ارباع قرن الى بجاية وهى العاصمة الثالثة والاخيرة لصنهاجة وقد اكد كوتيى ان المملكة الصنهاجية خضعت لتأثيرات الشرق حيث ابرز بيليى فى حفرياته الطابع الشرقى الذى تتسم بــه الهندســة المعماريــة (الطابع العراقى فى اروقة قلعة بنى حماد والطابع الفارسى فى زخرفة الاوانى) اما المصامدة فهم سكان الاطلس الكبير الذين ساندوا دولة الموحدين ومنهم ايضا غمارة سكان الريف •

وقد اتضح الآن ان مجموع الجبال المغربية « والقبائل الجزائرية » كلها من البرانس الذين تعد منهم كذلك قبيلة اوربا وهى قبيلة كسيلة الشهير التى كانت غربى الاوراس حسب «مسكارى» ويقطن عقبها اليوم فى سهول وادى العبيد ووادى العرب ويظهر من كلام ابن خلدون انهم كانوا منتشرين فى التل الوهرانى وناحية تلمسان وحتى ممر تازة ، وقد انتقلوا بعد مقتل عقبة بن نافع وانهزام

كسيلة الى المغرب الاقصى حيث نزلوا مدينة وليلى المعروفة ايضا بقصر فرعون وهذا مظهر لوحدة الجزائر والمغرب الاقصى الجغرافية والتاريخية حيث ان شكلية الاراضى نفسها اقرت رابطة طبيعية بين اقليمي الاوراس والملوية الذين كان امراء نوميديا (اى الجزائر) مثل سيفاكس وماسينيسة وجوكورطا متأرجحين بينهما .

ولكن اين الصحراء من كل هذا ؟ الى اية شعبة ينتسب البربر الذين يتغلغلون فى اعماق الصحراء المتاخمة للسودان ؟ انهم بربر اشهرهم التوارك او الطوارق الذين يعتبرهم ابن خلدون من لمطة ولمتونة الا ان علماء النسب يرون فى هؤلاء فريقين اثنين احدهما اللمطيون واللمتوتيون الذين اسسوا الدولة المرابطية وهم من قرابة صنهاجة الاطلس وصنهاجة الجزائر ، فهم اذن برانس وهنالك فريق آخر وهم ملثمو الشرق المعروفون بالهكار وهم هوارة الذين جاءوا من برقة ولعبوا دورا هاما فى تونس والاوراس الجزائرية فهم اذن بتر من بني عمومة البرانس .

هذا ولم أميز بين العرب والبربر وقد فعلت ذلك عن قصد لان هذا الميز يكاد يكون غير موجود سواء اعتبرنا الارومة العربية للبربر تبعا لرأى كثير من علماء النسب ام اعتبرنا الوحدة الطارئة اثر التوالد والامتزاج بين الجنسين او مظاهر الوحدة الاجتماعية والفكرية وغير ذلك فقد اكد مؤلف عصور المغرب الغامضة « (ص 221 ـ 225) » ان نتائج الفتح العربى بعد مرور اثنى عشر قرنا تبعث على الدهشة لان المغرب استعرب على نطاق واسع كما تغلغل الاسلام فى احشائه وشمل مجموع اجزائه « وقلما احرزت الفتوحات فى تاريخ المعمور مثل هذا النجاح ... لقد شعر ابن خلدون ان امامه بالمغرب وحدة سلالية كبرى » ثم قال كوتى (ص 254) « اننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذبا بين الرحل البربر والعرب ذلك ان تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية اقوى من اختلاف اللغات » وقد أكد رونان ان من دعائم الوطن الوحدة الروحية واهمها وحدة الدين والعواطف فالمغرب الذى احتك نحو الف من السنين بالحضارة القرطاجنية أى البونيقية الشرقية قد احتفظ فى قرارة نفسه باحساسات واستعدادات فطرية نصف لا شعورية تتفتح للاسلام » (256) لهذا فقد اندرج فى بحبوحة الاسلام بالمغرب كل من له فكر مثقف وكل من يحس بالحاجة الملحة الى لغة مكتوبة والى ادب (ص256) والظاهرة الجديدة التى تتحدى تاريخ اوربا

كلها هى أن العربى الفاتح « عبر فى طفرة واحدة مساحات المغرب ناهجا المسلك الطبيعى الدائم بين الهضاب وممر تازة ... وعبر مضيق جبل طارق متجها لفتح الاندلس ساحبا معه القبائل البربرية (257) واغرب من هذا ان الاندلس الذى هو من طينة سلالية غير طينة العرب ولا البربر علق هو ايضا بالعروبة ومظاهرها « واهمل حتى الادب اللاتيتى ــ حسب المؤرخ دوزى ــ اعمق الاهمال واحتقر ابلغ الاحتقار بينما احس بالادب العربى يلهب سويداءه وشعر بمتعة لانهائية خالصة » « كان الاندلسى مستعدا للتنازل عن الادب اللاتيتى كله فى مقابل نتف من الشعر العربى وهذا معيار لنفوذ العرب وسلاح قوى لكسب القلوب (259) وما ثورة الخوارج التى امتدت من طرابلس الى تونس الى الجزائر الى طنجة وسهول سبو ثم من قابس الى فيجيج إلى سجلماسة سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز من دعاة العرب وتحت شعار الاسلام . لم يكن فى هذه اى مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون من وجود روح انفصالية بين العرب والبربر أو روح الثأر من البربر ضد العرب اذ لو كان ذلك حقيقيا لما اصطبغت الثورة بتلك الروح ولا بذلك الشعار غير ان هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات فى العالم ان تمخضت عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الاصلى فاشيع باسمها الدمار فى افريقية ولكنها ادت مع ذلك الى نتيجتها المحتومة وهى كما يقول كوتيى (ص 283) تركيز السيطرة العربية « فى مجموع المغرب من افريقية إلى تاهرت الى تلمسان الى مراكش ولعل من اهم رواسب طفرة الخوارج قيام مملكة المولى ادريس الذى احترمه حتى الاغالبة التونسيون ــ على قول النويرى ــ لقرابته من الرسول واذا كان من عادة امراء البربر الاستناد الى قبيلة مثل كسيلة مع أوربة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية فان المولى ادريس قد احتضنته مجموعة من القبائل لا واحدة ذكر منها ابن خلدون زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة وجميع القبائل الاخرى التى كانت تستوطن المغرب مثل اوربة ومطغرة ومغيلة الجزائرية هذا علاوة على بنى يفرن ومغراوة اى مجموع الكتلة الزناتية من فاس الى الشليف الجزائرى ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مئات من العرب اخترق بهم تامستة الى تادلة الى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبة الى نشر الاسلام وحضارته فى صقلية وهذه هى المرة الاولى التى تطأ فيها أقدام فاتح اجنبى تراب هذه الناحية من جنوب المغرب « لان الامبراطورية الرومانية لم تستطع قط المساس بهذه الكتلة البربرية الضخمة فى المغرب الجنوبى (ص 289) .

ويحق للمؤرخ كوتيي القول بان تاريخ المغرب الاقصى يبتدىء من هذه الفترة التى انفتح بعدها المجال واسعا للمرابطين والموحدين نحو الشمال والشرق

وقد عاد المغرب الاقصى فى عهد المرابطين ـ كما يقول الاستاذ «طيراس» (ج I ص 258) كما كان مغربا مزدهرا تحف به الطمأنينة والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان كما ازدهرت فى عهدهم وبفضلهم فى الاندلس حضارة الاسلام (ج ا ص 259) وقد امكن لابن تاشفين بفضل الفكرة الاسلامية وعزيمته القوية ان يوحد جبال الاطلس (ج ا ص 273) وان يؤسس مملكة مترامية الاطراف تمتد من قشتالة بالاندلس الى الجزائر (ج ا ص 237) وعبد المومن هو الذى وحد المغرب الاسلامى للمرة الاولى فى التاريخ تحت سلطة سياسية مشتركة امتدت من قشتالة الى طرابلس (ج ا ص324) •

وهكذا قامت للمرة الاولى فى التاريخ ـ حسب المؤرخ كزيل ـ دولة موحدة فى مجموع المغرب العربى (سوردون ـ الكتاب المذكور ص 28) ولكن فى هذا العهد (القرن الخامس الهجرى) انصبت على المغرب موجة من العرب الهلاليين والسلميين وكانت العربية اذ ذاك هى اللغة الوحيدة المنظمة بالمغرب العربى بالمعنى العادى للفظة لغة اى جهاز كامل الاجزاء بمفرداته ونحوه وكتابته وادبه « بينما ظلت اللهجات البربرية اللغة الشعبية خارج الحواضر (عصور المغرب الغامضة ص 376) غير ان العرب الجدد اشاعوا اللغة العربية فى شكلها الدارج حيثما حلوا اى فى البادية نفسها وبذلك تغلغلت العربية فى تونس وحواشى الاوراس والهدنة وهضاب اقليم وهران وسهوله وتسربت من ممر تازة الى سهول المحيط الاطلسى اى فى مجموع البلاد التى تسودها السلالة الزناتية ومعنى هذا ان العامل اللغوى انضاف الى العامل الجنسى لترصيص الوحدة بين هذه الاقطار من المغرب العربى وقد امتد اشعاع اللغة البونيقية التى كانت قريبة من عامية افريقيا الشمالية حسب الحفريات التى عثر عليها فى البرازيل مؤرخة بعام والاوراس (تاريخ المغرب ـ كواساك ص 31) مثال ذلك ما لوحظ فى البونيقية من 25 ق• م• من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية ثم الى بلاد الجريد ان (ملك) لها نفس المعنى فى اللغتين (سوردون ـ الكتاب المذكور ص 36) •

على ان عرب معقل بلغوا مجموع الصحراء المغربية ولم يزد عددهم اذ ذاك على المائتين ومع ذلك تمكنوا من تعريب جزء غير يسير من صحراء المغرب ومنها شنجيط على ان افواج بنى هلال وبنى سليم التى اخترقت الفين من الكيلومترات لقطع المسافة الفاصلة بين صعيد مصر وتونس وكلها صحراء ما كانت لتتعدى

الرومانية في المغرب العربي فقد لاحظ كثير من المؤرخين الغربيين ومن بينهم سوردون (كتابه المذكور ص 41) « ان خمسة قرون ونصف قرن من المدنية الرومانية » تبخرت في المغرب في ظرف قرنين اثنين ونصف قرن من فتح قرطاجنة على يد جنسيريك عام 439 م • الى ان فتح عقبة بن نافع مدينة طنجة عام 682م • وبعد هذا التاريخ لم يبق فوق تراب المغرب اى تراث روماني غير الانقاض

هذا في حين ان حضارة البونيك ظلت متأصلة في المغرب العربي حيث امتد نفوذها الى القرن الخامس اى طوال الاحتلال الروماني « محققة بذلك فترة انتقال سهلة الى الفتح العربي (سوردون ص 31) •

ولكن لماذا نجحت حضارة البونيك حيث اخفقت مدنية الرومان ؟

يظهر ان وجود القرطاجنيين في المغرب يرجع الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد اسست قرطاجنة عام 813 قبل الميلاد ولكن مدينة اوتيك التي اسست بالقرب منها عام 1101 ق• م• وكذلك المدينتان المعروفتان ب « هيبو وهما بنزرت وعنابة او مدينة ليبتيس ماكنة » اى طرابلس وتم هدم قرطاجنة عام 146 قبل المسيح بحيث يمكن القول بان النفوذ الفنيقي بالمغرب استمر عمليا الف عام وكانت قرطاجنة هذه تمثل في غربي البحر الابيض المتوسط الحضارة الشرقية التي هي اقدم حضارة في العالم وقد فضل الفنيقيون الاستيطان في السواحل واقامة مدنهم على طولها حفظا لملاحتهم التجارية ومن بين تلك المدن قرطاجنة التي صارت عاصمة المغرب والتي دمرها الرومان في « الحرب البونيقية الثالثة » التي كانت معركة دمار تهدف لمنع الزعيم ماسينيسا من الاستيلاء عليها واتخاذها عاصمة لمملكة مغربية وطنية كبرى تلك هي نظرية المؤرخ كزيل الذى اكد من جهة اخرى ان ماسينسا هذا تمنى ان يكون بالنسبة للحضارة البونيقية ما كانه الاسكندر المقدوني بالنسبة للحضارة الافريقية « لاسيما وان هذا الامتزاج والتداخل كانا قد قطعا اشواطا في المغرب لانهما تهيئا منذ قرون (كوتيي ص 102) •

ويرى كزيل ان قرطاجنة لم تبذل قط جهودا منظمة لادماج المغرب ولم تستعمر البادية المغربية مثل روما وقد اسست نحو العشرين مدينة في الساحل بين طرابلس وتونس وامتزج الدم القرطاجني بالدم البربري فكانت لحمة اولى بين الشرق العربي الممثل في القرطاجنيين وبين المغرب المشخص في البرابرة

وكانت لغة البونيك « التى تقرب من ارامية اهل الشام » (1) اللغة الرسمية عند امراء نوميديا القوميين ولكن النفوذ البونيقى تجاوز نطاق الحدود التى كانت تشرف عليها قرطاجنة حيث وقع العثور على كتابات بونيقية فى تونس وشرقى الجزائر واكد سان ـ اوكستان (الذى ولد فى منتصف القرن الرابع الميلادى) ان اللغة البونيقية كانت منتشرة فى البادية فى عهده واكد « بروكوب» انها كانت دارجة فى القرن السادس والمسافة قصيرة بين هذا العهد والفتح الاسلامى لهذا يقول كزيل ـ ان فى وسعنا ان نفرض ان البربر تبنوا لغة الاسلام لانهم تعلموها بدون مشقة لمعرفتهم للبونيقية التى لا تختلف عنها كثيرا (تاريخ افريقيا الشمالية القديم ج 4 ص 497) وقد استند كزيل نفسه الى وثائق قديمة اشار اليها فى كتابه واستنتج منها كوتيي (عصور المغرب الغامضة ص 165) تسلسل تاريخ المغرب تسلسلا عميقا « وقد وصف لنا بروكوب المذكور كيف هاجر العرب الناطقون باللسان البونيقى الى المغرب بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكانت فينيقيا تمتد اذ ذاك من صيدون (وهى صيدا الحالية) الى مصر وعند ماكتسحها العبريون هاجر الفنيقيون من وطنهم الى بلاد الكنانة التى كانت فى حدود بلادهم ومنها الى المغرب حيث انتشروا الى اساطين هرقل (مضيق جبل طارق) ولهـذه النظرية صلة بما قاله المؤرخون العرب فى انتساب كتامة وصنهاجة الى حمير ومعلوم ان الحميريين اقطاب الملاحة التجارية بين الهند وشرقى حوض المتوسط هم مثل الفنيقيين بالنسبة لهذا الحوض وكان من بين البربر ـ فى نظر ابن خلدون ـ قبائل حميرية ومضرية وقبطية وكنعانية وقرشية تجمعت فى الشام وبها غزا افريقش الحميرى المغرب ٠

ومهما تكن قيمة هذه النظرية فالواقع ان القرطاجنيين مشارقة وان لغتهم وحضارتهم الشرقيتين ظلتا «كما يقول كزيل» تحت الرماد طوال عهد الرومان والوندال والبزنطيين الى ان جاء الاسلام فوجد فى « قرطاجنة جرثومة مشرقية لم تندثر بل كانت مستعدة للتفتح والازدهار واستمرار البونيقية فى المغرب كانت له فى نظر كزيل ذيول اخرى منها الدينى (عبادة بعل مثل العرب) واستعمال الهلال واليد (الاصابع الخمسة) للاتقاء من العين والمحافظة الشديدة والتمسك بالدين ٠

---

(1) راجع بحثنا فى مجلة « اللسان العربى » (ج 2 عام 1965) حول عروبة اللغة البونية *Langue punique* وشبهها بعامية افريقيا الشمالية ٠

ويستمر لزيل فى الاستنتاج فيلاحظ كمظاهر للطابع الشرقى فى المغرب استعمال القرطاجنيين للقميص الطويل بدون حزام وللشاشية والبرنس مع حلق الشعر او تقصيره وارسال اللحى وصبغها واستعمال الحناء والكحل والختان والسجود فى العبادة (مما كان يدهش الاغريق والرومان) وتحريم لحم الخنزير وما هو اعظم من ذلك وهو وحدة الفكر الذى يختلف هنا عن فكر الغربيين (كوتيى ص 125) ٠

والذى يؤكد أيضا من الوجهة التاريخية وحدة القرطاجنيين والبربر او وحدة الشرق والمغرب ان القطرين اللذين فتحهما المسلمون واستوطنوهما خارج افريقيا فى غرب حوض البحر المتوسط هما الاندلس وصقلية وهما وحدهما اللذان استوطنهما الفنيقيون والقرطاجنيون قبل « الاسلام » وعلى كل فان وجود هذه الصلة بين قرطاجنة والاسلام قد اندرج فى سجل التاريخ وان سكان قسط شاسع من المغرب يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية ويلبسون ويتعممون ويفكرون ويحسبون على طريقة المشارقة منذ ما يقرب من ثلاثة ءالاف من السنين (كوتيى ص 130 ـ 132) ٠

* * *

الفصل الثالث

القرطاجنيون بين افريقيا واوربا

بدأ العهد القرطاجني في افريقيا الشمالية باقامة مراكز تجارية على السواحل منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد مثل ليكسوس (بالقرب من العرائش) واوتيك على مقربة من قرطاجنة (1) كما اسس الفنيقيون عام 1101 ق. م. مدينة قادس (التي كانوا يراقبون منها تجارة الاندلس في مدخل الوادي الكبير حيث مركز مبادلات الفضة والقصدير) ثم حاضرتي هيبو في المكانين اللذين تقع فيهما الان بنزرت وعنابة وكذلك مدينتي هدروميت (سوسة) ولبتيس ماكينا (طرابلس).

غير ان الحاضرة الكبرى التي طبعت حضارة المغرب خلال الف سنة هي قرطاجنة (قرية حداش اي القرية الحديثة بالبونيقية) التي بنيت عام 814 قبل الميلاد وفي القرن السادس والى الاغريقيون فتوحاتهم غربي البحر الابيض المتوسط كما بسط الفرس نفوذهم على تير (صور الحالية بلبنان) ومصر ولكن رد فعل قرطاجنة كان قويا حيث ركزت وجودها في افريقية بمحاربة صقلية وسردينية وكورسيكة وبهذا الانتصار تفتحت في وجهها مجالات الغرب واحتكار تجارة الاندلس غير ان الاستعمار اليوناني احتفظ في صقلية ببعض المراكز مثل سيراكوز التي اصبحت في القرن الخامس اغنى مدينة

(1) درج المؤرخون على استعمال لفظة قرطاجنة وهم يقصدون *Carthage* الافريقية وهناك قرطاجنة الاندلسية

فى الامبراطورية الهيلينية وقد توقفت الفتوح البحرية الفينيقية عام 480 قبل الميلاد على اثر انهزام القرطاجنيين فى صقلية وهنالك اتجهت غارات قرطاجنة نحو افريقية فاثار تدخلها موجة من الثورات البربرية فى غضون القرن الرابع وقد سقطت تير تحت ضربات الاسكندر المقدونى عام 332 فخشيت قرطاجنة اغارة اليونان على افريقية وحداها ذلك الى القبوع الدفاعى والكف عن بث القلاقل فى صقلية لاسيما خلال الحروب الاهلية التى عقبت وفاة الامير الصقلى اغاطوكل عام 289 ق م وقد حاول هذا احتلال افريقية والقضـــاء على قرطاجنة فكـــان بذلك اول من فتح الطريق لغزو القارة لطرد الفنيقيين على ان هؤلاء عرفوا كيف يضغطون موقتا على رومـــة للاعتراف بنفوذهم فى صقلية الا ان العلائق التى ظلت طيبة خلال قرون بين قرطاجنة وروما مافتئت ان توترت وقد سبق ان عقدت معاهدات بين الحاضرتين منذ القرن السادس تسمح احداها لرومة بالمبادلات التجارية مع صقلية القرطاجنية وميناء قرطاجنة كما تنص اخرى على تحظير تدخل هذه فى ايطاليا وكذلك رومة فى صقلية غير أن سوء نية الجانبين اسفرت عن احتكاكهما ونشوب سلسلة من الحروب سميت بالحروب البونيقية فقد تعللت رومة بتحفز القرطاجنيين لمهاجمة ايطالية فأثارت حربا وقائية لتبريـــر مطامعها الاقتصادية والعسكرية ٠

وكانت قرطاجنة اذ ذاك سيدة البحار كما كان الجيش الرومانى متفوقا فى البر وقد وفق الرومان فى غزو صقلية منذ سنة 261ق‌م ولكنهم شعروا على اثر الحملة الاولى بضعفهم الملاحى فبادروا ببناء نواة اسطول ضم مائة وعشرين مركبا احرز اول نصر على القطع القرطاجنية رغم قوتها العتيدة ثم حاول الاعلاج عام 236ق‌م النزول بافريقية باسطول جديد تعزز بثلاثمائة وثلاثيـــن قطعـــة واربعين الف بحار ولكن القرطاجنيين مالبثوا ــ عقب هذه الصدمة الاولى ــ ان جـــددوا نظام جيشهم وانـــزلوا ضربة قاسية بعدوهم مستخدمين الجنـــود الافارقة والفيلة وقد اعاد الرومان الكرة ولكن الزوابع عصفت بثمانين قطعة من 460 فاضطر ذلك رومة الى تركيز جهدها فى صقلية وبذلك احتفظت قرطاجنة بسيادتها فى البحار ومع ذلك لم تتوفر لدى الجنرالات البونيقين القوات الكافية لشن حملة مضادة فى عقر مراكز الخصم الا ما كان من القائد هاملكار الذى أقض مضاجع الروما (274 ق‌م) من أعلى معاقله المقامة حول باليـــرم (العاصمـــة القديمة لصقلية) بعرقلة المواصلات بين الحاميات الرومانية وسير القوافل ٠ وظل الطموح العسكرى الرومانى لازما بقدر ما كان القرطاجنيون لا يهتمون الا

بالجانب الاقتصادى فى حركتهم التوسعية فلذلك عاد الرومان الى تقوية عتادهم الاسطولى فتمكنوا عام 241 قم من مصادرة او اغراق سفن التموين القرطاجنية مما اضطر قرطاجنة التى اصبحت خالية الوفاض من المقومات المالية والجيوش الكافية الى التنازل فانسحبت من صقلية ومن الجزر الواقعة بين هذه وبين ايطاليا وادت الى رومة تعويضات عسكرية وبذلك خسر القرطاجنيون خمسمائة سفينة ونضبت مواردهم الجمركية وانضم عشرون الفا من المرتزقة العائدين من صقلية الى الافارقة الموتورين من جراء التكاليف الجبائية الفادحة فى خلاف احتدم ازيد من ثلاث سنوات فى شكل صراع بين الطبقات وقد لعبت المرأة البربرية دورا مهما فى هذه الانتفاضة عندما ضحت بحليها فى سبيل قضية الحرية وقد انبثق ماطو من صفوف الاحرار الافارقة واعطى اشارة الثورة فانضوى تحت رايته سبعون الفا عبأت قرطاجنة لسحقهم القائد هانون الذى لم يستطع مع ذلـــك الحيلولة دون احتلال الاحرار لمدينة قرطاجنة ولتونس ومحاصرة اوتيك وبنزرت

واذا لم يكن الاحرار قد تمكنوا من السيطرة على العاصمة فما ذلك الا بسبب التشاجر الذى استمر بين الافارقة آنذاك فعرقل حركة التحرير وقد استنجدت قرطاجنة بها ميلكار وعززته بالخيالة النوميديين الذين مكنوه من الضرب على يد المرتزقة غير ان هؤلاء قاموا برد فعل عنيف ذهب ضحيته النبلاء القرطاجنيون فلم يبق والحالة هذه بد من نشوب الحرب .

ولعبت رومة على الحبلين فبعد ما امدت الاحرار الافارقة طالبت قرطاجنة بالتنازل عن كورسيكا وسردينية واداء غرامة مهددة اياها بالتدخل (عام241قم) ثم سمحت للبونيقيين بتعبئة المرتزقة فى ايطالية وسهلت تموينهم حائلة فى نفس الوقت دون انبثاق قوة الجانب الآخر من المرتزقة والاحرار الافارقة الذين استطاعت قرطاجنة سحقهم رغم استمرار صمود الاحـــرار ، فصلـــبت ماطـــو واستعادت كلامن اوتيك وبنزرت (عام 237قم) .

وقد خرجت قرطاجنة منهوكة القوى من هذه الحرب ولكنها سلمت اسبانيا ومعادنها الفضية الى هاميلكار الذى خلصها من المرتزقة بشغلهم فى احتلال الاندلس وفتح شبكة تجارية جديدة بين شقى البحر المتوسط وقد ظهرت فى هذه الفترة بالاقاليم الاسبانية حضارة وفن هما مزيج من العناصر اليونانية والبونيقية والاسبانية ، وتمكنت قرطاجنة من تكديس الفضة لسك كميات وافرة من النقود ولما مات هاميلكار خلفه صهره هاسدروبال الذى اسس حول مناجم

الفضة مركزا بحريا وتجاريا هو قرطاجنة الجديدة وقد اقلق ذلك رومة التى خشيت مغبة إتصال البونيقيين بالغوليين فى الشمال .

وما لبث هاسد روبال ان اغتيل فاثار اغتياله موجة من الاستياء فى قرطاجنة ولكن جيش اسبانيا لم يعبأ بهذه الحملة فرفع الى كرسى القيادة الشاب حنبعل (نجل هاميلكار برفا) الذى لم يكن عمره يتجاوز ربع قرن والذى برهن عن خصال سامية كقائد يمتاز بالدراية فى الادارة والتنسيق وقد عرف هذا كيف يوسع شبكة نفوذه فى اسبانيا فاحتل عدة أقاليم وأناخ الوضع الجديد بكلكل ثقيل على مصالح مرسيلية التجارية وسياسة رومة لاسيما وان تملك مناجم الفضة أقض مضاجع رجال المال الايطاليين وقد حاول الرومان الضغط على اعضاء مجلس الشيوخ البونيقي بحملهم على ابعاد القائد حنبعل ولكنهم رفضوا وتركوا رومة امام مسؤولياتها لاختيار الحرب (عام 219 ق م) .

الحرب البونيقية الثالثة

وكان حنبعل قد آلى على نفسه امام والده منذ كان له من العمر تسع سنوات الاقتصاص من الروم فانفسح له المجال ولم تكن رومة تحسب لهذه العبقرية المتفتقة حسابها فاستنفر القائد جيوشه المؤلفة من 50.000 راجل وتسعة الاف فارس و 37 من الفيلة ووصل بعد خمسة اشهر الى سهول وادي « بو » شمالى ايطاليا بعد ان انخفضت قواته الى ستة وعشرين الفا و 21 فيلا وقد احرز حنبعل نصرا أوليا بانضمام بعض العناصر الغولية وغيرها الى جيشه فكان لذلك اثره السيىء على سمعة الرومان ثم انتصر ثانيا بمحق ثلاثة ارباع الفيالق الرومانية فاتسعت شبكة الثورة الغولية ثم قضى حنبعل فى معركة ثالثة على القائد فلامينيوس (ولم يكن قد بقى له حينذاك سوى فيل واحد) مع خمسة عشر الف جندى رومانى واسر نفس العدد من الاخلاط الذين حرر من لم يكن منهم رومانيا وبذلك ظهر بمظهر البطل المحرر للايطاليين .

ثم استمر العراك فقتل حنبعل (عام 216 ق م) القنصل والخطيب المصقع بول ايميل مع خمسة واربعين الفا من الرومان واسر عشرين الفا وكانت قواته قد انخفضت الى نصفها مقابل ثمانين الفا من الروم ولم ير حنبعل من المناسب تطويق رومة املا منه فى تنازل مجلس الشيوخ الرومانى غير ان هذه الملحمة

انقلبت بعد سنة 213 قم الى مغامرة فانهارت قوة الجنرال القرطاجنى وتمكن الرومان فى ظرف عامين من طرد البونيقيين من صقلية الى الابد ثم من احتلال الاندلس على يد القائد الرومانى سبيون وحرمان قرطاجنة من مواردها •

واضطر حنبعل (عام 207قم) الى القبوع فى برسيوم بايطاليا الجنوبية بعد وفاة اخيه هاسد روبال برفا الذى ذهب لانقاذه •

وبعد ماعاد سيبيون الافريقى فى السنة المقبلة من الاندلس اقترح الهجوم على افريقية فصادف تحمس الشعب ولكن مجلس الشيوخ لم يتقبل هذه الفكرة فطفق يعمل بوسائله الخاصة على اعداد الحرب مستمدا موارده من صقلية وحاول استمالة كل من سيفاكس امير نوميدية الغربية (بلاد مزاب الحالية) ومسينيسة نجل ملك نوميدية الشرقية الذى قلص سيفاكس من نفوذه واحاله بعد ذلك الى شاب حر الفكر متأهب للثورة على راس القبائل الافريقية ، غير ان فتاة قرطاجنية زفت الى سيفاكس فكان لها الاثر القوى فى انضمام زوجها الى صف قرطاجنة مما دفع ماسينيسة الى الانكماش فى سيرته الصغرى (خليج قابس الحالى) وهكذا اصيب سيبيون بصدمة مزدوجة ولكنه مالبث ان حظي تحت ضغط الشعب الرومانى بتأييد الشيوخ الذين صادقوا (عام 204 ق م) على مشاريعه فتزل بافريقية قرب اوتيك ولم يكن لقرطاجنة المحصنة وراء اسوارها جيش عتيد يحميها من المغير وانما كانت تعتمد على تدخل امراء البربر واستطاعت استمالة ماسينيسة باغداق الوعود غير ان الامير الشاب انضم للعدو واستطاع سيبيون القضاء على جيوش سيفاكس فقتل فيها اربعين الف جندى واسر خمسة الاف (عام 203 قم) وحاصر قرطاجنة بعد ان عسكر بتونس واعتقل ماسينيسة القائد سيفاكس ودخل الى سيرته *Cirta* بنوميدية (قسطنطينية الحالية) حيث نصب ملكا •

وفى هذه الفترة هادن سيبيون القرطاجنيين للتفاوض من اجل السلام ولكنه فسخ الهدنة على اثر استلاء سكان قرطاجنة الجيع على سفن كانت محملة بالمواد الغذائية وكان الشعب القرطاجنى يعتمد على حنبعل الذى استقدم من ايطالية وقد عاد حنبل ونزل بلبتيس مينور (لمطة) عام 203 ق م وفى ناحية الكهف اصطدم القائد القرطاجنى بالجنرال الرومانى فرفض هذا الاخير عقد الصلح بالشروط المقررة فيما قبل وهى تسليم اسبانيا والجزر الى رومة واحتفاظ قرطاجنة بالسيطرة فى افريقية وتحطيم الاسطول البونيقى عداعشرين

سفينة وقد تعزز سيبيون بجنود ما سينيسة فهزم حنبعل الذى فر الى هدروت تاركا عشرين الف جندى صرعى فى ميدان القتال ونفس العدد فى قبضةالرومان وتلبية لطلب الهدنة من طرف القرطاجنيين قرر القائد المنتصر احتفاظ قرطاجنة بمنطقتها الافريقية دون ان يكون لها حق الانغمار فى حرب دون اذن من رومة مع تسلم ماسينيسة مقاليد الحُكم فى الاقاليم النوميدية وكان على قرطاجنة بالاضافة الى ذلك العدول عن فيلتها واسطولها عدا عشرة مراكب) واداء غرامة وقد قبلت قرطاجنة هذه الشروط القاسية وشعر حنبعل بضرورة القضاء على الارستقراطية المالية التى تحملت قسطا وافرا من تبعة الانهزام وقد انزل حنبعل ضرباته الاولى بمجلس الشيوخ ثم انكب على تجديد النظام المالى والفلاحى فى المدينة الى أن أدت حملات خصوم حنبعل من مواطنيه وتخوفات رومة الى نفيــه وخرجت قرطاجنة منهارة بعد حرب دامت ازيد من ستين سنة تصادمت فيها حضارة الشرق البونيقية بحضارة الغرب الرومانية .

والحضارة الشرقية البونيقية هى التى تهم المغرب مباشرة لان قرطاجنة كانت عاصمة للمغارب الثلاثة بينما لم تؤثر الحضارة اللاتينية الا فى بلورة سياسة رومة الافريقية .

* * *

الفصل الرابع

الحضارة القرطاجنية

شكلت قرطاجنة حاضرة مهمة يبلغ سكانها مآت الآلاف من النسمات وكانت تحف بها أسوار طولها أربعة وثلاثون كيلومتر في سمك يقدر بثلاثة عشر مترا وعرض يصل الى تسعة أمتار مع اقامة برج دفاعي كل ستين مترا تقريبا وقد انقسمت المدينة الى ثلاثة شوارع تكدست على جوانبها دور ومنازل ذات ست طبقات وذلك علاوة على الربض الذى امتد الى مساحات واسعة أما الميناء الذى كان قلب الاقتصاد النابض في هذه الحاضرة فقد احتوى على حوضين أحدهما تجارى يتصل بالبحر والآخر يرابط فيه الاسطول الحربى . والوضع الخاص الذى امتاز به هذا المرفأ بين حوضي البحر المتوسط على مقربة من صقلية وسردينية جعل منه مركزا ممتازا للتجارة الدولية فلهذا وجه القرطاجنيون كل جهودهم للخطوط الملاحية ضاربين صفحا عن مراقبة الطرق البرية لاسيما مايؤدى منها الى الصحراء.

وكانت سياسة قرطاجنة تتسم بطابع اقتصادى يهدف الى البحث عن المنافذ التجارية وقد قام قائدان قرطاجنيان بجولتين حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد قام باحداهما هيميلكون على طول السواحل الاوربية شمالى قادس لدراسة أسواق القصدير أما هانون فقد اجتاز اساطين هرقل (مضيق جبل طارق) بستين سفينة وأسس مراكز عديدة منها سبعة على شاطىء المغرب الى مصب الساقية الحمراء والجزر الخالدات ثم الى خليج غينية بالقرب من خط الاستواء وقد كتب القائدان رحلتين توجد ترجمة احداهما وهى رحلة هانون ٥

وهكذا وطد القرطجنيون سيادتهم الاقتصادية بانشاء مراكز اما فى افريقية (طرابلس ــ لمطة ــ سوسة اوتيك ــ بنزرت ــ عنابة سكيكدة ــ بجاية ــ شرشل ــ تنس) وعلى سواحل المحيط الاطلسى (ليكسوس علاوة على المراكز الاخرى مثل الصويرة واكادير) أو فى اسبانيا (قادس ــ مالقة) أو سردينية وصقلية ومالطة وكانت مصالحها التجارية تحدوها أحيانا الى الحيلولة دون تطور المرافىء الاخرى دعما لاحتكارها وقد اقتصرت قرطاجنة على السواحل دون ان تتوغل داخل الاقاليم الافريقية ويظهران موارد الثورة القرطجنية كانت مستمدة مــن المتاجرة فى المواد الأولية واعادة توزيعها كالهولنديين فيما بعد .

ففى فزان وغدامس كانت تتجمع بضائع مختلفة مثل العبيد السود والذهب والعاج وجلود البهائم والبيض وريش النعام المستورد من افريقيا الوسطى وفى صقلية الزيوت والانبذة وفى سردينية الحبوب والفضة والنحاس وفى أسبأنية الفضة وكذلك القصدير والعنبر المجلوبان من الاقطار الشمالية وذلك علاوة على الاحجار الثمينة التى كانت المورد الاساسى للثراء .

ولم يتأت لقرطاجنة مدة طويلة ان تحتاج الى نقود البرونز التى لم تسكها الا بعد منتصف القرن الرابع وكذلك نقود الفضة التى لم تعرف الا فى القرن التالي على ان ضرب النقود كانت ضرورة عسكرية أكثر منها تجارية لأن المقايضة أى المبادلات الطبيعية بين المواد والبضائع ظلت أساس التعامل ، ففى مقابل المواد الاولية كان القرطجنيون يدفعون المواد المستوردة أو المنتجات الصناعية من أنسجة وخزف وعطور وزجاج وسلاح وخمور .

ويلاحظ ان الصناعة القرطجنية لم تزدهر ازدهارا خاصا نعم اختــص البونيقيون بصناعة السفن والالآت المرفئية كما اسسوا معامل للحديد والنحاس والبرونز والمعادن والاسلحة والزجاج والادوات العاجية والحجارات الرقيقــة والاخزاف المنقوشة ولكنهم امتازوا باعداد الاصباغ الارجوانية والنسيج وصناعة الجلود أما المصنوعات الرقيقة الرائقة فانها كانت تجلب من الخارج .

أما الفلاحة فانها كانت ضعيفة الانتاج لانحصارها فى اطار ضيق لم يكن يعدو بعض الاقاليم والارباض الساحلية غير ان صيتها ذاع نظــرا لضخامــة الزياتين والكروم والسوائم منذ أواخر القرن الرابع وينسب الرومان أنفسهم الى القرطاجنيين كشف الآلات الفلاحية ولذلك عمدوا الى ترجمة كتاب الفلاحــة

التى صنفه ماكون البونيقى فى ثمانية وعشرين مجلدا ووضع فيه القواعد الادارية لتسيير الضيع الفلاحية ويظهر ان الطبقة الارستقراطية من القرطجنيين كانت تملك حقولا شاسعة بل مقاطعات واسعة كالرومان فيما بعد والافارقة الملاكون الاصليون لهذه الاراضى كانوا يعملون خدمة وعبيدا وقد توفــرت آنذاك غراسة اشجار الزيتون والتين واللوز والرمان والكرم وتربية المواشى والافراس التى بلغت وفرتها ما لم تصل اليه أقطار اخرى ، وكان الاهالى يزرعون الحبوب ويستعملون المحاريث الحديدية ٠

والى جانب ذلك اهتم القرطجنيون بتربية الدواجن والنحل التى كانوا يستخلصون منها صمغا مشهورا بالجودة ويعصرون الزيوت ويصيدون الاسماك ويصبرونها كما يقتنصون الصيد ومع ذلك لم تكن المحاصيل تزيد على الحاجـة المحلية ٠

وهكذا نرى ان حكومة قرطاجنة كانت حكومة من رجال المال تحكم مصالح الدولة الاقتصادية فى السياسة ٠ أما دستورها فقد شبهه ارسطو فى كتاب السياسة (حوالى 335 ق٠م٠) بدستور جمهورية سبارت *Spart* أى اليونان القديمة والمظنون ان الملكية كانت فى الأوائل هى النظام السياسى ثم عقبها نظام القضـاة مثل ما وقـع فى رومة حيث خلفت الملكية نظام القناصل فكان هنالك حاكمان مدنيان ينتخبهما الشعب كل سنة ويساعدهما مجلس للشيوخ يتركب من نحو ثلاث مائة عضو يختارون مدى الحياة من بين الطبقة الارستقراطية التى توارثت النفوذ طوال قرنين كاملين أما الشؤون العامة فقد كان يسيرها مجلس مكون من ثلاثين شيخا بينما كان القضاء موزعا بين مجالس مشكلة من خمسة أعضاء هى التى تتولى تعيين المحكمة العليا التى اسست منذ القرن الخامس من أربعة ومائة عضو للحيلولة دون المحاولات الاستبدادية وعندما تنتهى مامورية هؤلاء الاعضاء كانوا يتخلصون من اقتصاص خصومهم بالاندراج فى سلك القضاة الذين يتمتعون بنوع من الحصانة ٠

وتحت كل هؤلاء كانت تعيش الجماهير وفى طليعتها عملة المواني‌ء الذين استفادوا من صلاتهم الدولية ما نمى معارفهم وأذكى حاستهـم الاستطلاعيـة وشعورهم بالقوة فلهذا انبرى فعلة ميناء قرطاجنة المحرومون من حقوقهـــم السياسية لتعزيز مطالبهم بالعنف والسعى للقضاء على القــواد والجنـرالات والارستقراطيين غير الاكفاء وقد تطور الدستور فى غضون الحروب البونيقية نحو

تعزيز اسس الديموقراطية حيث تخلص حنبعل من نفوذ النبلاء الصارخ فخفض مدة مامورية القضاة الى سنة واحدة بدل استمرارها مدى الحياة ولكن هذا الاصلاح الجزئي لم ينجح لان عناصر الانهيار كانت قد تسربت الى دواليب الحكم في قرطاجنة .

على ان الدولة التي كانت تخشى استبداد القواد قد انزلت ضرباتها بهم منذ القرن الرابع وحصنت الحاضرة كما ضمنت السيطرة على البحار باسطول قوى وكان لها فى الاول جيش وطني شارك فيه الاثرياء البونيقيون فى فيالق الخيالة ولكن هذا الجيش بدأ منذ القرن السادس ق٠ م٠ يستخدم المرتزقة من أفارقة وغيرهم من شعوب جزر وسواحل المتوسط ثم صار فى القرن الثالث يستمد مقوماته الاساسية فى الرجال من افريقية وحدها حيث اسند قيادة كتائب الفرسان الى الأمراء النوميديين وعندما تخلت قرطاجنة عن فيلتها الحربية طاردتها الى جبل الاطلس وكانت تدربها على يد هنود اقاموا اصطبلات ومسارح داخل المدينة وكان الفيل يقوم فى المعترك مقام الدبابة ويثير الرعب فى صفوف الروم غير ان هذا العتاد الحى كثيرا ما كان يعود الكرة فينقلب ضد أسياده .

وكانت لقرطاجنة موارد مختلفة منها دخل الجمارك والضرائب البلدية والجبايات الموظفة على الافارقة وقد در ذلك عليها أموالا باهظة لم تكن تنافسها فى الضخامة الاحاضرة الاسكندرية فى القرنين الثالث والثانى غير ان هذه الموارد ضعفت من جراء الازمات الناتجة عن الحروب مع روما فاضطر القرطجنيون الى انتزاع نصف محاصيل الفلاحين ومضاعفة الجبايات الحضرية فكان لذلك وقع سيىء وزاد الازمة توترا بين قرطاجنة والافارقة الاحرار .

★ ★ ★

والفينيقيون كنعانيون من أبناء عمومة البربر اخترعوا حروفا هجائية كما اخترع البرابرة نوعا من الحروف أيام كانت الكتابة لاتزال هيروغليفية وكانت لغة الكنعانيين عربية لايميزها عن الفصحى الاهلهلة الاعراب وقد انحدر معظم البرابرة من الشام حيث كانت القبائل الرحل تنتجع الكلأ فى السفوح والهضاب الفينيقية فكانت تتصل بالفينيقيين الذين كانوا من جهتهم يتوغلون فى سهول

الشام وسواحله من أجل التجارة وقد اختار فريق من الكنعانيين الاصليين الفلاحة على التجارة فجمعتهم ببربر الشام المراعى والمياه والاسواق البدوية المشتركة .

وقد دخل الكنعانيون العرب الى المغرب دخولا رسمياً (لان اشتاتا منهم كانت قد دخلت قبل ذلك) عام 480 قبل الميلاد ـ فازداد امتزاجهم بابناء عمهم البربر وتكونت فى افريقيا الشمالية اذ ذاك لغة تسمى باللغة البونيكية (*Punique*) هى عامية افريقية الشمالية وكانت هذه اللغة حسبما تشهد بذلك ألواح أثرية سلمت من عوادى الزمان ـ قريبة من اللغة العربية الفصيحة . ويحدثناالمؤرخون ان اللغة البونيكية كانت لغة علمية دونت بها المعارف والفنون ولكن الاحتلال اللاتيني لسواحل المتوسط عفي على هذا التراث بعد احراق الرومان لعاصمة قرطاجنة ودرس معالم حضارتها فكان الطغيان اللاتينى جناية فظيعة على الانسانية بوجه عام وعلى العروبة بوجه خاص

وقد صرح سان أوكوستان *Sainte - Augustin* بان اللغة البونيقية ظلت متغلغلة فى انحاء البادية المغربية الى عهد الوندال اى الى عهد الفتح العربى وذكر غيره ممن تصدى لبحث اثر الحضارة اللاتينية فى المغرب ان لغة الرومان اندرست كليا فى البلاد لان الحضارة اللاتينية لم تجد فى قلوب سكان المغرب الشارقة موطنا تاوى اليه وسنرى كيف ان الاستعمار الرومانى لم يستطع ان يخلق لا فى الشرق ولا فى الغرب اثناء العهد الامبراطورى سوى هيكل ادارى سطحى بينما استطاع فى الاقطار الاوربية التى استعمروها كبلاد الغول (فرنسا) وبلاد الاسبان ان يتغلغل فى اعماق المجتمع ويؤثر فى نفسية النخب والجماهير وتقضى لغته الرسمية ـ التى هى اللغة اللاتينية ـ على اللهجات المحلية طابعة اياها بميسم رومانى عميق وقد اعترف بهذه الحقيقة رجل طالما حاول التدليل على ما يسميه (بغربية) المغاربة وهو كوتيى صاحب « العصور الغامضة فى تاريخ المغرب » *Siècle obscurs du Moghreb* وكتاب عوائد المسلمين وأعرافهم *mœures et coutumes des musulmans* وقد لاحظ كوتيى «ماضى افريقيا الشمالية» ـ ص 148 ـ نقلا عن كزيل ان القرطاجنيين كانوا يلبسون بالمغرب اللباس الشرقى اى القميص الطويل بدون حزام والطربوش وتحته راس حليق ولحية مستطيلة وعيونهم مكتحلة وشعورهم مخضبة بالحناء وكانوا يختتنون كالفنيقيين ويستعملون السجود فى صلاتهم ويحرمون اكل

الخنزير • وقد أكد أيضا ـ صحيفة 157 ـ ان فى قسم كبير من المغرب كـان الناس يتكلمون لغة قريبة من العربية ويغطون رؤوسهم كما يفكرون ويشعرون على طريقة الشرقيين منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف من السنين • ومن المدن البونيقية ليكسوس الواقعة على مسافة اربعة كم شمالى العرائش وعلى الضفة اليمنى لنهر لوكوس وقد احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهى معروفة عند المؤرخين بالشمس أو تشمس التي يقـال بأن حدائـق هيسبيريدس ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها فى الجزر الخالدات ويرى علماء الآثار ان هذه المدينة تحتوى على كنوز فنية ثمينة وقد عثر على البناء الفينيقى فى الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقة البناء الرومانى على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر الاسلام للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه اما النماذج الاثرية القديمة فهى اوان من الفخار تطور صنعها فدهنت ايام الفنيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل متوعة كما عثر على بقايا دور بونيقية من الحجارة تحتوى على غرف مستطيلة كالغرف الحالية وارضها مبلطة بالفسيفساء المرمرى وهذه المدينة التى تنقسم الى عدة احياء كل حي بسوره الخاص تعتبر هى ومدينة شالة المدينتين الوحيدتيـن الواقعتيـن فى مركز بحرى هام وكانت مستودعاتها الغنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيوت •

وهذه الاقامة القرطاجنية العابرة بالمغرب قد تركت اثرا عميقا اذا اعتبرنا المظاهر المشتركة فى الحضارتين البونيقية والمغربية فالطابع القرطاجنى مازال يسم المعادن والجلد والخزف المذهب والاصباغ والنسـج والالات الفلاحيـة والبحرية ويرى المؤرخ كوتى ان الثياب البونيقية كانت شرقية بقميصها الطويل ذى الاكمام العريضة وطربوشها وكساء السفر الذى يشبه الكندورة (الفوقية الفاسية) بل وحتى البرنس الحالى والاعراف القرطاجنية نفسها كانت شرقية فمن ذلك تعدد الزوجات وانواع الحلى النسوى وشكلية الاجداث والشواهد واستعمال « الخيمة » او اليد ••• الخ وقد تساءل المؤرخ كزيل : هل استمرار معالم الحضارة البونيقية بالمغرب هو الذى ساعد على انتشار اللغة العربية القريبة من البونيقية بين البربر مؤكـدا أن قرطاجنـة قد هيـأتهـم من بعيـد التى تقبل القرآن ككتاب مقدس وكد ستور وقد خلفت قرطاجنة هذه حاضرة روما التى بسطت سيطرتها على افريقيا طوال سبعة قرون (من القرن الثانى قبل الميلاد الى القرن الخامس بعد ازدياد المسيح) •

الفصل الخامس

الممالك البربرية

قبل الحكم الروماني

لم نتعرف الى تاريخ تطور الممالك الوطنية فى المغارب الثلاثة الا من خلال ماكتبه القرطاجنيون او الرومان او المتبربرون وهو قدر يسير لايعطينا صورة عن الواقع الا من ثنايا تقلبات الاستعمار الاجنبي فى البلاد ٠

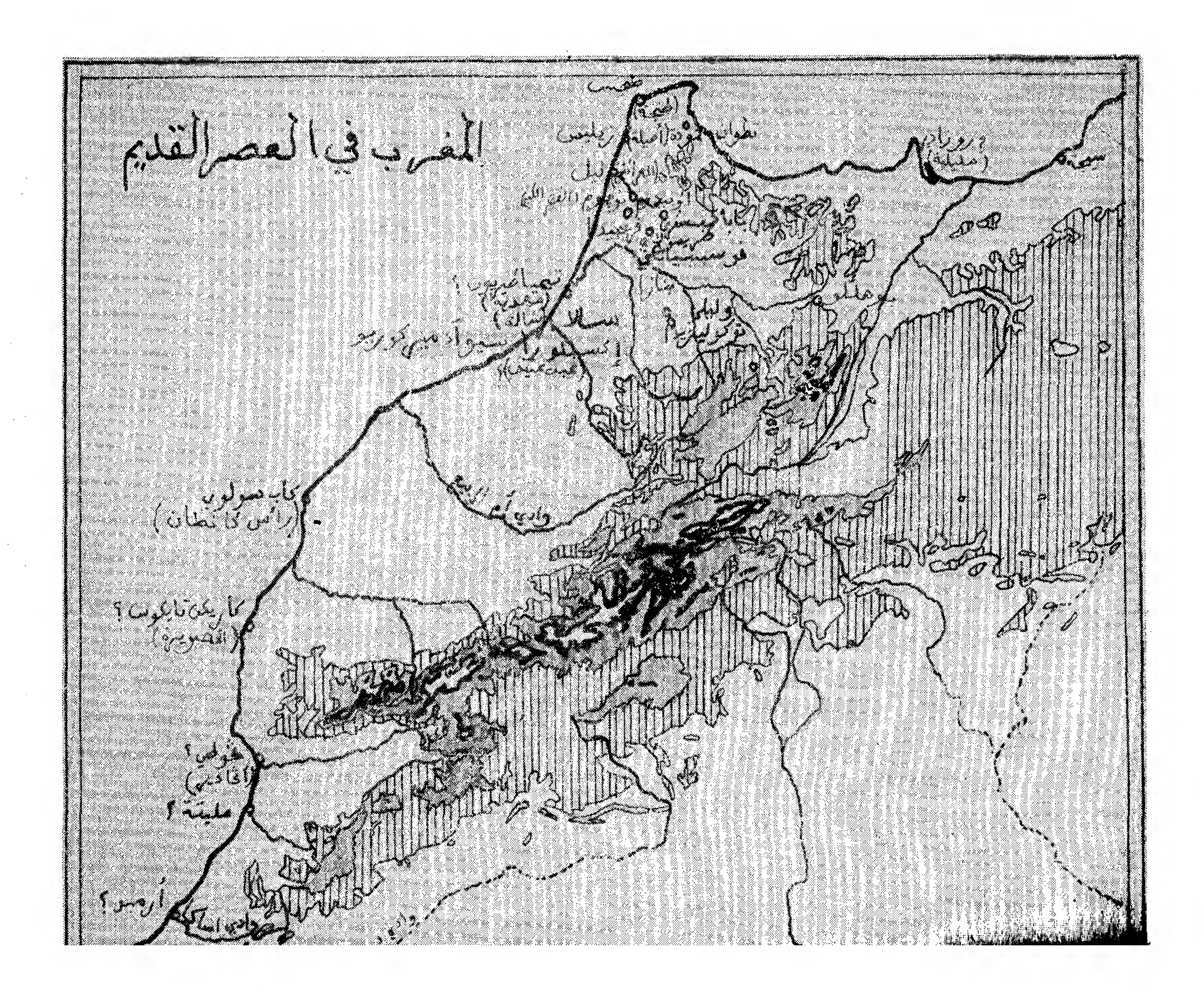
فمنذ العصر الذى سبق القرن الرابع قبل الميلاد تكونت فـى المغـرب مجموعة من القبائل فى اطار مملكة الموراو موريطانية تحدها جنوبا بلاد جزولة التى يقال بانها أصل لفظة *Gélules* المحاذية لتخوم جنوبى نوميديا الغربية ونوميديا الشرقية التى خضعتا لكـل من سيفاكس وما سيتيسة وهما مـزاب الحالية) والمقاطعة البونيقية كما يحدها شرقا نهر الملوية السفلى على ان شبكة المغرب الموريطانى اتسعت منذ اواخر القرن الثانى فشملت الوادى الكبير شمال غربى قسطنطينة وقد عثر على نقود يرجع تاريخها الى القرن الاول تشهد بان البربر كانوا يزرعون القموح ، انذاك ، وقد كانت المملكة النوميدية مملكة مغربية في الحقيقة لان نوميديا الغربية التى شكلت الخلية الاسلامية للاتحاد القبلى كان مصدرها المغرب فى حين ان القسم النوميدى الشرقى يرجع الى جبل الاوراس ؛

وكان الشق المجاور لموريطانية خصبا تتوافر فيه المحاصيل ويزعم سترابون (الجغرافي اليوناني الذى عاش من عام 58 قم الى سنة 25 ميلادية وله كتاب قيم في الجغرافية) انه كان اكثر خصبا من القسم الشرقى الجزائرى وان سنابل القمح التى كانت تعادل الخنصر فى الضخامة تجاوز ارتفاعها مترين في حين كان الانتاج يصل فى حصيلتين سنويتين الى 240 فى المائة ولا يخفى ماتنطوى عليه هذه التقديرات من الايغال .

وقد تحالف سيفاكس مع قرطاجنة فى الوقت الذى كانت مملكة خصمه ماسينيسة تشمل كامل بلاد الجزائر ولكن قوته انهارت دفعة واحدة (عام 203 قم) ويظهر ان نجله فيرمينا ساد بعد ذلك فى جزء من الغرب غير ان ماسينيسة ما لبث ان استولى على مجموع نوميديا بعد ان دخل ظافرا الى سيرته (قسطنطينة) (عام 203 قم) وقد عرف كيف يوحد اجزاء البلاد ويكفل استقلالها ويدعم حضارتها رغم معارضة الرومان الذين رفعوه الى دست الحكم كما استطاع ان يجعل منها مملكة لا مجموعة قبلية ترتكز على البدو الرحل بل دولة لها مقومات حضرية تعززت بفلاحة منظمة وقد اكد المؤرخ كزيل ان الامير ماسينيسة اول من عرف كيف يستغل المساحات الشاسعة فى زراعات منتجة فكان بذلك المؤسس الاول للحضارة الاقتصادية فى المغرب الاوسط وقد اعطى المثل الصالح من نفسه واولاده الاربعة والاربعين واكد ديودور الصقلى الاغريقى الذى عاش قبل ميلاد المسيح ان الامير البربرى تفنن فى الاشغال الفلاحية وترك لكل واحد من اولاده قطعة ارضية من نحو تسعمائة هكتار مجهزة بالادوات الفلاحية اللازمة وكان هؤلاء المزارعون يعيشون في حصون لا فى ضيع منتشرة وبذلك ساهم مسينيسة في تعداد الحواضر والمراكز الفلاحية القارة واستمد من المدن الفنيقية الساحلية دساتيرها ونظمها .

ولعل هذا التركز الحضرى قد عزز حملات الرحل على القبائل القارة لان البدو المتنقلين كانوا يجدون في هذه الدساكر والحواضر الجديدة طعمة سائغة وسيظل الحال كذلك فى مختلف عصور التاريخ مادامت القبائل موزعة بين ظواعن وقوار .

ويدخل هذا التمدين الذى حققه ماسينيسة فى نطاق الحضارة الهيلينية اى الافريقية الشرقية التى وضع اسسها الاسكندر المقدونى وعمل الزعيم الافريقى على بربرتها مع الاحتفاظ بالطابع الحضارى العام فمن ذلك رفع المستوى



المغرب في العصر القديم
سبتة
روزادير (مليلية)
تطوان
ليكسوس
سلا
وليلي
وادي أم الربيع
كاب صولويس (رأس كانطان)
كاريكن تايكوس؟ (الصويرة)
أرموس؟

افريقية عام 153 ، ق‌م٠ وكان ألد أعداء القرطاجنيين فكان الشعار الاكبر الـذى يردده فى خطبه الحماسية هو تحطيم حاضرة قرطاجنة التى ضخمت منافستهـا الشديدة وطأة الازمة التى تخبطت فيها الفلاحة الرومانية اوائـل القـرن الثانى قبل الميلاد ٠

وقد عمدت روما من اجل ايقاف تقدم المرسى الافريقية الى الاستعانـة بحليفها مسنيسة الذى وجد الفرصة سانحة ابتداء من 193ق‌م لاقتطاع الاراضى القرطاجنية شبرا شبرا وهكذا تمكن (عام 174 ق‌م) خلال محاربة الروم لليونان من الكشف عن محادثات سرية بين القرطاجنيين وملك مقدونية (بيرسى) فاحتل سبعين من المدن او القصور البونيقية واحتجت قرطاجنة مطالبة بضمان الحدود القارة وقد خشى مجلس الشيوخ الرومانى آنذاك من تحالف قرطاجنة مع ملك مقدونية فقرر عدم السماح بتجريد القرطاجنيين من ممتلكاتهم ولكنه ترك للامير الافريقى المجال مفتوحا لمواصلة تعسفاته ضد الخصم فاستولى عام 162 ق‌م على الحقول الخصبة فى المراكز التجارية او نواحى سيرت ثم (153 ق‌م) نزا على الاراضى الفلاحية الثرية بكامبى ماكنى (الدخلة الحالية) ٠

وكان لمسينيسة انصار فى عقر الديار القرطاجنيـة غـير ان الشعـب القرطاجنى تحمس ازاء الخطر الداهم لعواطفه الاستقلالية وروحـه الكفاحيـة فتحصنت المدينة (154ق‌م) وطالب كاطون بمحقها وعارض مجلس الشيوخ هذه الفكرة وانبرى فى نفس الوقت احد القادة القرطاجنيين وهو كارطالو لخلق صعوبات واقامة عراقيل فى وجه ماسينيسة بالحدود الموريطانية فقام بجولة عبر نوميدية يدعو الافارقة الى الثورة وانضم اليه قائدان بربريان وسلحـت قرطاجنة 50٠000 جندى ولكن الامير الافريقى الذى كان قد بلغ من العمر الثمانية والثمانين قاد المعركة بنفسه على صهوة جواده المطهم فحالفه النصر (150 ق‌م) وتعهدت قرطاجنة بدفع اتاوة طوال خمسين سنة فخاب فى نفسها كل أمل فـى الانتعاش الاقتصادى والسياسى ٠

وكان مسينيسة يطمح الى تملك حاضرة قرطاجنة ثمنا لتحالفه مع الروم ولكن مجلس الشيوخ الرومانى الذى خشى ان ينبثق مـن الفصيلـة الملكيـة النوميدية زعيم مثل حنبعل يجعل من قرطاجنة قاعدة لشن حرب جديدة ضد رومة ــ قرر تحطيم الحاضرة فوجه اربع كتائب (معززة ب 4٠000 فارس و 50 سفينة) لاحتلال مرسى اوتيك التى استسلمت بدون عناء فانصاعت قرطاجنـة

لخصمها وقدمت ثلاثمائة من الفتيان النبلاء رهائن لايقاف الحملة وارغم القناصلة الرومان اعداءهم على دفع عتادهم (200.000 سلاح و 2.000 منجنيق) واسطولهم الذى كان مصيره الاحراق والجلاء على المدينة لتأسيس اخرى على بعد خمسة عشر كم داخل البرفكان فى ذلك نوع من السخرية المرة بشعب بحرى لم يكن له مناص من الاستقرار بمرفأ ساحلي فلم تر قرطاجنة بدا من مواصلة النضال طوال ثلاث سنوات ولم تكن رومة تترقب هذا الصمود الصارخ حيث وجد الجيـــش الرومانى ابواب قرطاجنة موصدة والاسوار مثقلة بالقذائف والشعب القرطاجنى يموج فى خضم من الحماس البطولى تذكيه روح جديدة من التضحية والاستماتة فى سبيل الدفاع عن فكرة ، فكانت جميع الامكانيات والوسائل موارد حية لهذا النضال فاقتطع النساء من ضفائرهن لبرم حبال المجانيق وانبرى الرجال يصنعون فى اليوم الواحد 140 درقة و 300 حربة و 500 من القنا والرماح والفا من سهام المجانيق وكانت قومة الشعب لا ضد العدو الخارجي فحسب بل ضد مجلس الشيوخ القرطاجنى الذى ادى استهتاره الموصول الى هذه الكارثة .

ووقف الرومان حيارى امام هذا الدفاع المستميت فاستنجدوا بماسنيسة الذى نكص عن مساعدتهم ولكنهم حصلوا علىمعونة قواد بعضالحواضر الافريقية مثل هدروميت (سوسة) وطابسوس (قرب مهدية) وليبتيس مينور (لمطة) واشالة (بدرية) وهيبو (بنزرت) اما القليبية ونابول فقد ظلا فى صف قرطاجنة التى تعززت ايضا بثورة هسد روبال وهو الجنرال البونيقي الذى هزمـــه ماسينيسة (150 قم) والذى رابط فى الجبل الواقع على مسافة 30 كم جنوب شرقى قرطاجنة والمشرف على الطريق المؤدية الى سيرتة الصغرى بينما ظلت كتائب بونيقية اخرى تقض مضاجع الرومان الذيـن استنصروا مـن جديـد بماسينيسة بواسطة القائد سيبيون ايمليان فوجده قد مات (148 ق م) وقسم المملكة ثلاثا بين أولاده فأضعف بذلك الدولة النومیدية التى قضى ماسينيســة عقودا من السنين فى توطيد دعائمها وظاهرة التجزئة هاته كانت المعول الجوهرى الذى نخر المملكة المغربية خلال العصور بعد ان استكملت وحدتها كما وقع منذ ايام الادارسة الى عهد العلويين .

وقد عرف هسدروبال كيف يفرض قوته على القناصلة الرومان الذين برهنوا اذ ذاك عن تخاذل وعدم اهلية للاضطلاع باعباء المسؤولية المنوطة بهم فدخل عنوة عاصمة قرطاجنة وتحالفت الدبلوماسية البونيقيــة مـع الافارقـة مـن

موريطانيين ونوميديين واسندت رومة فى نفس الوقت القيادة الى سيبيون ايمليان وعمره لايتجاوز 38 سنة وقد رباه سيبيون الافريقى تربية اغريقية جعلته من دعاة وانصار الثقافة الهيلينية كما درس الفن العسكرى وعرف كيف يوجه بانظاره الرصيدة قرارات القناصل الروم ·

وبعد حصار استمر عشرين يوما بلياليها تمكن القائد الجديد من اقامة حواجز منيعة من خليج تونس الى ارباض قرطاجنة رغم المراصد المحصنة ذات اربع طبقات التى كانت تشرف على هذه المنطقة وتراقبها ومع ذلك ظلت قرطاجنة تتلقى مواردها من البحر بل فتحت مخرجا آخر تسربت منه قطع بحرية جديدة ما لبثت ان رجعت القهقرى (فى صيف 147 قم) بعد ان احتل الرومان هضبة بونيقية مسطحة سامقة رابطت فيها قذائفه التى صوبت افواهها نحو مدخل المرفئين حائلة بذلك دون تموين المدينة وبعد بضعة اشهر انهزم الجيش البرى اثر تطويق شديد ·

وقد تواردت النجدات من المغرب ـ موريطانية ـ لفك الحصار المضروب على قرطاجنة ولكنها فشلت لفوات الاوان وهناك اسند القائد سيبيون الى صديقيه المؤرخ بوليب (1) والفيلسوف بانيتيوس الاشراف على اسطول اخترق اساطين هرقل (مضيق جبل طارق) واتجه على طول الشواطىء المغربية ·

وبدأت المحادثات مع القرطاجنيين اجراهـا باسم الرومـان احد ابـناء ماسينيسة غير انها لم تسفر عن نتيجة وواصل الروم تضييق الخناق على المدينة وفى ربيع سنة 146 قاموا بهجمة كبرى انتزعوا غبها المرسى العسكرية ثـم المدينة السفلى دارا دارا واحرقوا الشوارع واخضعوا القلعة بعد عراك احتدم طوال ستة ايام وست ليال وفى اليوم السابع استسلم خمسة وخمسون الف نسمة منهم هسدروبال ولم ترض زوجه بهذه الاهانة المريرة فزجت بنفسها فى النيران مع ابنتيها وفى حلل قشيبة وبمرأى ومسمع من زوجها وبرهن مجلس الشيوخ الرومانى على وحشية لا مثيل لها فاستعبد الاسرى والقى بهم فى دهاليز السجون حيث ماتوا كمدا وجوعا وتحت سياط العذاب وفضلت حواضر اخرى مثل هيبو (بنزرت) الصمود الى الانهيار والهدم على الاستسلام الرخيص واشرف

---

(1) مؤرخ يونانى (210 ـ 125 ق· م·) له كتاب فى التاريخ فى 40 مجلدا لم يبق منه سوى خمسة ·

سيبيون بنفسه على تحطيم معالم قرطاجنة فى وحشية نادرة فقضى بذلك على أروع حضارة عرفتها القارة الافريقية جانيا على الانسانية جناية منكرة وعلى العروبة بصورة خاصة لانه قوض صرح مدنية عربية الاصل شرقية الروح بعاداتها ومقوماتها وكشوفها ٠

* * *

ويحق لنا ان نتساءل الان عما خلفه البونيقيون بالمغرب فى هذه الحقبة الطويلة ٠ ففى القرن السادس قبل الميلاد بدأت النصوص التاريخية تشير الى وجود مراكز بونيقية بالمغرب منها ثلاث مدن هى طنجى (لعلها طنجة الحالية) وترانكى وميليتا اللتين يزعم كاركوبينو انهما يقعان بين اشقار وليكسوس على ان رحلة هانون تنص على وجود مدينة تسمى ميليتا فى موقع ابعد جنوبا (ماسة) وهناك جغرافيون قدماء اثبتوا أسماء اخرى مثل سيكا فى مصب وادى تافنا وروسادير حول مليلية ومدينة تاموادا غربى تطوان (وسيبنى الرومان مدينة اخرى بهذا الاسم) او بمصب وادى مرتيل وتيمياطيريون المنصوص عليها فى رحلة هانون وباقى المستندات القديمة بمصب نهر سبو وكذلك مدينة سلا التى عرفت بنقود بونيقية يرجع تاريخها الى القرن الاول بعد الميلاد ولعلها كانت تقع بشالة الحالية فى نفس المكان الذى اسست فيه سلا الرومانية ٠

ثم جاء بعد ذلك هانون (مابين 475 ــ 450 ق‌م) وبنى بالجنوب المغربى مدنا اخرى وقع الخلاف فى مواقعها وعلاقاتها بالاسماء البربرية الحالية ولعل هذه المدن هى الصويرة وفونتى (اكادير) واجلو (ماسة) واسكا باقصى الجنوب ويظهر ان القرطاجنيين احتلوا جميع نقط الساحل المغربى المتفتح فى وجه السفن الى ما وراء الساقية الحمراء ولم يعثر على آثار تنم عن بعض مظاهر هذه المراكز الا فى ليكسوس رغم كون بعض هذه المراكز ظلت حواضر فى عهد الرومان وقد وقع الكشف فى تازة عن بقايا اثرية ترجع لآخر ايام القرطاجنيين كما لوحظت فى حفريات وليلى كتابات تدل على وجود لفظ سوفيت (وهو لقب الحاكمين الاثنين فى كل مدينة من المدن القرطاجنية) ٠

وقد شارك فى الحرب البونيقية الثانية الامير باكا الملك الموريطانى الذى كان يحكم شمالى المغرب بالاضافة الى ممتلكاته الاخرى والذى تحالف ضد قرطاجنة مع امير الزاب ماسينيسة الذى هدف من وراء تحالفه مع الروم الى استئصال القرطاجنيين اولا ثم الروم ثانيا ولكن المنية عاجلته فظل الامراء الافارقة حيارى متأرجحين يتحالفون تارة مع الروم وطورا مع القرطاجنيين ومعظمهم كان ميالا الى تعزيز ماسينيسة لان فى تعزيزه انبثاق الفكرة التحريرية بالقارة الافريقية ٠

الفصل السادس

الرومان في المغرب

بعد تخريب عاصمة قرطاجنة واستئصال السيادة البونيقية بافريقيا حيث ظلت نحوا من الف عام احتل الرومان الاقاليم القرطاجنية دون ان يبذلوا اى مجهود لتنمية هذا التراث وكانت الفلول البونيقية الفارة من زحف الفيالق الرومانية قد انضمت الى امراء البربر الذين تقبلوها بحفاوة وسهر الجميع على صون بقايا حضارة قرطاجنة الآفلة ومصنفاتها الحافلة بضروب الفن والاداب ومصانع سك النقود وقد استطاعت هذه الاقاليم البربرية بفضل المهاجريـن البونيقيين الاخصائيين تركيز ممالكهاحول حواضر كبرى وجمع شتات قبائل فصلتها نعرات جهوية غير ان العملاقالروماني مالبث أن مد نفـوذه الى هـذه الممالك خاطبا ودها فلم تر هى بدا من محالفته وقدسبق لبعض هؤلاء الامراء ان شاركوا فى الحرب البونيقية الثانية مثل باكا ملك موريطانيا الذى امتدت شبكة سيطرته على شمال المغرب وساند الزعيم ماسينيسة ضد قرطاجنة وفى الحرب التى خاضت رومة غمارها ضد جوكورتا (1) وجدت فى شخص بوكوس ملك موريطانيا الغربية (2) حليفا ساهم في القضاء على خصم الرومان وضم ممتلكاته الى دولته ويلوح انه رغم اتساع هذه المملكة البربرية فان رقعتها لـم تشمـل

---

(1) ملك نوميديا ولد حوالى 154 قم وهو ابن اخت مسيبسة *Micipsa* نجل مسينيسة •

(2) *Bockus* ملك الجيتول سلم صهره جوكورتا الى الرومان (105 قم) ، وقد حارب قبل ضدهم •

مجموع المغرب نظرا لقيام مملكة صغيرة حول طنجة كانت لها هى أيضا علائق مع رومة وعندما توفي بوكوس حوالى عام 80 قبل الميلاد قسمت مملكته بين ولديه : وهما بوكوس الثانى الذى ملك الجزائر وبوكود *B.gud* الذى خضعت لحكمه الاقاليم الواقعة بين نهر ملوية والمحيط الاطلنطيقى وقد اضطر الاميران عند قيام الحرب الاهلية فى الجمهورية الرومانية الى الانسياق تارة مع هذا الفريق واخرى مع الفريق الآخر تبعا للملابسات الوقتية ، فلذلك شاهدناهما فى صف قيصر ضد يوبا الاول(1) الذى تحالف مع الشيوخ الرومانيين الذين لجأوا الى افريقيا وقد اسس قيصر بعد ظفره افريقية الجديدة *Africa nova* عام 45 قبل الميلاد وافترق الاخوان بوكوس الثاني وبوكود بعد موت قيصر فايد الاول اوكطاف والثانى انطوان وقتل بوكود عام 31 قبل الميلاد فجازى الامبراطور الظافر اوكطاف حليفه بوكوس بضم مملكة اخيه وبذلك اندمج المغرب فى الجزائر والواقع ان الرومان كانوا يفرضون حمايتهم على هذه المملكة اذ ما كاد بوكوس الثانى يلفظ نفسه الاخير حتى اقام اوكطاف فى طنجة واصيلا وباناسة مستعمرات رومانية وجعل على راس المملكة البربرية موظفين رومانيين ولكن فى عام 25 قبل الميلاد حدد اوكطاف (الذى حمل قبل ذلك بعامين لقب اوكوست) نظام امبراطوريته وعين يوبا الثانى ملكا على المغرب والجزائر وكان يوبا الثانى هذا قد تزوج عام 29 قبل الميلاد ببنت كليوباطرة وانطوان التى تربت فى قصر اوجست وقد استمر ملكه ثمانى واربعين سنة (من عام 25 ق‌م الى عام 23) .

ويظهر ان الامير البربرى كان متأثرا بالثقافة الهيلينية وبالحضارة الرومانية مما حداه الى مساعدة الولاة الرومان ضد جيرانه النوميديين (فى سنتى 5و18 بعد الميلاد) ولكن الانسياق فى تيار الروم خيب آمال الافارقة الذين جزتهم رومة جزاء سنمار حيث قتل امبراطور الرومان كاليكولا خليفة يوبا الامير بطليموس وكان قد انحاش الى الرومان وزار رومة فاغتيل هنالك واحيلت مملكته الى مقاطعة رومانية ولكن المغرب الشمالى لم يرض بهذا الوضع فثاروا واضطر الرومان الى حشر قوات عسكرية لقمعه وتمرد احد موالى بطليموس متواطئا فى انتفاضته مع اهل نوميديا ولكن رومة استنفرت عشرين الفا من جنودها فى اسبانيا فقضت

---

1) *Jubatt* ملك موريطانيا توفى عام 18 م. وقد كتب باليونانية مصنفات فى التاريخ .

على الثورة وتوغل كايوس Caius مبعوث الامبراطور الى وادى كبير كما وصل خلفه المندوب جيطا Gèta الى تخوم الصحراء للضرب على يد سابال Sabal احد زعماء الثورة البربرية وقد عمد الامبراطور كلود عام 46 م بعد اخماد ثورة البربر الى تقسيم موريطانيا الى منطقتين : المنطقة الشرقية الممتدة من الوادى الكبير بالجزائر الى نهر الملوية وهى موريطانيا القيصرية وعاصمتها قيصرية (شرشل) والمنطقة الغربية وهى موريطانيا الطنجية ٠

موريطانيا الطنجيــة

كان نهر الملوية يشكل الحد الرسمي بين المنطقتين ولكن رقعة الاحتلال الروماني لم تكن تضم سوى قسم ضئيل من المغرب ولعل ذلك راجع الى ان الثورة لم تخمد الا خمود الرماد لان الاطلس الجبار كان يتربص الدوائر بكل دخيل وقد عثر على بقايا هذه الحدود الرومانية الجنوبية قرب مدينة الرباط فى روافد نهرى ابى رقراق وعكراش كما كشفت آثارها الشرقية بين فاس وتازا ويلوح نظرا لانعدام معالم الاحتلال الروماني شرقا الى لالة مغنية ان اتصال منطقتى الاحتلال بالمغرب والجزائر لم يتم عن طريق مراكز قارة نظرا لاستعصاء القبائل المغربية فحتى فى الريف وجبالة لم يعثر لحد الآن على اى مظهر للتاثير الرومانى وقد اضطرت رومة الى ربط الوصل بين طنجة وشرشل عن طريق البحر ومعلوم انالريف لم يتقبل قط اى دخيل اجنبى حتى تأسست اول دولة عربية فى نكور ايام الوليد الاموى واستمرت بضعة قرون وفى الجزائر لم يستطع الرومــان الاستيلاء على أقاليم شتى لاسيما المناطق الجبلية مثل « القبايل » وهكذا يمكن القول اذا اعتبرنا مقالات الجغرافيين القدماء وبعض الكشوف الاثرية بان المنطقة المغربية للاحتلال الرومانى لم تكد تتعدى مثلثا دقيقا يمربين سبتة وطنجـة والرباط وفاس اللهـــم الا بعض الاستطلاعات خارج هذه الاضلاع فى شعاب الاطلس الاوسط وجنوبى مدينة شالة (بين تمارة والصخيرات) و لاشـــك ان الرومان لم يحلموا باستكمال الاستيلاء على المغرب لما كابدوه فى انحائه مــن انتفاضات استقلالية ولكنهم هدفوا بتأسيس بعض المراكز الى الحيلولة دون اغارة البربر على المنطقة الرومانية باسبانيا اى الاندلس (وعاصمتها هيسباليس Hispalis اى اشبيلية) ولهذا شاهدنا ديوكليسيان Dioclètien (284 ـ 305 م) يحاول ضم المراكز المغربية الى المنطقة الاسبانية وكانت هذه المراكز

تتمتع باستقلال ذاتي تحت قيادة وال واحد ولكنها انضمت احدى عشرة مرة الى المنطقة القيصرية في ظرف ثلاثة قرون بسبب تقلص نفوذ الرومان بالمغرب ويظهر حسبما اكده كاركوبينو ان رومة اضطرت اواخر القرن الثالث الى الجلاء عن مدينة وليلي والقسم الجنوبي من المنطقة ويؤيد هذه النظرية انعدام بعض الآثار في وليلي (مثل الرسوم القيصرية والنقود) بعد عام 286 م ٠

ولعل طنجة كانت هي العاصمة ولكن من المرجح على مايلوح ان وليلي كانت هي الحاضرة الاولى نظرا لتوفرها على قصر ملكي وكتابات قيصرية ومعابد للسلام ترمز الى المحالفات مع بعض القبائل ٠

جيش الاحتلال

وقد تواردت كتائب مختلفة على المغرب في عمليات عارضة ولكنها لم تستقر في مركز معلوم بخلاف المراكز الافريقية الاخرى ولهذا كان الرومان يحصنون المدن الهامة خوفا من الغارات البربرية ومحاصرة وليلي قد احدق بها سور تعلوه ابراج وتنفذ الى داخله ابواب شاهقة بينما كانت اسوار كل من باناسة وتامو سيدة بسيطة ولم يعثر لحد الآن في المغرب على اية قلعة عسكرية اما الطرق الرومانية فقد امتدت طريق بين طنجة وليكسوس حيث تفرعت الى مسلكين غير مبلطين يتجه احدهما نحو بانسة وشالة بعيدا عن الشاطىء ومرجة سبو والثاني يمر بالقصر الكبير ويؤدي الى وليلي دون اية قنطرة ولا معبر وقد استغرب المؤرخون زهادة هذه الوسائل العسكرية ولكن لا عجب في ذلك اذا اعتبرنا ان المغرب كان مستعصيا نظرا للروح الاستقلالية لدى القبائل البربرية التي قبضت على زمام الطرق الواصلة بين المنطقتين الشرقية والغربية ٠

النظام البلدي

وقد انبنى النظام الروماني على الحياة البلدية فالمدن كانت هي المجتمع المركزي الا أن الرومان أقاموا بعض مدنهم على أنقاض المدن القرطجنية والغالب ان طنجة كانت اعظم مدينة في الجزء المغربي المحتل من طرف الرومان ومازالت المدينة تحتفظ ـ كشاهد على الاستيطان الروماني ـ بانقاض كنيسة

لم يبق منها سوى تصميمها اما الاثار الاخرى المحفوظة فانها لا تـعدو بعض الكتابات والنقود والمنتجات الفنية مع تمثال امرأة ٠

وقصر فرعون عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل ولكن غيـر منتظـمة المساحة (يتراوح طولها وعرضها من 700 متر الى ما بين 300 و 500 متر) تتدرج بناياتها فى سفح جبل زرهون حيث ضريح المولى ادريس الاول ونظرا لانعدام وثائق تكشف عن وضع هذه المدينة التاريخية فان مصلحة الآثار القديمة تعمل على تجديد معالم هذه المدينة التى هى أعظم حاضرة رومانية فى الاقليم الداخلى بفضل الحفريات التى كشفت عن قوس كاراكالا او قوس النصر وعن ازقة ودور ومعاصر للزيتون وقد وقع العثور على الساحة المركزية للمدينة بكنيستها وازيحت الانقاض عن بدائع فنية رائعة منها كلب من البرونز (وهى قطعة مقتبسة عن الاصل اليونانى المنحوت فى القرن الخامس قبل الميلاد ورأس مصنوع مـــن المرمر ونقوش بديعة تمثل صورا حيوانية وانسانية فى قالب فسيفساء وكانت الساحة الداخلية المحاطة بالاروقة هى القلب النابض للحياة العمومية فى المدينة ويقوم فى جانبها الغربى حى لا شك انه امتداد لدسكرة اهلية كما توجد شرقى قوس النصر شبكة واسعة من الدور الثرية بقاعات استقبالها الواسعة ومساحتها المحاطة بالغرف على النمط المغربى وقد عثر على بقايا قنوات تحـــمل المياه من زرهون الى سقايات المدينة وحماماتها او الاحواض المنبثقة داخل المنازل اما الزخرف داخل البيوت فان نقوشه تشكل احيانا دوائر رائعة او نحوتا مفرغة علاوة على الرسوم الزهرية فى الحجارة والتسطيرات الهندسية ذات الطابـع البربرى ورؤوس الاساطين البسيطة والمزخرفة بصور نورية عريضة الاوراق جميلة التقاسيم وتماثيل ودمى واثاث من البرونز تشكل مجموعة فنية ثرية نادرة المثال وتوجد انقاض مدينة باناسة الرومانية على الضفة الجنوبية لنهر سبو وهى تحتوى ايضا على ساحة مركزية ودور كبرى جميلة ومستحمات تتجلى روعة مبانيها الاصلية فى قطع من البرونز الفنية التى عثر عليها اما تموسيدة الواقعة كذلك على نهر سبو على بعد ستة عشركم ٠ من القنيطرة فان بقاياها المعمارية اقل روعة وجمالا من باناسة وقد تم الكشف فى شالة عن قسم من الساحة المركزية التى تنتهى غربا بقوس نصر وبقلعة رومانية وعمارتين جنوبا كما كشف فى الجنوب الشرقى للساحة عن آثار دور رومانية وعن مقبرة فى المكان الذى يقوم عليه مقر السفارة الفرنسية الآن ولم يعثر على حمامات ولاعلى اشياء فنية باستثناء كتابات جميلة تلقى بعض الضوء على الحياة الرومانية فى

هذه المدينة العتيقة الا ان الحفريات الاخيرة ازاحت التراب منذ سنوات عن ثلاثة من التماثيل •

وقد عثر على مدن ازلية اخرى مكان سبتة والقصر الكبير (اوبيدوم نوفوم وتمودة (على بعد ستة كم ونصف من تطوان) واصيلا وفريدى (على مسافة كيلومترين اثنين من عرباوة) وتريمولى (فى المكان الذى كانت تقوم البصرة فى القرن الرابع الهجرى) •

وقد لاحظ تيسو (1) ان مدينة القصر الكبير مبنية فى معظمها بأدوات ازلية العهد وتوجد على احدى قواعد منارة الجامع الكبير كتابة اكتشفت منذ عام 1871 وهى تشهد بوجود ضريح فى ذلك المكان •

وقد ظلت اهم هذه المدن قائمة الذات فى القرن الخامس الميلادى بعد انسحاب الرومان وكان بعضها يمثل فى القرن الرابع ابرز حواضر المغرب الاسلامى (2) •

المجتمع البدوى

وتشير الخرائط الاستطلاعية الاولى الى وجود آثار رومانية بالبادية المغربية ولكن يظهر ان النشاط الفلاحى لم يزدهر نوعا ما الا حول المدن اذ ان الدور الكبرى فى وليلى كانت فى ملك مزارعين اثرياء وقد توفرت هذه المنازل على معاصر للزيتون ينيف عددها على الاربعين فى جزء واحد من المدينة كما عثر فى باناسة على عشر معاصر وتتأكد سعة الغراسات بما اشار اليه المؤرخون من توافر الاشجار فى سهول المغرب قبل الفتح الاسلامى •

الحضارة الرومانية

ولم تكن المدن الرومانية تضم سوى بضع عشرات الآلاف من الواردين من مختلف مناطق الامبراطورية الذين لم يكونوا يمثلون الحضارة الرومانية الاصلية وتدل

---

1) الجغرافية المقارنة لموريطانيا الطنجية ص 162•

2) البيان المعرب ج1ص 133 و 330 •

الكتابات المكتشفة على وجود عناصر اجنبية عن افريقيا فى وليلى (امرأة من فيينا وسوريون عرب من فينيقيا) وحتى الجند كانوا فلولا تشتمل على غوليين وسوريين واسبان وبعض البربر ·

ومعظم الرسوم المكتوبة التى عثر عليها لاتينية لندرة الازدواج اللغوى اذ لم يعثر الا على كتابتين افريقية لاتينية وبونيقية لاتينية ومع ذلك فالظاهر ان اللسان اللاتينى لم يكن له كبير اثر اذ لم يشر المؤرخون الى كاتب لاتينى ولد فى المغرب او الى مدارس ممتازة بوليلى وطنجة ·

وقد ظل البرابرة محتفظين بوثنيتهم حتى دخلت الديانة المسيحية فى تاريخ لم يحدد ولا سيما الى طنجة ثم قصر فرعون وتسربت بعد ذلك الى بعض القبائل البربرية ·

انهيار الحكم الرومانى

ولايعلم بالضبط تاريخ انهيار الحكم الرومانى بالمغرب الا ان الامبراطورية التى اسسها ملك الوندال جنسريك Genseric (428 — 477) لم تصل الى حدود المغرب ولم تشر المعاهدة المبرمة عام 442 م بين جنسريك والامبراطور تيودور الى موريطانية الطنجية كما ان جوستينيان الذى جعل حدا للامبراطورية الوندالية لم يتجاوز مدينة شرشل باستثناء سبتة التى احتلها البزنطيون من البحر لمراقبة اسبانيا وبلاد الغول ولكن يلوح من بعض الكتابات ان حكاما فى وليلى حملوا اسماء لاتينية الى ماقبل الفتح الاسلامى ·

❀ ❀ ❀

الفصل السابع

المظاهر الكبرى فى الحضارات القديمة

لا يمكن ان ندرك الجوانب المختلفة التى طبعتها الحضارات فى مختلف الاعصار والامصار الا اذا قارنا بين المظاهر الكبرى التى تبلورت بها شتى المدنيات واذا تعرضنا الى المجالى البارزة فى تطورات التاريخ القديم فى كل من آسيا وافريقيا مهدى الحضارة فاننا سنلمس عناصر السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع وهناك تبرز المقومات الجوهرية فى كل عصر ومصر كما تتجلى التفاعلات نتيجة ما يقرره التاريخ من روابط وصلات بين الشعوب والامم

مصــــر :

مصر واحة كبرى تقع شرقى افريقيا الشمالية تربط القارتين : افريقيا واسيا وتمتد فى الف كيلومتر طولا وخمسة عشر عرضا على ضفتى النيل (1) الذى تطفح مياهه بين يونيه ودجنبر بعناصر مخصبة .

وتقوم فى مصر مآثر تاريخية كشفت الغازها الهيروغليفية عام 1822 م ولكن ماكتبه عن مقابرها الرحالة العربى عبد اللطيف البغدادى (المولود عام 557هـ) لم يختلف عما وصلت اليه الحفائر العلمية فى العصر الحاضر

---

1) ينابيع النيل كشفها الشريف الادريسى فى القرن السادس الهجرى قبل ان يصل اليها الغربيون فى القرن الماضى

وقد ازدهرت حضارة مصر قبل الميلاد بازيد من اربعة الاف عام وكانت مصر اذ ذاك مقاطعات مستقلة ما لبثت ان توحدت ضمن امارتين في الصعيد جنوبا ومصر السفلى شمالا بمصب النيل ثم استولى فراعنة الجنوب على المجموع فكان اولهم ميـنـيـس *Mênès* الذى عاش حوالى عام 3200 قبل الميلاد وهنا بدأ تاريخ مصر يتضح وكانت العاصمة منف *Memphis* لاتبعد عن مقر القاهرة الحالى ولم يبق منها الان حتى الاعلام الظاهرة وقد اتخذها قاعدة للملك من خفــر ان *Kiéops* وولده خفرع *Krephres* وحفيـده منكـرع الذين بنوا الاهرام حوالى 2800 و 2700 قم ثم اضطربت الاحوال وتفككت المملكة واستولى على الحكم امراء طيبة *Thébes* حوالى 2200 قم فاصبحت هذه حاضرة المملكة وتوالت الازمات بعد خمسمائة عام فانحدرت من اسيا عصابات الهكسوس (العمالقة) التى طردت من مصر ءاخر الامر حيث بلغ نظام الفراعنة أوج قواه فى القرنين الخامس عشر والثالث عشر قم بقيام فرعون تحوطميس الثالث *Thoutmès* ورمسيس الثانى *Ramsès* اللذين بسطا نفوذهما على سوريا ويرجع الى عهدهما ما بقى من انقاض الكرنك والاقصر فى عاصمة طيبة ثم ضعف الفراعنة رغم ثراء مصر وقوة مصانعها وروعة فنونها فاكتسحها الاشوريون حوالى القرن السابع قم ولكن الامير المصرى سايس *Saïs* انبرى فطرد الدخلاء وانتصب عاهلا وخلفه نيشا و *Nichao* الذى لم يكن يقل قوة عن رمسيس فاستعادت مصر زهرة الحياة طوال قرن كامل ما لبثت ان سقطت اثره تحت سيطرة الفرس (525 قم) ثم الاغريقيين فالرومان وامحت بذلك معالم الحضارة فى القرون المسيحية الاولى .

والمصريون حاميون كالافارقة الشماليـيـن عاشوا فى بلـد خصب فـى دوريات وطيئة من اللبن وسط هياكل شاهقة اقيمت للموتى فى حين ظل الاحياء فى بساطة عيش وأمية شاملة وكان لكل مدينة آلهتها وقد أصبح توت عنخ أمون اله طيبة الها لمصر جمعاء ، نظرا لمكانـة هذه الحاضرة وألـه به المصريون قـوى الطبيعة ومظاهر الكون فكان او زيريس *Osiris* اله النيل والنبات والموتى وزوجتـه ايـزيـس *Isis* الـهـة الشمـس والقمـر وراع *Râ* اله الشمس والنور وبارىء الكون فى نظر الوثنية المصرية التى عبدت الفراعنة بصفتهـم ابناء الصنم الذى تمثـل مع باقى الالهة فى جسم انسانى برأس حيوان وقد عرف الرهبان كيف يسخرون الشعب بما احتكروه من ثقافة ومال

واحاطوا به نفوسهم من غموض داخل معابدهم الضخمة التى بلغت اعمدتها فى الكرنك عشرة امتار فى الدائرة واربعة وعشرين مترا فى العلو عدا النقوش والرسوم والكتابات الهيروغليفية ولكن أهرام الجيزة حيث مقابر الفراعنة كانت اضخم من هذه المعابد قد حنطت موميااها التى كان كل منها يحاط باثاث وزاد وتماثيل تصور الميت مع رسوم حائطية تسجل حياته اليومية ومجموعة هـــذه الاشكال تعطينا صورة عن حياة المصريين منذ اربعة ءالاف من السنين فى حقولهم بمحاريث الخشب ومناجل الحديد ومظاهر ارهاق المزارع الذى ناء تحت عبء الضرائب ووسائل التسخير علاوة على الصناع الذين ما زالت ماثرهم الرائعة ماثلة فى المتاحف والكتبة الذين اجتازوا طور الاميـة وتلقوا مبادىء القـراءة فاصبحوا رهبانا او وزراء ٠

ويقوم ابو الهول حارسا لهرم خفرن بوجهه الفرعونى وجثمانه الاسدى (57 م طولا و 20م علوا) وقد بلغ هرم خفرن 146م (137م اليوم) وحجمه مليونين ونصفا من الامتار المكعبة وهو أضخم بناء على وجه الارض كلف ثلاثين سنة من العمل ويليه هرم ابنه خفـرع (136 م) ثـم هـرم حفيده منكـاورع (66 م) ومن مظاهر الحضارة المصرية :

1 ـ استعانة الفراعنة فى ادارة الدولة بالوزير وهو الرئيس الفعلى للحكومة الذى يساعده مديرون للخزانة العامة والزراعة الخ

2 ـ اعتقاد المصريين بالبعث والخلود والحساب ولذلك اعتنوا بموتاهم وقد دعا امنحتب الرابع (اخنا تون) عند تكوين الدولة المصرية السورية الى توحيد الله فى شخص اتون

3 ـ امتياز الفن المصرى الابداعى بعمارات كهرم زوسر (60 مترا) وهرم خوفو وابنه خفرع وحفيده منكاورع وهى اهرام الجيزة الثلاثة التى تعتبر أعظم مقابر فى الدنيا ـ وتماثيل ومسلات ونقـوش توابيـت وحـلى وأثـاث وأدوات مرمرية ٠

4 ـ اختراع الكتابة عن طريق اشارات تمثل ما فى الطبيعة مـن نبـات وحيوان وجماد وانسان وهى الهير وغليفة (500 اشـارة) تكتب من اليمين الى اليسار او العكس أو من أعلى الى أسفل وقد بسطت الى الخط الكهنوتى ثم كتبت الدارجة المصرية بالخط الديموطيقى الشعبى ٠

5 ـ تقدم علوم الفلك والحساب فعد (المصريون حتى المليون وعرفوا عمليات الطرح والضرب والجمع والقسمة والكسور وقياس المساحات والهندسة (افادات العمارة) والطب والكيمياء (الاصباغ والعقاقير وفن التحنيط)والزراعة (كشف الفاس والمحراث والمنجل والمدراة والشادوف وتنظيم الرى وحفر القنوات واقامة الجسور وانشاء المقاييس وبناء السدود كسد امنمحات الثالث لضبط ماء النيل ـ تربية السوائم كالبقر والضأن والماعز والخنازير والحمير والجمل والجاموس والخيل (بعد ايام الهكسوس) أو الدواجن كالاوز والبط والحمام والنحل ولم تكن مصر قد عرفت الدجاج)والصناعة (الاوانى الحجرية والفخارية والزجاجية والحلى والاباريق والمدى والصحاف والقوارير من النحاس والبرونز والقوارب والاثاث والنسيج والجلد كالمقاعد والوسائد والسيور والنعال والتجارة الداخلية (معرفة عقود البيع والشراء والسجلات والايصالات ـ تنظيم الاسواق الداخلية ـ المبادلات عن طريق النيل ـ المقايضة اساس التعامل والخارجية (مع النوبة والسودان بواسطة اسطول تجارى يتجه حتى الى الصومال واليمن وفينيقية وسورية وجزر البحر المتوسط) ولذلك شق سنوسرت الثالث قناة تصل النيل بخليج السويس وهى أقدم طريق مائى يصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر

بلاد دجلة والفرات :

تمتد بين ارمينية وايران والجزيرة العربية سهول تغمرها مياه دجلة والفرات وكان الاقدمون يسمون القسم الاعلى لما بين النهرين ميزوبوطاميا *Mésopotamie* ويسمون القسم الادنى ببلاد الكلدان *Chaldée* وما لبثت هذه الناحية أن صارت ممرا للقوافل ومركزا للاسواق بسبب خصب الاراضى المسقية ومنبثقا لعدة حواضر تشهد الحفريات (2) بوجودها وهكذا ازدهرت طوال ثلاثة الاف من السنين حضارة يانعة فى صحراء قاحلة

الكلدان : وقد اينعت المدنية اول الامر فى بلاد الكلدان حيث تناقست نحو اثنتى عشرة مدينة منذ ستة الاف عام وقد تناحرت وخضع بعضها لبعض وحوالى 3000 عام ق م انحدر غزاة ساميون من تخوم سوريا والجزيرة العربية على ما يظهر فغمروا هذه الاقاليم وأسسوا مملكة كلدانية عاصمتها بابل كان حمورابى الذى عاش حوالى 1800 ق م أعظم أمرائها وواضع المجموعة القانونية فى الاحوال الشخصية (العائلة والارث) والشغل والاقتصاد والخدمة

العسكرية وبعد ذلك بقرون ضعف الكلدانيون من جراء هجـوم آرى فانقض الاشوريون من الشمال على هذه الغنيمة المهزولة

وقد اشتهر الكلدان بادبائهم وعلمائهم وسحرتهم ومنجميهم وكتاباتهم القريبة من السرياني وهم الذين كشفوا الطريقة العشرية فى الحساب وقسموا الزمان الى سنوات وشهور وأيام وساعات ودقائق وطوروا التجارة في القارة الاسيوية فكانت قوافل العربات تربط الاسطول الكلداني فى الخليج الفارسى باساطيل شعوب المتوسط وتتجه من الصحارى الى مدن دجلة والفـرات حيث ارتفع مستوى حياة الطبقة المترفة اشور : *Assyrie* وكـان يعيش فى شمال ميزوبوطاميا الجبلي شعب صلب سخره أمراء بابل لخدمتهم طويلا ثم ما لبث الامراء الاشوريون أن تعززوا حوالى 1250 قم فاخضعوا الشرق الادنى لحكمهم طوال ستة قرون بغلظتهم المتناهية وجيشهم المنظم الذى كان افراده يعبـرون الانهار على أشنان منتفخة وقد بلغت المملكة الاشورية أوجها فى القرن السابـع قبل الميلاد فى عهد أشور بانيبال (669 ــ 626 قم)الذى اكتسـح مصر وبلاد الكلدان حيث نشر الرعب والدمار وكدس الاسلاب فى عاصمة نينوى ***Minive*** باسطا نفوذه من هضاب ايران الى الحبشة ولكن هؤلاء الطغاة واجهوا ثورات عارمة انتهت بعد وفاة الامير المذكور بانهزام الاشوريين (عام 612 ق م) تحت ضربات كتلة تكونت من أهل بابل وماذى (شعب ايران) فأصبحت بابل من جديد أعظم عاصمـة تبز حواضر العالم ببذخها وروعة مآثرهاوقد جلس آنذاك على اريكتهـا الملك نبوخذ نصر ومـا لبث ملك الفرس كورش *Cyrus* ان غزا هذه البلاد أواخر القرن السادس قم فانهارت المملكـة (539 ق م) وقد ترك امراء بابل مدنا ملكية رائعة بقصورها الفخمـة ونقوشهـا البديعـة وتماثيل ثيرانها المجنحة وعثر على ذلك كله كما كشف عن مكتبة اشوربانيبال المحتوية على ءالاف من الواح الاجر

العبرانيـــون :

حكى التـوراة تيـه بنى اسرائيل قرونـا عـديـدة فـى الغيـافى بين الفرات والنيل وقـد استقروا أخيرا بأرض كنعـان فى فلسطين أوائل الالف الثانية قبل الميلاد على مايلوح ثم هاجروا أيام دخول الهيكسوس الى مصر قبل الهجرة الى هذه البلاد حيث عاشوا ءامنين دهرا طويلا ولـما استرجع المصريون

استقلالهم خرجوا الى صحراء سيناء حوالى 1400أو1200 قبل الميلاد فجمعهم نبي الله موسى وقادهم الى تخوم كنعان وهى الارض الموعودة الخصبة التي سكنها اجدادهم فنزلت الالواح التي تدعو الى وحدانية الله وبعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام دخل بنو اسرائيل الى كنعان واتخذوا الفلاحة معاشا وحاربوا جيرانهم سكان فلسطين *Philistins* وحوالى الالف عام قبل الميلاد هزم نبي الله داود جالوت الفلسطيني فاكتسح فلسطين وجعل من القدس عاصمة وخلفه ولده سليمان الذى تحالف مع الفينيقيين ونظم قوافل التجارة في جزيزة العرب والشام ومصر فاستغنى العبرانيون ولما توفي سليمان حوالى 930 ق م انقسم العبرانيون على انفسهم فكونت قبائل الشمال مملكة اسرائيل واهل الجنوب مملكة يهودا واحتدم الصراع بين الجانبين بالاضافة الى الحروب الدينية فانتهز المصريون والاشوريون والبابليون الفرصة لاكتساح فلسطين وتخريبها حيث احتل نبوخذ نصر بيت المقدس أوائل القرن السادس قبل الميلاد ونقل أهلها أسارى الى بابل الى أن حررهم ملك الفرس كورش فعادوا الى فلسطين وجددوا بناء القدس وازدهر الدين على يد رسل بني اسرائيل عند ما انهارت المملكة العبرانية وتقطع اليهود في الارض قددا .

سوريا : تمتد من خليج الاسكندرونة الى خليج العقبة وتكون مع الرافدين بالعراق هلالا خصيبا يطوق بادية الشام والعراق وجعل منها هذا الموقع بين مصر والعراق مهبط ساميين وعرب خرجوا من شبه الجزيرة القاحلة وهم العموريون (3000 ق م) والكنعانيون (الفينيقيون 2000 ق م) والاراميون (1500ق‌م) والعموريون‌هم‌أهل الغرب ازدهرت‌عاصمتهم‌ماري (تل حريزى الان) في الوقت الذى اينعت حضارة بابل ومنف الى أن خربها حمورابي وهدم قصرها الملكي الرائع اما الاراميون فقد تعايشوا مع الكنعايين ونهضوا بالفن السورى في دمشق خاصة مقتبسين من بلاد الرافدين والنيل ولكنهم اصطدموا بالعبرانيين طوال قرنين فهزموهم وتقاضوا الجزية من اليهود وطردوا الاشوريين بزعامة أميرهم بن حدد (853ق‌م) غير ان تحالف العبرانيين والاشوريين ادى الى سقوط دمشق في قبضتهم (732ق‌م) ومنذ عهد الاراميين كونت سوريا ومصر دولة واحدة بقيادة تحتمس الثالث وظهرت آثار ذلك في تشابه الفنون وتبادل الآلهة وقد غزا الاشوريون سورية ومصر ثم سيطر الفرس الى أن أحل الاسكندر نفوذ الإغريق (322ق‌م) ثم أسس سيلوفيوس قائد الاسكندرية دولة السلالقية الى عام 64ق‌م حيث سيطر الرومان الى الفتح الاسلامي

الهجائية بتبسيط وسائل الكتابة القديمة واختـاروا اثنتين وعشرين علامـة لا لتمثيل الالفاظ بل لا براز الحروف التى تمتاز كل منها برنة خاصة وحذا حذوهم بعد ذلك الاغريقيون والرومان فهى اذن اصل الحروف اللاتينية وأهـم المراسى الفينيقية ثلاث وهى جبيل *Gebal* التى كانت تتاجر مع مصر منذ الالف الثالث قم فتدفع لها الارز بدل ورق البردى فاصبحت مركزا هاما لتجارة الورق سماه الاغريقيون *Byblos* ثم صيدون (صيدا الحالية) *Sidan* حليفة فراعنة طيبة التى اسس اهلها مراكز فى جزرايجى تاجروا منها مع اليونان المتبربرين وقدهاجمها الفلسطينيون حوالى 1100 قم ففقدت من ازدهارها وفـى غضون 1000 و 700 ق م أصبحت تيـر (أى صور الحـاليـة) مخـزن الشرق فامتدت الجاليات الفينيقية الى المحيط الاطلسى ولكن وفرة ثرائها شجعت الغزاة مثل الاشوريين وملكهم نبو خدنصر على احتلالها فانتقل الفينيقيون الى افريقيـا وأسسوا قرطاج عام 814 ق م

وقد عبد الفينيقيون بعل وزوجته عشتاروبنوا المعابد واعتقدوا الحياة بعد الموت وبرعوا فى فن العمارة براعة ليس لها نظير وكانت قلاعهم وحصونهم وأسوارهم اعظم ماعرفه العالم القديم وقد عثر فى او غاريت على قصر صفحت اعمدته بالفضة كما تدل التوابيت على روعة النقوش ولم تدخل حضارة الشرق الى مراسى غرب المتوسط الا بواسطتهم فكانوا بذلك اساتذة اوربا المتبربرة وهناك حواضر اخرى مثل بعلبك التى سماها الاغريقيون *Heliopolis* او مدينة الشمس واوغاريت (رأس الشمر الحالية) التى كانت ميناء دوليا

اليونان : اليونانيون أو الاغريق أو الهيلينيون آريون وردوا من جنوب روسيا فى موجة اولى من الاشيين *Achèens* (بعد 1500 ق م ثم الدوريين *Doriens* (بعد 1200 قم) وتشيد اليادة هو مير والاودیسا *Yliade et Odyssèe* بحروب الاشيين الذين حاصروا مدينـة طروا *Troie* فـى اسيا الصغرى عشر سنوات (1200قم) بقيادة *Agamemnon* وحيلة القائد اوليس *Ulysse*

ويصف هومير اليونان حوالى القرن الثامن ق م كمجموعة من الدويلات أو الحواضر لكل ملكها ومجلسها المكون من النبلاء البسطاء الذين اهتموا بالزراعة بينما اشتغلت الجماهير بالصناعة ولكن الملوك والقادة كانوا يفضلون قرصنة البحار على التجارة البريئة

اما آلهة اليونان التى تتناحر فيما بينها (حسب الالياذة) فمنها زوس *Zeus*

ملكها وهو *Jupiter* عند الرومان وزوجته هيرا *Héra* او *Junan* واله الشمس ابولون *Apollon* وبسيدون *Posaïdon* اله البحر وهيرميس اله التجارة وافروديت *(Venus) Aphrodite* الهة الجمال واثينة *Athèna* الهة العقل ويحتل الابطال مثل هرقل *Héracles* المشهور بقوة جثمانه درجة بين الناس والالهـة

وقد اسس اليونان (من القرن الثانى عشر الى السادس ق م) مستعمرات حول البحر المتوسط منها اسيا الصغرى التى كونت يونان اسيا *Grèce d'Assie* بحواضرها الرائعة مثل *Mi'et* التى ينتسب اليها العالم طاليس *Tralse* ومنها بيزانس (الاستانة) فى البحر الاسود اضف الى ذلك اليونان الكبرى *Grande Grèce* ومنها سيراكوز *Syracuse* ونابل *Naples* ومرسليا *Marsseille* المؤسسة عام 600 ق م ونيس وقد جمعت الهيلينيين لغة واحدة ومعابد مشتركة *Aracles* والالعاب الاولمبية المنظمة فى مدينة *Olympi.* التى كانت ايامها من الاشهر الحرم عندهم ولعبت مدينتان يونانيتان دورا هاما هما اسبارتة واثينة

اسبارطة : *Sparte* اسسها الغزاة الدوريون *Dorieus* ولم يتجاوز اهلها بضعة الاف الا ان قوانين ليكورك *Lycurque* جعلت من باقى السكان زراعا *Hilattes* يؤدون قسطا من محاصيلها للسبارتيين أو أحرارا محميين *Pèriègues* وكان السبارتيون جندا دائمين قد حظر عليهم الاشتغال للتعيش يرضخون لحكم النخبة التى يتداول على رأسها ملكان خلال الحرب ويسيرهما مجلس القدماء فى أيام السلم وكانت كتيبة الفالانج *Phalange* السبارتية مضرب المثل فى نظامها قد انصاعت لحرابهـا حواضر

أثينـة : *Athenes Pelonèse* حاضرة تجارية تشرف عليها قلعتها *Acropole* تولى رياستها ملك ثم خلفه كل من مجلس النبلاء *Aéropage* والقضاة التسعة *Archantes* وادى جور النبلاء الى ثورة الشعب وتحكيم صولون *Solon* عام 594 ق م فتشكل مجلس من الاغنياء وبعض الشعبيين عوض النبلاء وتمخض شبح الثورة عن ظهور الطاغية *Pisistrate* (560 ق م) الذى جمل اثنية وطور التجارة غير أن النبيل *Clietkène* حقق المساواة بين المواطنين ونصب حكومة شعبية ديموقراطية (507) وصار مجلس الشعب هو الذى ينتخب القضاة العشرة واصبح لاثينا جيش قوى واسطول كبير وازدهرت بها العلوم والاداب والفلسفة والفنون بفضل الحياة الديموقراطية

وصادف ازدهار اليونان إمتداد الامبراطورية الفارسية الى اسيا الصغرى وثار سكان ليدياغربي الاناضول على الحكم الفارسي وساعدهم اليونان مما اثار الحروب الميدية (749ــ492) التى انتهت بانهزام الفرس فى موقعة ماراتون قرب أثينة والقضاء على الاسطول الفارسي بتحالف اسبارطه وأثينة وقامت امبراطورية اثينية بزعامة بركليس (495 ــ 429 قم) ونافستها اسبارطة فتمخض الصراع الطويل عن اندحار الاثينيين امام اسبارطة ثم طيبة الى ان احتل فيليب المقدونى بلاد اليونان

وقد تعزز الاسطول الملاحى اليونانى منذ مطلع القرن الخامس ق م فخلف المراكب الفينيقية فى النفوذ التجارى ويعتبر عصر بركليس القائد الفيلسوف ازهى العصور (443ــ428 ق م) شارك فى تركيزه مجلس الشعب وبرز العباقرة فازدهرت الاداب والمسرحيات والتاريخ المدون (هيرودوت الذى رحل الى مصر وفارس والشام وايطالية) والفلسفة(سقراط وافلاطون وارسطو استاذ الاسكندر) وعلوم الفلك (طاليس) والطب (ابوقراط) الرياضيات (فيتاغورس) والطبيعة (ارخميدس) والفن المعمارى (المعابد والهياكل ــ الأكروبول ــ بأعمدتها المنقوشة ونحوتها)

الرومان : وقد انتقلت الحضارة من شرق المتوسط الى غربه خلال الألف الاول قبل الميلاد وبدأت روما تظهر عند ابتداء انهيـار الحضـارة الشرقيـة وقد قدمت الى ايطاليا الشعوب الارية بعد اختراق جبال الألب وأشهرها اللاتين الذين استقروا وسط الجزيرة الايطالية (اللاسيوم *Latium* قرب روما التى نشأت فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد وكانوا قد اقتبسوا من حضارة الفينيقين واليونان

وخلف النظام الجمهورى الحكم الملكى اواخر القرن السادس ق م واسند الحكم الى قنصليتين منتخبتين مدة سنة واحدة من بين الخواص، وثار العوام فنالوا حقوقهم المدنية والسياسية ومنها الوصول الى مركز القنصلية وأصبحت روما باتحاد العنصرين أقـوى فاستولت على قرطاج وبسطت نفـوذها على المملكـة المقدونية باليونان وفتحت اسيا الصغرى وقضى القائد الرومانى بومبيوس على الدولة السلوقية بسوريا كما فتح قيصر مصر واصبحت روما سيدة البحـر المتوسط وهنا ظهر نزاع داخلى بين قيصر وبمبيوس فسيطر الاول بعد مـوت الثانى وفتح بلاد الغال وجنوب بريطانيا فطمع فى الملك وقتل بعد أن تـرك

اصلاحات منها التقويم اليلياني وتشغيل العاطلين في فتح الطرق وتجفيف المستنقعات وبمصر بدأ صراع جديد بين انطونيوس وريث قيصر وأكتافيوس فانتهى بسقوط الجمهورية عام 30 ق‌م وقيام النظام الامبراطوري امتد حوالى خمسة قرون فكان أكتاف أول امبراطور باسم اغسطس فاستبد بالحكم ولكن في عهده انتظمت احوال الدولة وازدهرت الاداب والفنون وظهرت المسيحية واعتلى العرش رجالات من العرب مثل كاركالا وفيليب العربي وبلغت الامبراطورية اوجها في القرن الثاني للميلاد فعم السلام والرخاء وفي عهد قسطنطين ضعفت الدولة فحاول تعزيز كيانها باعتناق المسيحية وتأسيس القسطنطينية وجعل الحكم مركزيا وقد تسرب البرابرة الى البلاد بعد ان اندرجوا في الجيش وادى اتساع الامبراطورية الى تقسيمها من طرف تيودو سيوس الى الدولتين الشرقية (مركزها القسطنطينية) والغربية (روما) ودامت الاولى الى عام 476 م والاخرى الى 1453 م بعد استيلاء محمد الفاتح العثماني عليها

وكان مجلس الشيوخ ينتخب الامبراطور ويوافق على تعيين الحكام والقناصل ومال الرومان الى الامور العلمية فازدهرت الخطابة في العهد الجمهوري فظهر شيشرون كما ازدهر الشعر في العهد الامبراطوري فظهر هوراس وفيرجيل وفلاسفة امثال سينيك واشتهرت مدينة بيروت بمعهد الحقوق وانطاكية بالمدارس الفكرية والاسكندرية بمكتبتها وقد تاثر الرومان بالفن اليوناني فاضافوا الى فخامة البناء روعة الزخارف والفسيفساء في الهياكل (بعلبك) والمسارح (بصرى) والملاعب والحمامات (روما)

وقد أصبحت سورية رومانية عام 64 ق م وقضى على دولة البطالمة بمصر عام 31 ق‌م فانهارت دول العالم الهيلينستي غير أن الصعيد (جنوب مصر) احتفظ بطابعه الاصلي بينما تأثرت الدلتا وسوريا بالحضارة الرومانية وخاصة الاسكندرية ومدينة بابليون (قرب القاهرة) فانشئت المدن وانتشر الري في الاراضي الزراعية والاقنية والسدود واستغلت روما قمح المغرب وحبوب سوريا ونخيل مصر وفتحت الطرق واقامت الجسور ونقل الاسطول الروماني البضائع الشرقية من الصين الى خليج البصرة ومنه الى سوريا بواسطة القوافل

وكان السلوقيون قد بنوا في سوريا خمسا وسبعين مدينة مثل اسكندونة وانطاكية التي رصف الرومان طرقها بالرخام واللاذقية واضاف الرومان مدنا عربية مثل بصرى وجرش وعمان

وكانت الاسكندرية هي عاصمة مصر في العهد الهيلنستي ازدهرت حركتها الادبية والعلمية حوالى عشرة قرون قبل الميلاد وبعده بدأت شهرتها منذ عهد اول البطالمة (306 ق‌م) وكان في الاسكندرية مكتبة فرض على كل عالم يمر او يقيم بها تقديم نسخة من كتبه كما غدا متحفها بمثابة جامعة كانت المرجع لجميع العلوم كالتشريح والكيمياء والرياضيات والفيزياء (اقليدس وارخميدش) وظلت الاسكندرية مركزا للتدريس حتى عهد عمر بن عبد العزيز وقد ضمت انذاك 700٫000 مجلد و4000 حمام و400 قصر و 400 مسرح للتمثيل

وانتقلت شهرة الاسكندرية الىانطاكية عاصمة سوريا الهلنستية التى بناها سلوقوس الاول(300 ق‌م)وهى المركز الثانىللحضارة الهلنستية بعدالاسكندرية وبهذا يتضح ان هذه الحضارة الهلنستية التى ابتدأت قبل الميلاد بثلاثة قرون كانت مزيجا من حضارة مصر وسوريا مع حضارة الاغريق

العـــــرب

١ ـ **الانباط** ـ سكن الانباط بلاد الرافدينبعد ان استوطنوا جنوبى الشام وهم عرب اطلق اليونان على بلادهم اسم العربية الحجرية وسيطروا على ساحل البحر الاحمر وخليج العقبة باستيلائهم على شمال الحجاز وضمت دولهم دمشق وجنوبى فلسطين ومدين وشرقى دلتا النيل كما تدل على ذلك الكتابات التى عثر عليها وحاول اليونان بسط نفوذهــم مرتين على هذه المنطقــة وانتصر الانباط على اليهود بعد حروب طويلة وفضل هــؤلاء الانصياع الى السلوقيين اليــونان الذين كانوا شمالى الشام ٠ ولكن الانباط قضوا على السلوقيين ودخل ملكهــم الحارث الثالث الى دمشق عــام 86 ق‌م وغــزا مملكــة اليهود فانهارت دولتهــم باندحارجيشهمو ما لبثالرومانان استولوا على سوريا الشماليةفانتزعوا دمشق والقدس وفرضوا حمايتهم على مملكة اليهود وتصالحوا مع الانباط الذين اعانوا يوليوس قيصر فى حصار الاسكندريــة عام 47 ق‌م وقــد ساد الانباط فترة من الزمن فى دمشق ولكن الامبراطور الرومانى طراجان *Trajan* اخضع علم ١06 م مملكتهم الى حاكم سوريا وسماها الولاية العربية ٠

وقد انتقل الانباط من رعى الماشية وتجارة القوافل الى استغلال مناجــم البحر الميت (الحديد والنحاس والاسفلت) فصنعوا التماثيل (رأس من النحاس محفوظ فى المتحف البريطانى) وسكــوا النقود ومــدوا القنوات ونحتوا فــى

الصخور ابنية عاصمتهم بطرى (البترا ء) ومعناها صخر لان قانونهم منع البناء والزراعة ومن آثارهم خزانة فرعون (هيكل منحوت) والمسرح وهو فجوة صخرية تسع 4000 متفرج وقوس النصر وهياكل اقتبسوا معالمها من الفن المصرى والاشورى واليونانى خلال جولاتهم التجارية ، التى حدتهم الى نشر الامن وفتح الطرق واقامة الصوى والعلامات لتحديد الابعاد والمسافات بين المدن

2 ــ **التدمريون** : ازدهرت دولة تدمر بعد انحطاط دولة الانباط ، وذلك نظرا لموقعها التجارى بين الخليج العربى والفرات وساحل الشام فحولت القوافل الى الشرق (الصين) والعرب واثرت ما بين 130 م و 270 م لان منطقتها كانت ممر التجار بين الجنوب والشمال واستعمرها الرومان منذ مطلع القرن الثالث واستخدموا الرماة التدمريين المشهورين وقد استطاع الزعيم التدمرى اذينة أقصاء سابور الاول ملك الفرس عن الشام الى أسوار المدائن فسماه الرومان نائب الامبراطور عن الشرق ، ثم لقب امبراطورا فخريا وقتل بعد ذلك غيلة مع ابنه الاكبر فى حمص بايعاز من روما على ما يظهر فخلفته زوجته الزباء (زنوبية) أو زينب وأشرفت على شؤون الدولة وصية على عرش ابنها القاصر،وهب اللات وسمت نفسها ملكة الشرق،تحدت روما واحتلت مصر وقسما من اسيا الصغرى وأرجعت الرومان الى انقرة ونودى بابنها ملكا على مصر ولكن الامبراطور ارليانس انتصر على قائدها زيد فى وقعة انطاكية وحمص ، ودخل ظافرا الى تدمر ، عام 273م وهدمها ونقل نفائس معبدها الى روما بعد ان اعتقل فى مجاهل البادية الاميرة الزبا ءالتى استماتت فى الدفاع عن تدمر

واللغة التدمرية قريبة من النبطية وخطها كخط الانباط ارامى عربى،ولا تزال خرائب تدمر قائمة وفى ضمنها بقايا اعمدتها السبع مائة والخمسين (التى كانت تحف بالشارع الكبير) وهيكل بعل (اى الشمس) قرب قوس النصر ومدافنها (ابراج على عدة طبقات) والكل من صنع عربى كما تدل على ذلك وثائق حديثة

3 ــ الغساسنة : بنو غسان من اليمن (1) هاجر زعيمهم عمرو بن عامر ماء السماء أواخر القرن الثالث من الميلاد عند خراب سد مأرب ومؤسس دولتهم

---

(1) يظن أحمد أمين أن الغسانيين واللخميين المناذرة نبط لا يمنيون (فجر الاسلام)

هو جفنة بن عمرو وهي أول مملكة عربية بالشام وقد تنصرت واتخذت الارامية لغة لها مع احتفاظها بلسانها العربي الاصلي وخضعت لنفوذ بزانس التي جعلت منها حاجزا يقيها غارة الفرس كما اصبح المناذرة درعا للفرس ضد الروم ولا يخلو تاريخ الغساسنة من غموض وقد كتب عنهم اليونان المعاصرون لهم وكان العداء شديدا بين امارة الشام وامارة الحيرة ، ادى الى محاربة الحارث بن جبلة للمنذر الثالث فعينه الامبراطور جوستينيان ــ عام 529 م على عرب سوريا ثم قتل الحارث خصمه حوالى 554 م في يوم حليمة ــ نسبة الى حليمة بنت الحارث بناحية قسرين وقد غزا ملك الفرس كسرى ابرويز الروما ن بمساعدة امراء الحيرة (613 ــ 614م) فاحتلوا اورشليل (بيت المقدس ودمشق واخر ملوكهم جبلة بن الأيهم الذى أعتنق الأسلام ثم ارتد بعد أن لطمه اعرابي أيام الخليفة عمر بن الخطاب فعاد الى القسطنطينية • وقد ورد على الغساسنة شعراء عرب أمثال لبيد والنابغة الذبياني والاعشى والمرقش الاكبر وعلقمة الفحل وحسان بن ثابت •

وكانت حضارة الغساسنة جيران البزنطيين ارقى من حضارة اشقائهم اللخميين المقيمين بتخوم فارس وقد استغلوا مياه جبل العرب (جبل الدروز) لتطوير الزراعة ومازالت انقاض قصورهم في بصرى وزهاء ثلاثمائة بلدة وقرية اخرى واشتهرت بصرى بخزان مياهها ومبانيها وحماماتها ومدرجها المسرحي الذي يتسع لاربعة عشر ألف متفرج ••

4 ــ **المناذرة** : هم يمنيون أيضا هاجروا بعد انفجار سد مأرب الى العراق واسس دولتهم عمرو بن عدى اللخمي الذي اتخذ الحيرة عاصمة وقد سجلت الاثار اسماء نحو العشرين ملكا من المناذرة من اقدمهم امرؤ القيس (وهو غير الشاعر الكندي) الذي وجدت على قبره بحوران كتابة تعتبر أقدم كتابة باللغة العربية ومن سلالته النعمان الاول باني قصرى السدير والخورنق المؤسس لايواء بهرام نجل يزد جرد الاول (399 ــ 420) الذي ورد لتعلم الصيد والتنعم بجودة الهواء وقد بلغت دولة المناذرة أوجها في عهد المنذر الثالث (505ــ554) وهو معاصر جوستنيان) الذي ولي بعده النعمان بن المنذر الخامس زوج هند الملقب بأبي قابوس وغضب عليه كسرى وحبسه حتى مات حوالى 602م ــ وقد تمسح النعمان الثالث (580ــ606) وقام العداء بين المناذرة والفرس فهزموهم في معركة ذى قار واستقلوا بأمرهم الى الفتح الاسلامي على يد خالد بن الوليد (633م) •

ومن مآثرهم ديرا هند الكبرى والصغرى وقد تكلم المناذرة العربية ولكنهم كتبوا بالسريانية

الفصل الثامن

الفتح الاسلامى

عندما شرع المسلمون عام 21 هـ فى فتح برقة لم يكن المغرب الاقصى ستوى مقاطعة من هذه الامبراطورية الجديدة التى بدأت تنشر فيها الدعوة الاسلامية فلم تكن حدود سياسية مضبوطة بين هذه الاقاليم من بحر القلزم الى المحيط الاطلنطيقي اللهم الا منذ اواخر القرن الثانى فى ظل الادارسة .

وقد اصطدم الفاتح العربى فى افريقيا الشمالية بمقاومة اتخذت بيزانس عدتها بعد ان اجلاها المسلمون من الشام ومصر وكان الصمود اشد واطول فى حدود آسيا الوسطى حيث استمرت المناوشات عدة قرون ومع ذلك فقد نجـح الاسلام فى بسط سيادته على الاقاليم التى خضعت لحد الآن لتأثيرات الحضارة الهيلينية لافريقيا وأصبح الاسطول العربى سائدا فى البحـار التـى اكتسحتها القطع الرومانية أجيالا متطاولة .

ولكن نشر الدين الجديد كان يتطلب دائما مزيدا من التوسع التمدينـى الذى لم يتسم بطابع الفتوح الاستعمارية او الحركات الاستغلالية وقد وصلت هذه الفورة التحريرية الى المغرب الاقصى منذ حملة عقبة الأولى غير ان معالم الدين الجديد لم تتفتح لها مجالات المغرب الا فى عهد موسى بن نصير .

مـراحـل الفتـوح

وهكذا لم تكد تمر عشرون سنة على استقرار البعثة المحمدية حتى انبرت الجيوش العربية تخرق الصحراء الليبية فاحتلت انطابلس (برقة) وطرابلس

وفزان ورغب عمرو بن العاص فى مواصلة الزحف ولكن عمر بن الخطاب منعه من المغامرة بالمسلمين فى افريقيا المفرقة .

وفى خلافة عثمان بن عفان ولى عبد الله بن ابى سرح العامرى على مصر فاستأنف حركة الفتح (عام 26هـ) وامر عقبة بن نافع بالزحف فى عشرة الاف جندى مالبثت الامدادات ان توالت عليهم فى برقة وعلى راسها جماعة من الصحابة تجمعوا فى الجرف قرب المدينة المنورة فاتجهت الحشود نحو طرابلس وافريقية قاصدة مملكة جرجير الممتدة الى طنجة تحت نفوذ هرقل فدارت معركة قرب سبيطلة مات خلالها الوالى البيزنطى ومحقت جيوشه التى اوصلها البعض الى مائة وعشرين الفا وانبث الجند فى انحاء الجنوب التونسى الى قفصة وفر البيزنطيون الى الحصون واعتنقت افواج البربر الاسلام وفى مقدمتهم صولات الزناتى امير مغراوة ولم تكن للعرب رغبة فى مواصلة الزحف بعد الخمسة عشر شهرا التى قضوها فى هذه الفيافى فارتحلوا مقابل تعويضات باهظة .

ومرت نحو ثمان عشرة سنة (26 ــ 45 هـ) استعرت خلالها الحرب بين على ومعاوية كللت باستتباب الخلافة الاموية فى دمشق وقامت فى نفس الوقت بافريقيا مشاحنات دينية ومعارك اثارها المسيحيون الافارقة المنضوون تحت نفوذ رومة فلم يجد المسلمون كبير عناء فى اكتساح افريقيا من جديد بقيادة معاوية ابن حديج (عام 45هـ) ووصل عبدا لله بن الزبير الى سوسة وعبد الملك ابن مروان الى جلولاء ثم بنزرت وتعززت هذه الجيوش بمائتى قطعة بحرية أثخن بها الخليفة فى صقلية .

عقبة بن نافع

وكان عقبة بن نافع قد وصل قبل بضع سنوات (42هـ) الى غدامس بتخوم السودان فولاه معاوية امارة افريقيا (عام 50 هـ) واسس مدينة القيروان فى غيضة خصبة تركيزا للحاميات الاسلامية على غرار البصرة والكوفة والفسطاط وكان هذا المعقل الجديد يراقب طريق مصر ويواجه جبال الاوراس حيث تمكن فلول البربر على اهبة التوثب وقد استكمل القائد العربى فى خمس سنين تعمير هذه المدينة التى كانت النواة الاولى للحضارة العربية فى الشق الغربى للعالم الاسلامى فبنى جامعها الاعظم وسورها ولكن مالبث ان عزل فخلفه ابو المهاجر مولى مسلمة بن مخلد والى مصر الجديد (عام 55 هـ) الى القيروان فرممها ثم

قام بحملة عسكرية نحو الغرب لان شمال البلاد كان لايزال فى قبضة البيزنطيين فهزم الاعلاج والبربر فى باغاية بشمال الاوراس ثم توغل فى بلاد الجريد والزاب ففتح تاهرت ٠

فتح المغرب الاقصى

وهنا بدا عقبة الزحف عبر اقاليم المغرب الاقصى الى سبتة حيث اقتبله يوليان الغمارى الذى كان واليا على اقليم الريف باسم قسطنطين الرابع امبراطور بيزانس وقدم له هدايا واطلعه على عورات اسبانيا والبربر فاقره فى ولايته باسم الخليفة ثم فتح طنجة عنوة بعد استعصاء أهلها وتقدم نحو وليلى بجبل زرهون (قصر فرعون) فاحتلها ثم الاطلس فقاتل المصامدة فى حروب عنيفة لم يخلصه فيها سوى زناتة التى كان المغراويون منها قد اسلموا منذ الحملة الاولى ، وعرج على الحوز فدخل مدينة نفيس التى ظلت مع اغمات اكبر مدن الجنوب (الى القرن الخامس حيث اسست مراكش) ثم درعة والسوس وبعد احتلال ايجلى انعطف مثقلا بالسبايا نحو أسفى فادخل قوائم فرسه فى البحر رامزا الى رغبته فى مواصلة الزحف لاعلاء كلمة الله لولا هذا الحاجز وهنا اصطدم بملثمى صنهاجة ثم مسوفة وراء السوس فاثخن فيهم وعاد ادراجه بعد ان جالت جيوشه فى المغرب من الشمال الى الجنوب الاقصى ٠

تراجع عقبة ومقتله

قفل عقبة راجعا بعد هذه الفتوح الخاطفة الى القيروان ولاندرى هل تم ذلك عن طريق ممر تازة أو عبر واحات منحدر الاطلس الصحراوى ويظهر أن عقبة ارتكب غلطتين باستفزاز كسيلة الذى صحبه اثناء زحفه الى المغرب وبتشتيت جيوشه فى طريق العودة مما شجع حاميات تهودة وبادس على الايقاع به مع زهاء ثلاثمائة من الصحابة والتابعين استشهدوا جميعهم وزحف كسيلة فى القيروان فاحتلها (عام 64هـ) بعصابات من الاوربيين وقبائل البرانس التى لم يكن الاسلام قد تغلغل فى سويدائها فتراجع واليها زهير بن قيس البلوى الى برقة واستمرت امارة كسيلة خمس سنوات بسبب اضطراب شؤون الخلافة بالشرق ٠

ولكن لم يكد عبد الملك بن مروان يستبد بالملك حتى جهز زهير البلوى

بجيش عتيد فزحف نحو القيروان (عام 69 هـ) وقتل كسيلة وانهزم البربر فطاردهم العرب الى وادى ملوية حيث لجأت أوربة الى وليلى ويظهر أن زهيرا اضطر لاسباب شخصية للعودة الى الشرق فصادف فى برقة الاسطول البيزنطى الذى اغار على المدينة فجاهد فى صفوف المسلمين حتى قتل .

حسان بن النعمان

وازاء ارتداد كثير من البربر وانقسامهم انبرى عامل مصر حسان بن النعمان الغسانى بأمر من الخليفة فزحف بأربعين ألف جندى نحو تونس حيث احتل القيروان وفتح قرطاجنة عنوة وكانت هذه الحاضرة لا تزال تحتفظ ببعض روائها القديم رغم تصدع معالمها وكانت الكاهنة داهية تتزعم جراوة بالاوراس وتقود فتنة البربر ضد العرب لاسيما وان كثيرا من القبائل البربرية انضمت اليها بعد مقتل كسيلة فحاربها حسان قرب وادى مليانة بناحية باغاية وتيسة حيث انهزمت الجيوش الاموية وتراجع قائدها الى طرابلس انتظارا للمدد فانتفض من جديد ودس لخالد القيسى الذى كانت الكاهنة قد تبنته لاستطلاعه اسرارها وشعرت القائدة بانتشار عقد البربر أمام الزحف الجديد فاحالت الحقول اليانعة الى صحراء واسترجع حسان قرطاجنة وواجه فلول البربر الذين اصبحوا يقاتلون وحدهم لجلاء بيزانس عن افريقيا الشمالية بعد فقدانها سيادة البحار فقتل الكاهنة 74 هـ وبعد أن تعقبها فى الاوراس وأسلم البربر وامر حسان اكبر ولدى الكاهنة على جراوة ثم عاد الى القيروان واقام معالم العمران ودواوين الخراج واسس بتونس دارا لصناعة السفن .

موسى بن نصير (77 ـ 98 هـ)

وكانت الفتوح لحد الآن عارضة حيث لم يحتفظ العرب بغير افريقية وظلت امامهم مفازات عبرتها الجيوش الاموية دون ان تستتب حامياتها وكان ذلك من حظ موسى بن نصير الذى توغل فى المغرب ففتح طنجة ثم انحدر الى سهول الاطلنطيك بعد ان عرج على سبتة فاستولى على مدينة سكومة الاوربية قرب فاس ثم زحف نحو درعة وتافيلالت فى حين توجه ابنه الى السوس وقد اتخذ طنجة مقر قيادته فولى عليها طارق بن زياد وانزل معه رهائن المصامدة وانثنى

عشر الفا من البربر وسبعة وعشرين عربيا لتعليم القرآن والفقه وبذلك انضم برابرة المغرب عن بكرة ابيهم باستثناء جزء من الاطلس - الى الفاتح العربي واعتنقوا الاسلام وكونوا اطر القيادة والولاية في البلاد فازدادوا تشبثا بالفكرة الدينية الجديدة بعد أن ارتدوا فيما قبل اثنتي عشرة مرة وقد اجاز طارق الى الاندلس (عام 92 هـ) في ثلاثمائة من العرب ونحو عشرة ءالاف من البربر فنزل جبل الفتح الذى سمى منذ ذلك العهد بجبل طارق ثم هزم لذريق بفحص شريش والتحق به موسى من جهة الشرق معتزما العودة الى دمشق عن طريق القسطنطينية بعد فتح اوربا المتوسطية غير ان الاوامر الخليفية استحثته فتوقف عن الغزو وولى ولديه عبد العزيز على الاندلس وعبد الله على افريقية من حيث توجه الى الشرق فتوفى هناك عام 98هـ

وهكذا استغرق العرب ثلاثة ارباع قرن لبسط نفوذهم على افريقيا الشمالية وكان فى وسعهم الاستيلاء على هذه الاقاليم فى مدة أقل لو لم تحل دون ذلك النزاعات التى قامت حول الخلافة فى الشرق على أن سياسة الخلفاء منذ عهد عمر بن الخطاب لم تكن متحمسة لهذه الفتوح فى فيافى مجهولة فكان الزمان عاملا جوهريا فى الاقتناع بانعدام اية خطورة فى توغل الجيوش العربية الى المحيط الاطلنطيقى ومنه الى الاندلس لاسيما وان العرب عرفوا كيف يستفيدون من تجانس البدو العرب مع المجتمع البربرى فاستعملوا فى فتوحاتهم الظافرة المرونة الدبلوماسية اكثر من قوة السلاح وملكوا بذلك القلوب دون ان يحتاجوا الى تركيز حاميات موفورة ولعل حملة عقبة بن نافع على المغرب عبر مفازات مترامية كان مظهرا للايمان الذى تسلحت به الدعوة الجديدة وللثقة المتناهية بالنفس وقد استجاب البربر للاسلام وانضوت عدة قبائل تحت رايته فتفككت عرى التكتلات العابرة التى ربطتها بالبيزنطيين وقد وفق حسان فى الايقاع بالمراكز التى كانت معقلا لهذه التكتلات مثل قرطاجنة فانفسح المجال امام الزحف العربى الذى لم يعد يصطدم الا بفلول هنا وهناك ممن لم يتح لهم تفهم مغزى الفتح العربى ٠

واصبح البربر شديدى التعلق بالاسلام والدفاع عن حوزته الى ان استبد بعض الولاة العرب فحدا الخوارج النازحون من العراق قبائل البربر الى الثورة باسم الاسلام ضد العناصر الزائغة عن المبادىء الديموقراطية والقيم المثلى التى غرسها الدين الجديد فى النفوس ٠

نعم تعاقب كثير من الولاة على المغرب بعد نكبة ءال موسى بن نصير فتولى

محمد بن يزيد زهاء سنتين ثم اسماعيل بن عبيد الله المهاجر الى عام 101 هـ حيث خلفه يزيد بن ابى مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفى فبدأ البرابرة يتآمرون ضد الاستبداد الناشىء حيث اعتزم يزيد احتذاء بمولاه الحجاج فرض الجزية على المسلمين فقتلوه ولم تكن هذه البادرة بداية ثورة لان البربر مالبثوا أن عوضوا الوالى المقتول بسلفه محمد بن يزيد تولى بعده بشر بن صفوان الى عام 109 هـ ثم عبيدة بن عبد الرحمن فخلفه بعد سنوات ونصف عبيد الله بن الحبحاب الذى اثار بتعسفاته موجة عارمة من السخط ادت الى ثورة البربر .

* * *

الفصل التاسع

البربر والخوارج

اصبح المغرب جزءا من دار الخلافة الاموية ، وتعاقب عليه الولاة المقيمون بالقيروان والذين لم يكونوا معززين بأكثر من مائة وخمسين الفا من العرب والمشارقة ، اجتاز منهم أربعون الفا الى الاندلس وانبث الباقون حول القيروان وكبريات حواضر افريقية ، كما اختير منهم حرس النواب الاقليميين والواقع ان نسبة العرب الذين استقروا بشمال المغرب الاقصى كانت ضئيلة نزح معظمهم الى الاندلس فلم يؤثر وجودهم فى العمران الاجتماعى ، وهكذا لم يكن الفتح الاسلامى استعماريا ولا تعميرا استغلاليا ، بل كان دعوة الى فكرة جديدة ، تبلورت فى مبادىء الاسلام السمحة ، وقد ظل المغرب الاقصى بمعزل عن التيارات السياسية التى تمخضت عن قيام الدولة العباسية لان الامدادات الشرقية المتجددة لم تتعد المغرب الادنى ، على ان البربر اسهموا منذ الطفرةالاولى فى فتح الاندلس وشاهدوا انبثاق العصبيات العربية القديمة بين اليمنيين والقيسيين فاذكت هذه الحركة نعرة سلالية فى نفوس البربر نمت وترعرعت بتدخل الخوارج فى الحقل السياسى وقد اتسم هذا الاندفاع الثورى بسمة اسلامية اساسها الانتقاض على عناصر الفوضى والاستبداد من بعض الولاة العرب الانتهازيين الذين جعلوا من أنفسهم جباة أموال لا رعاة للدين الجديد .

تعاقب الـــولاة

وكان تنائي المسافات وقلة وسائل المواصلات يحدو كثيرا من ولاة افريقية الى الاستقلال فعليا عن حاضرة الخلافة وتكثر في هذه الظروف الدسائس والمناورات فتسفر عن خلع هذا وتولية ذاك وهكذا لم يكد الخليفة سليمان الاموى يعزل عبد الله بن موسى بن نصير حتى ولى مكانه محمد بن يزيد (عام 97 ه) ثم نصب عمر بن عبد العزيز عاملا جديدا هو اسماعيل بن عبد الله بن ابى مهاجر (عام 100ه) حرص خاصة على نشر الاسلام ووجه الخليفة عشرة من التابعين لبث تعاليم الفقه السنى فتوطدت دعائم الدين في المجتمع البربرى غير ان روح الاستبداد استعرت مع الوالى الجديد يزيد ابن أبى مسلم مولى الحجاج الثقفى الذى عينه يزيد بن عبدالملك بعد وفاة عمر الثانى فاغتيل لشهر من ولايته (102ه) لاعتزامه نهج سياسة الحجاج فى العراق بفرض الجزية على المسلمين. ولما توفى الوالى الجديد بشر بن صفوان (103 ـ 109ه) عين هشام عبيدة بن عبد الرحمن السلمى (110ه) فنصب من جهته أربعة ولاة تتابعوا على الاندلس ونكل بعمال خلفه فعزل (104ه) ثم جاء دور عبيد الله بن الحبحاب(1) فعين بدوره على طنجة والمغرب الاقصى عمر بن عبيد الله المرادى وعلى الجنوب ولده اسماعيل وبالاندلس عبد الرحمن الغافقى بطل بلاط الشهداء وقد عمد عامل طنجة الى تخميس البربر (2) حيث فرض عليهم خمس أموالهم بدعوى انهم فيء للمسلمين متعديا فى ذلك الاعشار والزكوات الشرعية، وكان عامل افريقية يرسل الى الخلفاء بالمشرق البربريات المسبيات ، فتمخض هذا العدوان عن ثورة البربر .

الخوارج والثــورة

فى وقعة صفين بين على ومعاوية طلب هذا تحكيم كتاب الله فاختلف اصحاب على لان بعضهم رأى فى ذلك خدمة واضطر على أخيرا الى قبول التحكيم،

---

(1) ابن الحبحاب هو الذى بعث حفيد عقبة بن نافع وهو حبيب بن أبى عبيدة الى السوس الاقصى فاحتله وبلغ تخوم السودان وغنم كثيرا من الذهب والفضة (الاستقصاء ج 1 ص 48)

(2) البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى ، طبعة بيروت عام 1950 ج 1 ص 52 .

فاختار معاوية عمرو بن العاص ليمثله واختار أصحاب ابن أبى طالب أبا موسى الاشعرى فظهر قوم من جند على رأوا ان فى التحكيم خطأ لان الحق واضح ولانه لا حكم الا لله وطلبوا من على التراجع عما ابرمه مع خصمه فأبى وجاء بالعهد فخرج الثائرون الى حروراء قرب الكوفة وسموا أنفسهم الحرورية أو المحكمة أى القائلين بان «لا حكم الا لله» فحاربهم على بالنهروان ولكن انهزامهم نمى كراهيتم فى على فدبروا مقتله على يد ابن ملجم وظلت الخوارج شوكه فى جنب الامويين تفرعوا فرعين احدهما بالعراق وفارس والاخر بجزيرة العرب ولم يخضد نفوذهم الا فى عهد العباسيين ، وكانوا يرون ان الخلافة يجب ان تكون باختيار حر من جميع المسلمين قرشيين أو غيرهم حتى العبيد وان الخليفة يعزل اذا حاد عن الشريعة ومنهم من آرتأى عدم حاجة الامة الى امام وانما يكفى العمل التلقائى بكتاب الله وقد تفرقوا عشرين فرقة غلا بعضهم وهم الازارقة (نسبة الى نافع بن الازرق) فكفروا جميع المسلمين عدا الخوارج، اما الاباضيون وهم المنتسبون الى عبد الله بن اباض الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن الاول للهجرة ، فقد دعوا الى مسالمة الخوارج ومناكحتهم والتعايش مع الخليفة وابرز الطوائف الاخرى النجدات (اتباع نجدة بن عامر) الذين عارضوا الازارقة والصفرية (1) الذين لم يختلفوا كثيرا عن الاباضية ، وكان العرب البدو أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج اعجابا برأيهم الديمقراطى فى الخلافة على ان مذهبهم كان يتسم بالتشدد فى العبادة ، والاخلاص للعقيدة وقد انتشر فى المغرب الاباضية والصفرية عن طريق العراقيين نزحوا الى الغرب للدعوة الى اقامة دولة اسلامية على اساس نظريتهم فى الخلافة وقد صادفت هذه النظرية قبولا عند كثير من البربر الذين رأوا فى هذا الفهم للاسلام استجابة لميولهم التحررية وايدهم البرغوا طيون ، فانتقضوا على ابن الحبحاب الجائر وقد قاد الثورة فى أحواز طنجة احد قادة الصفرية وهو ميسرة المضغرى (2) (عام 122هـ) الذى قتل عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وولى مكانه عبد الاعلى بن جريج الافريقى الرومى أحد ايمة الصفرية وبايعت طائفة من البربر ميسرة كأمير للمؤمنين فى شمال المغرب ومعظم سواحل الاطلنطيق حيث تنتشر نحلة طريف وولده صالح البرغواطى ، ولكن استبداد ميسرة حدا

---

(1) نسبة الى زياد بن الاصفر (فجر الاسلام 261) أو عبد الله بن صفار وقد ذكرهما صاحب القاموس .

(2) المدغرى حسب ابن غذارى (المغرب 1 ص 52) أو المضغرى الاستقصا ج 1 ص 48)

البربر الى قتله (1) وتنصيب خالد بن حميد الزناتى الذى زحف ضده خالد بن حبيب الفهرى فاصطدم الفريقان على وادى شليف (2) حيث قتل ابن حبيب فى وقعة الاشراف وقد انضم برابرة الاندلس الى الثورة وانتهى الخبر الى هشام فعزل ابن الحبحاب وولى مكانه كلثوم بن عياض (عام 123هـ) بعد أن جهزه باثنى عشر الف جندى من الشام وبفرق من ثغور مصروبرقة وطرابلس فتجمعسبعون الفا زحفوا الى وادى سبو حيث دارت معركة عنيفة قتل فيها كلثوم فتبدد الجيش وتوجه أهل الشام الى سبتة ثم اسبانيا (3) بامرة بلج بن بشرو عاد المصريون والافريقيون الى القيروان ولذلك انفسح المجال فى المغرب امام الخوارج وانفصل البربر على الخلفاء الامويين وحذا حذوهم برابرة الاندلس ، ولكن ثورتهم منيت بالفشل وخشى هشام امتداد الثورة الى افريقية فولى المغرب حنظلة بن صفوان الكلبى الذى وصل عام 124 هـ الى القيروان فاصطدم بهوارة الصفرية وحالفه النصر فى معركتين حاسمتين بالقرن والاصنام على مقربة من المدينة (4)

فوضى البربر

تساوقت هذه الفوضى العارمة بالمغرب الاقصى مع الاضطرابات التى أثارها بنو العباس ضد الامويين فمرت فترة لم يحفل بها الشرق بماجريات الغرب ، غير أن الادعياء صادفوا ميدانا خصبا فوطد صالح بن طريف دعايته بتامسنا بين سلا واسفي،وقد كان والده طريف من قواد ميسرة الصفرى فارتأى

---

(1) وقد ذكر ابن حيان ان ميسرة هو الذى هزم جيوش كلثوم بحيث لم يمت فى هذه الفترة وايده ابن خلدون فى اخبار بنى فاتن حيث أكد ان ميسرة لم يهلك الا بعد وقعة سبو وان الذى خلفه فى رياسة مصغرة هو يحى بن حارث

(2) يرى طيراس التاريخ (ج 1 ص 100) ان هذه الوقعة دارت فى سبو لافى شلوف نظرا لبعد هذا المكان عن مركز الثورة شمالى المغرب لاسيما وان المعركة الثانية دارت فى سبو وهذا التأويل لا يمكن ان يقوم حجة .

(3) بدعوة من زعيم الاندلس عبد الملك بن قطن الذى استنجد ببلج ابن اخى كلثوم لمواجهة النزعة الخارجية المستفحلة بالاندلس فانتهى الامر بانهزام البربر وعزل ابن قطن واستيلاء بلج على الاندلس (ابن حيان) .

(4) يبالغ المؤرخون العرب فى زعمهم ان عدد قتلى البربر فى هذه الوقعة بلغ 180 الف نسمة .

بعد وفاة رئيسه المضغرى ان يدعى النبوة فانتحل مذهبا جديدا فنسب الى برغواطة (I) الغى بعض أركان الاسلام وشوه باقيها ووضع قرآنا من ثمانين سورة زعم انه وحى من الله ٠

وفي غضون ذلك استعاد العرب السيادة فى افريقية حيث انبرى عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع (2) ودعا لنفسه بالقيروان بعد أن جلا عنها الوالى الاموى حنظلة (127هـ) وتكونت دويلات خارجية بامارة صنهاجة فى باجة وبقيادة هوارة الاباضيين فى طرابلس والصفرية بتونس فزحف عبد الرحمن وخضد شوكتها (135هـ) مطاردا فلولها الى تلمسان وبعد وفاته تقاتل خلفاؤه وتقاسموا افريقية والمغرب الاوسط فى نفس السنة (138هـ) التى دخل فيها عبد الرحمن بن معاوية الاموى الى الاندلس وقد ثار الورفجميون الاباضيون واستولوا على القيروان ونكلوا باهلها وخربوا المساجد وقتلوا آخر بنى عقبة وهو حبيب بن عبد الرحمن (140هـ) تاركين أسوأ الاثار فى نفوس المسلمين مما حدا ابا الخطاب المعافرى وهو من العرب الاباضيين بطرابلس الى الانتفاض معززا برجال زناتة وهوارة ضد الورفجوميين والنفزاويين فقتل زعيمهم وأثخن فى جموعهم واستولى على القيروان بعد ان ملك طرابلس وهو الذى ولى على افريقية ابن رستم الفارسى ،فكانت هذه الدولة الخارجية حاجزا جديدادون دار الخلافةبالشرق العربى،شجع الصفرية من مكناس وهم بدورحل بين المغرب الشرقى وتافيلالت على تأسيس مدينة سجلماسة عام 140 هـ بامرة عيسى بن يزيد الاسود الذى كان اول ملوك بنى مدرار ومالبث ان عزل وتولى مكانه أبو القاسم بن سمكو (3) بن واسول (155هـ ـ 167هـ) الذى دعا للعباسيين واستمر المذهب الخارجى سائدا أزيد من قرنين (4)

(I) هى بطن من المصامدة حسب ابن خلدون ٠

(2) كان عبد الرحمن قد صاحب بلج الى الاندلس وعند مقتل عبد الملك بن قطن ثار هو مع جمهرة من العرب والبربر وقتل بلج وفر الى تونس عام 126هـ٠

(3) يقال بان سمكو هذا من تلاميذ عكرمة مولى عبد الله بن عباس (تاريخ القرطبى) وكان عكرمة هذا بربرى الاصل (ابن خلكان) يرى رأى الخوارج على ماقيل ٠

(4) عادت هذه الدولة الى رفض مذهب الخوارج والدعوة للعباسيين أيام الشاكر بالله (347هـ)٠

وتلبية لاستصراخ عرب القيروان وجه المنصور العباسى محمد بن الاشعث الذى زحف على طرابلس باربعين الف جندى وقتل ابا الخطاب فى سرت والتجأ ابن رستم عند أباضية الجزائر فبايعوه ، وبنى مدينة تاهرت 144 التى أصبحت عاصمة مملكة اباضية تستند الى برابرة لماية كما تأسست امارة صفرية أخرى فى تلمسان على يد ابى قرة المغيلى ولى ابن الاشعث الاغلب بن سالم على افريقية فسار ضد ابى قرة الذى فر الى طنجة واستمرت سيادة العباسيين على القيروان رغم تخالف الخوارج ضد ولاتها ، وفى اواخر القرن الثانى بدأ مذهب الخوارج ينهاروانتشرت آثاره فى بعض الاطراف .

***

الفصل العاشر

الادارة

لم يكد ينتصف القرن الثانى حتى كانت افريقيا الشمالية موزعة بين عدة دويلات اسسها مهاجرون عرب ابن رستم فى الجزائر وجبل وفوسة وابراهيم بن الاغلب فى افريقية وصالح فى نكور وعبد الرحمن الداخل فى الاندلس علاوة على الامارات الخارجية فى تلمسان وسجلماسة وتامسنا (البرغواطيون) وهكذا استجابت معظم بلاد البربر لقادة مشارقة اقاموا ممالك جديدة باسم الاسلام تساوقت بينها علائق طيبة ففسح المجال لتركيز دعائم الاسلام واقرار النظام والامن ٠

وفى هذا الوقت استمر العراك بين الامويين والعباسيين فى الشرق وقام ضد الفريقين العلويون الذين كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة وقد ثاروا مرارا معززين بالجماهير وعند انهيار الحكم الاموى رشح بنو على للخلافة محمد المعروف بالنفس الزكية (1) وحضر عند البيعة ابو جعفر المنصور قبل انتقال الخلافة الى العباسيين وقد امتحن مالك وابو حنيفة لمساندتهما الامامة العلوية وقامت معركة شديدة فى المدينة المنورة بين محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى وبين المنصور

---

1) هو ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن على وكان له اخوة من بينهم ابراهيم ويحيى وسليمان وادريس ٠

العباسى اسفرت عن مقتل الخليفة العلوى (عام 145 هـ) واستمرت المناوشات الى عام 169 هـ حيث شبت وقعة الفخ على ثلاثة اميال من مكة بين موسى الهادى بن محمد المهدى ابن المنصور والحسين بن على ابن الحسن المثلث فقتل وفر المولى ادريس الى مصر ومنها الى المغرب الاقصى بمساعدة بعض الشيعة (1) صحبة مولاه راشد فنزل بمدينة وليلى (عام172هـ) (2) ضيفا على رئيسها اسحق بن محمد بن عبد الحميد الاوربى البربرى الذى بايعه وانخلع من طاعة العباسيين وقبيلة اوربة من الفلول التى نزحت على الاوراس بعد مقتل كسيلة واستقرت بوليلى التى يظهر انها هى قصر فرعون الرومانى وقد تعززت مبايعة الاوربيين وهم من اعظم قبائل البربر بانضمام سجلماسة وزناتة وزواغة وزواوة وصدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة فالتفت بذلك حول الامام الجديد كافة العناصر البربرية التى كانت ترى فيه سليل الرسول ولم تكن السنية ولا الشيعية قد تبلوروا ، آنذاك كمذهب فى المغرب الاقصى ولعل الخوارج كان أثرهم قد تقلص ولذلك اتجه المولى ادريس خاصة الى غزو تامسنا ومنها شالة فأسلم من كان بها من يهود ونصارى ووثنيين ثم خرج (173هـ) لاستكمال دعوته فى تازة وجنوبى فاس وفازاز ثم تلمسان (3) فاستسلم له زعيم مغراوة محمد بن خزر الذى جعل حداقبل بضع سنوات لامارة ابى قرة الصفرية وكان سليمان اخو المولى ادريس قد سبقه الى تلمسان حسب ابن خلدون (4) وبذلك امتدت منطقة نفوذ المولى ادريس الى شمال المغرب (عدا مملكة نكور فى سواحل الريف) وناحية تازة وسهول المحيط الاطلسى الى مصب ابى رقراق وجنوبى مكناس وفاس الى تادلة وسبو علاوة على تلمسان ، وقد يتساءل الانسان لماذا حارب بربر زناتة محاولات تسرب الولاة العباسيين فى المغرب الادنى فى حين تفتحوا للنفوذ الادريسى ؟ فهل كان المغراويون قد ملوا المقاومة ام هناك تحالف ضمنى ضد العباسيين ؟ من الصعب

---

(1)وهو واضح المسكين القائم على البريد العباسى بمصر (ابن خلدون)

2)حكى صاحب القرطاس قصة رحلة المولى ادريس من مصر الى وليلى عن طريق برقة ثم القيروان فى زى التجار ثم توجه الى طنجة عبر وادى ملوية .

3) فى هذه السنة اى عام 174 هـ بنى المولى ادريس مسجد تلمسان واسس منبره وخط اسمه فى صفحته وشاهده ابن خلدون فى القرن الثامن وقد بقيت منارته قائمة الى عام 1937 فى جنان بحى اكادير وقد بنيت مكان المسجد

(4) يتناقض ابن خلدون حيث اكد فى أخبار بنى العباس ان سليمان مات فى وقعة الفخ وكذا أبو الفداء .

الجواب بدقة عن هذه التساؤلات ولكن الواقع هو ان قبائل متغايرة المحتد والمنزع التفت كلها لاول مرة فى تاريخ المغرب حول سليل الرسول المولى ادريس ٠

وقد خشى هارون الرشيد أن تمتد شبكة النفوذ الادريسى الى افريقية فوجه الى المغرب بواسطة ابراهيم بن الاغلب امير القيروان مبعوثا خاصا هو سليمان بن جرير الشماخ زعم انه من دعاة الشيعة الخارجين عن الدعوةالعباسية فقربه المولى ادريس لظرفه وأدبه واستغل هذه الزلفى فسممه فى قارورة طيب وفر عائدا الى الشرق فمات المولى ادريس فى مهل ربيع الثانى عام 177 هـ

المولى ادريس الثانى

وكانت كنزة سرية الامام الراحل حاملة فجمع راشد رؤساء البربر وقرر انتظار المولود وتنصيبه مكان والده اذا كان ذكرا رغبة فى الحفاظ على سيادة آل البيت وولد ادريس الثانىفقام راشد(1) بولاية العرش ثم مات فسهر على كفالة الصبى ابو خالد يزيد بن الياس العبدى الى ان بلغ المولى ادريس الثانى نحوا من احدى عشرة سنة فبايعه البربر (188هـ) فى جامع مدينة وليلى بعد ان توالت بيعتهم فى مراحل صباه وورد على الامير الفتى خمسمائة فارس عربى من افريقية والاندلس فجعل منهم حرسه الرسمى واستوزر عمير بن مصعب الازدى كما استقضى عامرا القيسى وهو من تلاميذ الامام مالك واستكتب عبد الله الخزرجى فكانت هذه المجموعة هى النواة الاولى لتعريب المغرب بعد توطيد اسلامه وقد شعر المولى ادريس بانحراف اسحق الاوربى عنه وموالاته الاغلب فقتله (عام 192هـ) ٠

وقد تكاثرت الوفود المنضوية تحت لواء المملكة الجديدة فضاقت عاصمة وليلى واختط الامير مدينة فاس قرب العيون النابعة من الوادى المعروف اليوم بوادى فاس فى غيضة كان يسكنها زواغة وزناتة فاشتراها ادريس وشرع فى بناء عدوة الاندلس عام 192هـثم اختط فى العام التالى عدوةالقرويينواقام دورها وبنى فى الاولى جامع الاشياخ وفى الثانية جامع الشرفاء ثم اسس مسكنه فى «دار القيطون» ثم القيسارية والاسواق وسميت عدوة القيروان باسم العرب الوافدين عليها من القيروان وهم ثلاثمائة كما سميت الاندلس بمن هاجر اليها

---

(1) يقال ان ابراهيم بن أغلب هو الذى دس بأمر من الخليفة العباسى من يقتل راشدا عام 186هـ او عام 188هـ على قولين

من الربضيين الذين اجلاهم الحكم بن هشام عن الاندلس وهم بضعة آلاف عائلة (1)

وقد اكد ابوبكر الرازى (المتوفى عام 344هـ) ان بانى مدينة فاس هو ادريس الاول فى المدة المتراوحة بين سنتى 172و174هـ ونقل ابن فضل الله العمرى فى مسالكه عن ابن سعيد صاحب المغرب ان ادريس الاول انما اسس عدوة الاندلس كما لاحظ ابن الابار نقلا عن ابن الحسن النوفلى ان عدوة القرويين اسست عام 187هـ على يد المولى ادريس الثانى وهذه الروايات تتضافر لاسيما وان هنالك نقودا ادريسية عثر عليها ضرب درهم منها عام 189هـ بفاس قبل التاريخ المتداول لبناء المدينة وهذا الدرهم محفوظ حسب ليفى بروفنصال (2) فى المكتبة الوطنية بباريس بل هنالك فى متحف كاركوف بروسيا درهم ادريسى مسكوك بفاس يحمل تاريخ 185 هـ (3) وهذا يفسر لنا نوعاما هذه الازدواجية الملحوظة بين العدوتين ومهما يكن فقد اتخذ المولى ادريس المدينة الجديدة دار ملكه أقام بها الى عام 197 هـ حيث غزا بلاد المصامدة واحتل مدينتى نفيس وأغمات وبعد سنتين توجه الى تلمسان حيث اقام ثلاث سنوات فجدد الزناتيون بيعة والده واعاد الامير بناء المسجد وترميم المنبر .

وقد وفق المولى ادريس فى اختيار موقع المدينة التى كان يفصلها نهر يمد بالمياه العذبة ويسقى الجنان والحدائق قبل الانصباب فى وادى سبو وكانت الناحية خصبة لان بلاد السايس تعتبر من اجود الاراضى الفلاحية المغربية على ان وجود فاس بين الريف والاطلس يجعل منها مركزا اقتصاديا ممتازا يزداد اهمية باشرافه على ممر تازة الواصل الشرق بالغرب ففاس هى مفترق الطرق الكبرى بين الجزائر وسهول الاطلنطيق وسواحل الريف وصحراء الجنوب فلهذا كانت فاس كما يقول كوتيى آية فى الاقتباس من الشرق لانها ظلت طوال قرون

---

(1) أربعة آلاف حسب عبد الملك للوراق وثمانية آلاف حسب دوزى (تاريخ مسلمى الاندلس 1932 ج 1 ص 301) أو ثمانمائة حسب هنرى طيراس الذى يظهر أنه أسقط صفرا ربما بحجة عدم التوازن مع عدد القيروانيين تاريخ المغرب ج 1 ص 118)

(2) فى كتابه «تأسيس فاس» حيث اودع مجموع النقول المذكورة

(3) اشار اليه لافوا عام 1891 حسب برو فنصال وقد أشار الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقى الى سنة 185 هـ كتاريخ لبناء فاس فى جغرافيته .

مهبط الرواد من الشرق والاندلس ومركزا انشقت منه اول جامعة اسلامية فى العالم ·

وقد توفى المولى ادريس فى سن مبكرة عام 213 (1) شارقا بحبة عنب أودت بحياته التى كانت تبشر بازهر المنجزات ·

خلفاء المولى ادريس

ترك المولى ادريس عدة اولاد عهد من بينهم لمحمد الذى قسم المغرب بين اخوته استجابة لجدته كنزة فاختص القاسم بطنجة وسبتة وتطوان وقصرمصمودة ويحيى باصيلا والعرائش والبصرة وبلاد ورغة وعمر باقليم صنهاجة وغمارة وداود بهوارة والتسول وتازة ومراكز مكناسة وغياثة وعيسى بشالة وتامسنا الى ازمور وحمزة بوليلى وما والاها وعبد الله باغمات وجبال المصامدة ولمطة والسوس الاقصى · وظلت تلمسان فى حيازة بنى سليمان بن عبد الله بينما احتفظ المولى محمد بحاضرة فاس مع كفالة صغار اخوته (2) ويظهر من هذا التقسيم ان المملكة الادريسية شملت معظم المغرب وفى ضمنه قسط كبير من الاطلس (3) ·

غير ان هذه التجزئة مالبثت ان فتت فى عضد الوحدة حيث ثار عيسى على اخيه محمد الذى امر القاسم بقمع الثورة فامتنع وتصدى لذلك عمر وضم الى امارته الاقاليم الخاصة لاخويه عيسى والقاسم فجمع بين مراكز تمتد من

---

1) وقد اكد البرنسى (الاستقصا 1 ص 75) انه توفى بوليلى ودفن الى جنب ابيه ·

2) هنالك فرق بين رواية البكرى ورواية ابن خلدون وقد اعتمدنا على الثانية التى ضخمت امارتى داود وعبد الله وقد زاد صاحب القرطاس اسما آخر هو احمد ضم اليه فازاز ومكناسة وتادلة كما اضاف الى حمزة ناحية تلمسان ·

3) ولكن لا ذكر لما وراء ازمور من سهول الاطلنطيك الا ما ورد فى عبارة تاريخ ابن خلدون « واختص عيسى بشالة وسلا وازمور وتامسنا وما الى ذلك من القبائل (مجلد 4 ص 28 طبع لبنان)فهل يدخل ما وراء ازمور تحت قوله « وما الى ذلك من القبائل » وقد أشار صاحب جذوة الاقتباس الى أن عمل الادارسة كان من السوس الاقصى الى وهران وفاس ثم البصرة (ص 110) ·

الريف الى نهر ام الربيع وقد اتسمت هذه المقاطعات بمناعة عسكرية وبنوع من الاستقرار حيث عقد لعلى عليها بعد وفاة والده عمر (220)هـ.

وبعد سبعة أشهر توفى محمد 221 هـ بعد أن عهد لابنه على الملقب بحيدرة وهو ابن تسع سنين فالتف حوله البرابرة وازدهرت الحياة وانتشر الامن فى عهده ازيد من اثنتى عشرة سنة ولما توفى (234هـ) تولى اخوه يحيى فازداد العمران نموا لا سيما فى فاس حيث انقلبت العدوتان البدويتان الى حاضرة مجهزة بالحمامات والدور التجارية ويظهر أن نطاقهما كان قد ضاق بالمهاجرين من افريقية والاندلس فانتشر الناس فى الارباض وبنوا دورا وسط الحدائق والجنان وفى هذه الفترة (245هـ) اسست أم البنين فاطمة الفهرية النواة الاولى لجامع القرويين وبعد سنوات اقامت اختها مريم مسجد الاندلس .

ثم خلف يحيى بن محمد ولده يحيى الثانى فعاث فسادا وراود فتاة يهودية دخل عليها الحمام فثار الجمهور بايعاز عبد الرحمن الجذامى ولجأ يحيى الى الاندلس حيث مات غما فى نفس الليلة واستولى الجذامى على الحكم فاستنجدت عاتكة بوالدها على بن عمر أمير الريف الذى هب بجيشه فمد نفوذه الى اقليم فاس لانقراض عقب يحيى وفى هذه الغضون ثار عبد الرزاق الفهرى أحد قادة الخوارج الصفرية بجبل مديونة جنوبى فاس فاحتل صفرو وزحف نحو المدينة وبعد قتال عنيف فر الامير على بن عمر وظل القيروانيون يقاومون وحدهم فاستدعوا يحيى بن قاسم العوام الذى هزم الخارجى الثائر وولى على عدوة الاندلس احد المهاجرين الربضيين ثم قاتل الصفرية واستمرت امارته بفاس الى 292هـ حيث قتل فانتصب بعده يحيى بن ادريس بن عمر الذى استصفى جميع الامارات الادريسية واخضعها لسلطته وقد امتاز هذا الامير بالحكمة والعدل وسعة الثقافة وتوطدت فى عهده الدولة الادريسية الموحدة :

مآثر الادارسة

وكان من بين القيروانيين والاندلسيين الذين نزحوا الى فاس ادباء وعلماء وتجار ومزارعون مهرة مالبثوا ان نشروا افكارا اقتصادية جديدة تمخضت عنها تدريجيا حركة تطورية حضارية طبعت مختلف مظاهر الحياة المغربية بطابع طريف لم يكن للقبائل عهد به فى مجتمعاتهم واقتصادياتهم لاسيما وان المغرب عرف لاول مرة بعد الفتح الاسلامى عملة وطنية موحدة سكت بفاس منذ عام

185 هـ وقد لعب الدرهم العربى دورا مهما فى المغرب قبل هذا العهد حيث عثر فى وليلى عام 1952 على مائتين وواحد وثلاثين درهما فضيا ودينارا ذهبيا يتراوح تاريخ ضربها بين سنتى 79و125هـ• وقد تحرر المغرب من القيود الجبائيةفتنفس الناس الصعداء وانطلق الاقتصاد من العقال الذى كان يخنقه فازدهر (1) وانتظم وأصبح«منطقيا قارا»(طيراس)وكان الاقتصاد فلاحيا فى جوهره : سوائم وزروع وفاكهة واذا استثنينا الصحراء القاحلة نجد ان الجنان والغابات كانت تغطى مقاطعات مترامية الاطراف حتى فى الاطلس الذى وصف ابن حوقل وابن خلدون ثرواته الضخمة وكان الطابع الحضارى يعوز المغرب لان المدن الازلية المتهدمة لم تكن من قبل حواضر متماسكة بلمجموعة دساكر، وقصور اللهم الا فىالشمال حيث احتذت مملكة نكور الغربية منذ أواخر القرن الاول بالحضارة المعمارية الاموية فقد اسس سعيد بن صالح بن منصور الحميرى امير نكور مسجدا عظيما مع مرافق اقتبس معالمها من جامع الاسكندرية •

وهكذا بدات النواة الحضارية العربية الاولى تتسرب الى المغرب منالشرق والاندلس •

---

1) يظهر ان التجارة مع الخارج كانت ايضا مزدهرة حيث اكد ابن خرداذبة فى القرن الثالث ان التجار الصقالبة الذين كانوا ينتقلون فى كثير عن مناطق العالم وصلوا الى السوس الادنى اى المغرب الشمالى عن طريق طنجة ومن هناك كانوا يتوجهون نحو افريقية ومصر •

الفصل الحادي عشر

المغرب بين الفاطميين والامويين

لما انقرضت امارة الاغالبة اواخر القرن الثالث بافريقية اسس الفاطميون بمساعدة كتامة أول دولة شيعية بالمغرب تأمرها عبيد الله المهدى الذى طمع فى مد شبكة نفوذه من افريقية الى المغرب الاقصى فوجه قائده مصالة بن حبوس المكناسى والى تاهرت عام 305 ه حيث عرج على مملكة نكور فى زحفه ضد فاس واصطدم بيحيى بن ادريس الذى تعزز جيشه بالعرب والبربر الاوربيين والموالى فانهزم الادارسة وانصاعوا لسيادة الفاطميين الذين تركوا يحيى بفاس وعقدوا على بقية المغرب لموسى بن ابى العافية المكناسىسيد التسول وتازة وقـد تأزمت العلاقات بين البرابرة فسعى موسى بخصمه لدى مصالة عند وروده على المغربمن جديد بعد أربع سنوات فخلعه ونفاه الى اصيلاومن هناكحاول التوجه الى افريقية للاتصال بالامام الفاطمى فقضى فى طريقه نحوا من عشرين سنة (1) بلغ بعدهـا المهدية حيث مات أيام حصار ابى يزيد (بوحمارة) اليفرنـى الخـارجى لهـا (332ه) .

الادارســة بالجبــل

وفى هذه الفترة (310ه) ثار بفاس الحسن الحجام حفيد القاسمبنادريس

1) يقال بأن موسى سجنه طوال هذه المدة

فاجلى عاملها ريحان واستعاد نفوذ الادارسة من فاس الى البصرة وقاتل ابن ابى العافية فانتصر عليه مرارا ولكنه انهزم فى الاخير والتجأ الى فاس حيث غدره عامله الاوربى بعدوة القرويين معتزما تسليمه لموسى ثم بدا له فسرح الحجام الذى توفى من جراء جروح بعد فراره(313هـ) (1) واستعاد موسى المدينة ونكل بانصار الادارسة الذين اجلوا الى قلعة النسر بالجبل ثم ملك تلمسان ونكور وامارة بنى عصام بسبتة فانتظم المغرب والجزائر تحت نفوذه

غير انه ما لبث ان انضم الى الدولة الاموية بالاندلس فدعا للناصر منتقضا على الفاطميين الذين جهزوا جيوشهم لمحاربته بقيادة حميد المكناسى أخى مصالة وظل المغرب يتأرجح بين الشيعة والامويين فى معارك موصولة ادلى ادارسة الجبل بدلوهم فيها الى ان مات ابن ابى العافية (350هـ) وانقرضت دولته بعد زهاء عشر سنوات وكان ميسور الخصى قد اقصى موسى وذويه عن فاس الى الصحراء منذ عام 323 هـ فى حين اقام الادارسة بالريف وتوالى أمراؤها على معظم المغرب فملك القاسم كنون أخو الحسن الحجام (337هـ) ثم ولده أبو العيش ثم احمد الفاضل الذى مال الى المروانيين فاضطر الى التنازل لعبد الرحمن الناصر عن طنجة بعد سبتة فانحاز الى البصرة وولى الناصر على فاس اميرا مغراويا لما اظهرته زناتة من انحياش الى الامويين كما ولى زناتيا من بنى يفرن على طنجة وقد استشهد ابو العيش فى الجهاد بالاندلس (348هـ)

جـوهـر الصقلى وانقراض الادارسـة

وكان رد فعل المعز الفاطمى ضد انضواء المغرب تحت راية الامويين توجيه قائده جوهر الصقلى فى عشرين ألف فارس من كتامة وصنهاجة عام 347هـ فاصطدم فى تاهرت بيعلى اليفرنى والى طنجة الذى قتل فى التحام عنيف (2) ثم توجه الى سجلماسة واميرها اذ ذاك ابن مدرار الشاكر لله الذى اعتنق المذهب المالكى ونحى الصفرية ـ فحاصرها واسر الامير المدرارى وزحف نحو فاس (349هـ) فاقتحمها

---

1) فى هذه السنة ظهر فى غمارة حاميم المتنبى الذى اختلق قرآنـا وسن شرائع على نمط البرغواطيين فقتله جيش الناصر الامـوى بقصر مصمودة بعـد سنتين من ظهوره .

2) ويرى ابن خلدون أن يعلى أذعن منذ البداية لجوهر الذى دس من اغتاله فاتخذ بنو يفرن ولده أميرا .

بمساعدة زيرى بن مناد الصنهاجي وهدم الاسوار وقبض على احمد الزناتي والى الناصر الاموى ونهب ونكل ثم انتشرت جيوشه طوال ثلاثين شهرا فى كثير من انحاء المغرب لبث الدعوة العبيدية عائدا بعد هذه الحملة الارهابية الى المهدية دار الخلافة المعزية (I) .

وقد منى الحسن كنون الذى خلف اخاه ابا العيش فى حاضرة البصرة بمحنة قاسية تارجح فيها بين مبايعة العبيديين ثم الانتقاض عليهم والدعوة للناصر والحكم المستنصر ثم الرضوخ من جديد لقائد الفاطميين بلقين بن زيرى ومواجهة الثار الاموى فى حرب عارمة شب اوارها باحواز طنجة عام 362 هـ فقتل فيها القائد المروانى محمد بن طملس وامد الحكم الفلول المنهزمة بمولاه غالب ففر الحسن الى حجر النسر قرب سبتة حيث حوصر ونقل مع اهله والامراء الادارسة الى قرطبة وانصاع المغرب من جديد للنفوذ الاموى .

ولكن الحكم مالبث ان اجلى الحسن وعشيرته الى مصر فنزل بها على نزار ابن المعز العبيدى حيث أقا ممن عام 365 هـ الى 373هـ فعقد له على المغرب وأمر عامله بافريقية بلقين بامداده بالجيش للعودة الى بلاده حيث التفت حوله كثير من القبائل فاوفد المنصور بن أبى عامر القائد عسكلاجة ثم ولده عبد الملك فاستأمن الحسن ونقل الى الاندلس فقتله المنصور فى الطريق (375هـ) وكان آخر الملوك الادارسة بالمغرب حيث استمر حكمهم زهاء مائتى سنة غير أن النفوذ الادريسي وجد نوعا من الانتفاض فى الاندلس فى شخصى على والقاسم ابنى حمود (سبط عمر بن ادريس) اللذين ساهما فى الاضطرابات التى أدت الى سقوط الدولة الاموية وقيامهما فى مالقة علاوة على طنجة وغمارة وقد خلع الحموديون على انفسهم لقب الخلافة واندرجوا بعد ذلك فى سلك ملوك الطوائف وكان سكوت البرغواطى عاملا من طرفهم على طنجة حيث سيقتله المرابطون .

الامارة الزناتيــــة

وكان الامير اليفرنى من بين زعماء البربر الذين انقادوا للحسن كنون بينما انضم المغراويون الى خصومه العامريين الذين ولوا على البلاد بعد نكبة

(I) ومعه أسيران هما أحمد الزناتي والشاكر لله اللذان ماتا فــى سجن المهدية .

الادارسة الوزير الحسن السلمى (381هـ) (1) فبنى وجدة (384هـ) واتخذها حاضرة ملكه وتأزمت روابطه بالمنصور فطرد عماله من المغرب وجهزت قرطبة جيشا بقيادة واضح هزمه زيرى فتوافدت الامدادات بامارة عبد الملك المظفر بن المنصور واستعرت الحرب قرب طنجة كانت الغلبة فيها للعامريين الذين تعقبوا زيرى الى مكناسة ففر منها الى فاس ثم الى الصحراء وانفسح المجال أمام المظفر الذى اقتحم العاصمة الادريسية (387هـ) فهش اهلها فى وجهه وانعقدت امارته على المغرب فى تلك الفترة كان زيرى قد زحف على تاهرت وتلمسان ودعا للمؤيد هشام الاموي سجين المنصور وتوفى فى حصاره لأشير (391) فخلفه ابنه المعز الذى انصاع للعامريين فنصبه المظفر بعد وفاة والده اميرا على المغرب (393هـ) ثم استقام الملك لابن عمه حمامة بن المعز بن عطية (422هـ) وكانت مراسم الخلافة قد اختلت بالاندلس (2) فاستقل المغراويون بالحكم ولكن اليفرنيين طفقوا يناوئونهم اذ لم تمض سنتان على سيطرة حمامة حتى زحف ابو الكمال تميم نحو فاس وهزم الامير المغراوى واستولى على كثير من النواحى المغربية فاستنفر حمامة فى وجدة وتنس بالمغرب الاوسط حشود الزناتيين وعاد الى فاس (429هـ) فجلا عنها خصمه نحو مقر امارته بشالة من حيث واصل جهاده ضد البرغواطيين

وخلف حمامة نجله دوناس الذى انتصر على ابن عمه حماد عام 435 هـ فانتشر الامن والرخاء واتسعت ارباض فاس ونما عمرانها وانتجعها التجار وبعد وفاته (452هـ) تنازع ابناه الفتوح وعجيسة فتطاحنت العدوتان واختلت موازين الاقتصاد المغربى من جديد بانتشار الاضطراب وانتهت الحروب بتنحية الفتوح وهنا ظهر اللمتونيون وتزايد الهرج بزحف امير قلعة بنى حماد الجزائرية ضد

---

(1) فى محاربة الامير اليفرنى المذكور يدو بن يعلى الذى كان على شالة وسلا وتادلا وتنافس السلطة بفاس مع زيرى حتى قتله هذا الاخير عام (383هـ) فصفا له ملك المغرب .

(2) انهارت الدولة الاموية بالاندلس عام 407 هـ تحت ضربات الدويلات المسيحية مثل قشتالة ونافار وبرشلونة وقيام ملوك الطوائف على اثر اختلاس العامريين للحكم على أن محاربة الشيعيين فى افريقيا الشمالية عجلت بتفوق الحكم المروانى رغم احتلال مراكز مغربية مثل سبتة وطنجة ومليلية والتحالف مع خصوم العبيديين من البربر كمغراوة الذين ظلوا على حسن العهد للخليفة عثمان فى شخص الامويين .

المغرب (454هـ) فتنازل الفتوح من تلقاء نفسه عن العرش وتأمر معنصر بن حماد مواصلا نضاله ضد يوسف بن تاشفين الذى قتله فى حصار فاس (460هـ) غير ان الفاسيين تابعوا محاربة الدولة الناشئة فنصبوا تميما خليفة عن والـده وكابدوا الامرين من حصار موصول تخللته فتن ومجاعات وكان ابن تاشفين منهمكا ءانذاك فى فتح غمارة ولكنه مالبث ان اقتـحم فاسـا (462هـ) ونكـل بالمغراويين واليفرنيين وفى ضمنهم تميم الذى انقرضت بهلاكه الدولة المغراوية بعد ان استمر نفوذها نحوا من مائة سنة ٠

وهكذا يتجلى من هذه الفذلكة الصاخبة أن المغرب عرف بين انهيار حكـم الادارسة بفاس وقيام المرابطين فترة استمرت نحوا من مائة واربعـين سـنة اتسمت بشيء غير قليل من اللبس والغموض اذا قورنت بالعصور التاريخية (1) الاخرى نظرا لتوالى التقلبات تحت تأثير الغارات المتلاحقة من طرف الفاطميين والامويين وتجاذب هؤلاء للادارسة والعافيين والزناتيين فى خضم من الفوضى العارمة التى جعلت المغرب احوج مايكون الى زعيم صالح يوحد البلاد وينشر الامن والرخاء مثل ابن تاشفين ٠

---

(1) هذه الفترة هى التى عناهـا كوتيبى فى كتابه « العصور الغامضة بالمغرب»

الفصل الثاني عشر

المرابطون

مرت أربع قرون على الفتح العربى ظل المغرب موسوما خلالها علاوة على الطابع الاسلامى الجديد - بتقسيمات قبلية تجاذبت اقاليمه المترامية على نسق موصول لم يطرأ عليه تعديل محسوس وبالرغم عن غموض المؤرخين يمكن ان نستخلص من مقارنة النصوص ان القبائل الكبرى التى عرفها المغرب قبل الاسلام مازالت تحتفظ باعصاب جاهلية تلقى اضواء كشافة على الانقلابات السياسية التى سيعرفها المغرب أزيد من ثلاثة قرون تداولت فيها تلك الفصائل السلالية حكم البلاد ضمن نعرة قبلية واضحة فالمصامدة شكلوا اغلبية سكان الاطلس الكبير مع قسم من الغرب فى حين استوطن الصنهاجيون الاطلس الصغير وجنوبى السوس الى درعة والواحات الصحراوية على ان التزاوج نمى مع الزمن تداخل العنصرين المصمودى والصنهاجي لاسيما فى التخوم الفاصلة بين الاطلس والصحراء أما الزناتيون الذين قام اليفرنيون والمغراويون منهم بدور سياسى خلال القرن الماضى فقد انتشروا فى السهول مع بنى فاتن فى الجبال الشمالية ومكناسة بالملوية وتازة واما العرب فقد انتشرت فلولهم القليلة فى الريف والصحراء وبعض الحواضر مثل سبتة وفاس وسجلماسة والملاحظ ان المناطق التى كانت مناط الهجرة العربية كشمال المغرب منذ قيام مملكة نكور أواخر القرن الاول والواحات منذ تسرب الخوارج العرب الى صحراء تافيلالت - أصبحت نواة للامتزاج السلالى بين القبائل البربرية الثلاث من جهة والشرقيين من جهة

ولم يقم الفاتح العربى بأى مجهود موصول لاقرار اللغة العربيـة اللهم الا عن طريق تدريس القرآن ونشر الفقه باستثناء المراكز التى استتب فيها نفوذ بنى صالح وبنى ادريس فى الشمال الى فاس ولكن هذه الشبكة ستمتد جذورها فى أغلب الحواضر فى العهـد المرابطى حيث ستصطبـغ الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصادية وحتى الفكرية بطابع طريف لم يكن للمغرب به عهد قبل ان تتطور المبادلات فى القرن الخامس بين العدوتين بقيادة اللمتونيين .

نشـــأة المرابطـــين

المرابطون ينتسبون الى صنهاجة . البرنسية التى تشكل نحو ثلث البربر والتى يندرج فيها نحو سبعين قبيلة منبثة فى جميع أنحاء افريقيا الشمالية لاسيما الجنوب الاقصى للسودان وقد سبق للصنهاجيين أن أسسوا دولة بنـى زيرى فى افريقية كما قام فى الصحراء المغربية من اللمتونيين امراء توارثـوا الرياسة بعد الفتح الاسلامى ونشروا الدين الجديد الى تخوم السودان وانبرى منهم محمد بن تيفاوت الذى خلفه يحيى بن ابراهيم الكدالى الى عام 427 حيث استخلف ولده الامير ابراهيم وارتحل الى الحج فاتصل فى طريق العودة فى القيروان بابى عمران الفاسى ورجامنه تزويده بعالم لنشر تعاليم الاسلام فى الصحراء المتعطشة الى التفقه فى الدين فاستعصى ذلك على تلاميذه ولكن ابا عمران دله على تلميذ له بالاطلس الكبير هو واجاج بن زلو اللمطى الذى كانت له مدرسة فى بلد نفيس فانتدبهذا العالمالمصمودى تلميذه عبد الله بن ياسين الجزولى الذى صحب الامير الصنهاجي الى الصحراء حيث دعا الى القرآن والسنة واقام معالم الدين وآداب الشريعة فاستصعب الناس هذه المثالية لما جبل عليه طبع الصحراويين آنذاك من انسياق معالغرائز والاعراف المسفةفانحاز الرجلان (I) الى جزيرة قرب مصب نهر النيجر مع سبعة من الكداليين من بينهم أبو بكر ابن عمر فبنى رابطة ما لبثت أن أصبحت بعد بضعة أشهر مهبطا لرواد تزايـد عددهم فبلغ الالاف سموا بالمرابطين اضطلعوا بمراسم الدين وفقه السنة فتكونت منهم اطر عملية للدعوة وعاد كل رجل الى عشيرته يحمل رسالة خالدة هـى تحقيق الاصلاح ولكن هذه المامورية التى عزرها ابن ياسين بدعوة شخصية

I) يرى ابن خلدون ان اعتزال ابن ياسين فى الرابطة كان بعد وفاة يحيى الكدالى .

لم تؤت أكلها فتقرر نشر السلغية بالجهاد وانصاعت القبائل وطبقت بنود الشريعة وتأسس بيت المال من موارد الزكوات والاعشار وتشكلت جيوش مجهزة بالعتاد الوافر غزت الفيافي ونشرت الهدى والرشاد .

ومالبث يحيى بن عمر اللمتوني ان انتصب بدافع من ابن ياسين خلفاالابن ابراهيم المتوفى وكان ابن ياسين هو المتصرف الحقيقي في جميع شؤون الدولة من اقتصاد وسياسة تاركا قيادة الحزب للامير اللمتوني الذى اعتز سلطاتـه بامتلاك عموم الصحراء واقتطاع اطراف السودان واستنجاد درعة وسجلماسة (445 – 447 هـ) بالزعيم المرابطي ضد عسف المغراويين الذين قتـل اميرهـم مسعود بن وانودين واستؤصلت معالم الفساد واللهو واسقطت المكوس والمغارم

وفي اوائل عام 448هـ تولى الامارة ابوبكر بن عمر فغزا السوس في جيش كثيف تصب على طلائعه ابن عمه يوسف بن تاشفين فاقتحم ماسة وتارودانت حيث طهر الاقليم من فلول الرافضة البجلية (1) التي لجأت الى هذه الناحية عند ظهور العبيديين وكان ابن ياسين ينصب العمال حيثما حل للسهر على تنفيذ السياسة الاسلامية الجديدة .

وواصل الجيش زحفه الظافر نحو الاطلس فاحتل كثيرا من مراكزه مثل نفيس وأغمات (449هـ) وكانت هذه تحت لقوط المغراوى الذى التجأالى اليفرنيين بتادلا ولم يلبث ابن ياسين ان احتل هذا الصقع فقتل لقوطا وزف زوجه زينب النفزاوية الى الامير ثم فتح تامسنا بعد أن خاض حربا عوانا ضد البرغواطيين (2)

---

(1) نسبة الى علي بن عبد الله البجلي .

(2) زعم بعض المؤرخين أن صالح بن طريف البرغواطي يهودى نشأ فـي حصن برباط بالاندلس وقرأ في الشرق على عبيد الله المعتزلي ثم عاد الى تامسنا لنشر دعوته وقدرد ابن خلدون هذه النظرية مؤكدا ان البرغواطيين مصامدة وقد التف البربر بتامسنا حول صالح 125 هـ في خلافة هشام بن عبد الملك ابن مروان بعد ثورة البربر بايعاز الخوارج وقد شهد صالح مع أبيه طريف حروب ميسرة المضغرى الصفرى وتوجه الى المشرق عام 174 هـ وخلفه ولده الياس الى عام 224 هـ ثم يونس الذى يقال بانه احرق 380 مدينة في تامسنا وما والاها في المعارك التي واصلها لنشر تنبؤاته ثم حج ومات عام 268هـ وتولى بعده قريبه ابوغفير الذى تزوج باربع واربعين امرأة وملك 29 عاما وخلفه ولده ابوالانصار عبد الله عام 341 ثم ابنه عيسى أبو المنصور الذى قتله بلقين بن زيرى (369 هـ)

الذين سبق ان ذاقوا الامرين من قتال بني زيري والعامريين واليفرنيين الى ان هزمهم ابو الكمال حوالى 420هـ في تامسنا ولكن فلولهم ظلت قائمة حتى هب لقتالها المرابطون فدارت معارك ضد اميرهم ابى حفص عبد الله البرغواطي واستشهد عبد الله بن ياسين ودفن بكريفلة بزعير (حوز الرباط) عام 451 هـ وقد جدد أخيرا المسجد المقام على قبره ولم يقر بعد ذلك قرار للامير أبى بكر حتى محا معالم البرغواطية ونشر الاسلام بين منتحليها ثم عاد الى عاصمته اغمات للاستجمام قبل استئناف الغزو لاحتلال فازاز ومكناسة ولواته (شرقي صفرو) وجميع السهول اليفرنية .

ظهور ابن تاشفين

وقد بلغ الامير ابا بكر اضطراب شؤون الصحراء فاعتزم العودة لاقرار نظامها 453هـ) وانخلع من عصمة زوجه الجميلة زينب النفزاوية رفقا بها من زمهرير الفيافي فتزوجت بايعازه يوسف بن تاشفين المستخلف بالمغرب الاقصى بينما اتجه هو لاستكمال غزو السودان (الى ان مات بادرار علم 480 هـ) (1).

ولم يكد المرابطي الاول يستقل بالامر حتى رتب جيوشه في فرق اربع (2) جعل منها طلائع لتمهيد البلاد وما لبث أن نقل حاضرة ملكه الى مدينة جديدة اشرف على تخطيطها هي مراكش (454هـ) واختيار هذا الموقع ينم عن روح صحراوية وعن حاسة استراتيجية لانه مفترق طرق الاطلس والصحراء وقد حل المرابطون مشكل الماء بالخطارات التى ساعدتهم على غرس النخيل وكانت فى البداية معسكرا بسيطا ولكنها استحالت تدريجيا الى حاضرة بمساجدها وقصرها (دار الحجر) وقد عزز الزعيم الصحراوى هذا الجهاز الحضارى بعمال نصبهم فى الاقاليم ومظاهر جديدة كالاعلام والطبول العسكرية .

---

1) عاد ابوبكر مرة ثانية الى المغرب فاقتبله يوسف بالجيش والهدايا مشعرا اياه باستقلاله فلم يسع الامير الصحراوى الا أن عاد ادراجه بعد توليـة ابن عمه نهائيا على المغرب .

(2) جعل على كل منها قائدا من بين القواد الاربعة وهم سير بن ابى بكر اللمتوني ومحمد بن تميم الكدالي وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني وعدد جنود الفرقة خمسة آلاف واحتفظ هو بقيادة نصف المجموع وهو عشرون الفا وما لبث هذا العدد ان ارتفع الى مائة الف فى ضمنهم الاغزاز المشارقة .

وكان البرغواطيون قد استؤصلوا فاتجه ابن تاشفين نحو قلعة فازاز أو قلعة المهدى وهو مهدى بن تولى اليحفشى فاحتلها وكانت مكناسة قد انصاعت فاستنجد به أميرها الكزنائى ضد المعنصر المغراوى بفاس التى حوصرت بدون جدوى غير ان ابن تاشفين استأنف حصارها بعد فتح صفرو فاقتحمها عام 455هـ واتخذها مركزا لغاراته على الشمال فاستولى على غمارة،وكان سكوت البرغواطى قد استقل فيها عن بنى حمود الادارسة غير ان الزناتيين ظلوا شوكة فى ظهر المرابطين فاستعاد معنصر (اوابنه تميم) مدينة فاس وهزم الكزنائى وتحالف مع سكوت فلم يكن من المرابطين الا أن رجعوا من غمارة الى حصار فاس وقتلوا تميما فخلفه القاسم (من سلالة ابن العافية) الذى هـزم المرابطين فخف ابن تاشفين من فازاز (1) وعزل المدينة بمواصلة احتلال الاقليم واخضاع بنىمراسن وفندلاوة وورغة الى عام 458 هـ وبعد ان استولى على غمارة من الريف الى طنجة (عدا سبتة) فى عراك استمر سنتين (458ـ460هـ) عاد الى فاس 462هـ فقتل بها المغراويين واليفرنيين والمكناسيين وهدم الاسوار الفاصلة بين العدوتين وأقام سورا واحدا كما اسس المساجد فى كل حى وكذا الحمامات والفنادق والارحاء ورتب الاسواق وركز الحامية المرابطية فى قلعة جديدة هى قصبة بوجلود (أبى الجنود) ٠

وهكذا تركز نفوذ المرابطين بالمغرب الاقصى على دعامتين هما تاسيس مراكش واحتلال فاس ومن هاتين القاعدتين سينطلق الزحف بعد اعادة ارضاخ غمارة نحو المغرب الاوسط والاندلس فى حركة ظافرة ما لبثت ان وحدت العدوتين من السودان الى قشتالة الى طرابلس ٠

فتح المغرب الاوسط

وفى عام 470 هـ اعتزم ابن تاشفين الجواز الى الاندلس استجابة لصرخة المعتمد بن عباد غير أنه أبى الا منازلة سكوت لتحرير سبتة وما انتقض من غمارة فالتحم الفريقان فى احواز طنجة ودخل القائد صالح بن عمران الى المدينة وقتل سكوت واعتصم ولده يحيى بسبتة ٠

وفى عام 472 هـ زحف القائد مزدلى بن تيلكان نحو المغرب الاوسط حيث

---

1) واصل الجيش المرابطى حصار هذه القلعة تسع سنين الى ان استولى عليها عام 465هـ

جال فى فيافيه متعقبا قبائل زناتة وقتل نجل امير تلمسان المغراوى دون ان يتمكن من احتلال المدينة وفى العام التالى فتح ابن تاشفين اكوسيف ومليلية واستكمل احتلال الريف فهدم نكور التى لم يقم لها بعد ذلك عمران وهنا اتجه يوسف شخصيا نحو المغرب الشرقى فاقتحم وجدة واقليم بنى يزناسن وتلمسان مستأصلا شافة المغراويين وقد أحال هذه العاصمة الزناتيــة الى ثغــر محصن واختط باعلاها مدينــة تاكرارت (اى المحلة) وهى تلمسان الحالية وســارت الجيوش المرابطية من نصر الى نصر موالية فتوحها لتنس ووهران وونشريس الى عاصمة الجزائر وبذلك اقتسم الصنهاجيون افريقيا الشمانيــة فاحتفــظ الحماديون وبنو زيرى بالشرق موقتا وناب الغرب المرابطين .

وفى هذه الفترة كان المسيحيون يقتطعون فى الاندلس الممالك الاسلامية التى انصرمت وحدتها بقيام ابن عباد فى اشبيلية وابن الافطس ببطليوس وابن ذى النون بطليطلة وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامرى بدانية وكان الفنش قد دوخ هذا العام (475هـ) معظم الاقاليم فى تخريب وتقتيل أثار الرعب فى النفوس وحدا بعض الامراء الى التنازل لدفع الجزية وسقطت طليطلة فى قبضة الافرنج والجلالقة(477هـ) بعدحصار استمر سبع سنين فكان الاستنجاد اجماعيا من طرف الامراء والعلماء والشعب بالبطل المرابطى الذى هب لانقاذ الاسلام من هذا الخطر الداهم بعد ان احتل نجله المعز مدينة سبتة بمساعدة اسطول ابن عباد (477هـ) وقتل يحيى بن سكوت البرغواطى فانفسح المجال لجــهاد المسيحية بالاندلس .

الفصل الثالث عشر

الاندلس والحضارة البربرية

خف ابن عباد لمقابلة (1) ابن تاشفين بالمغرب بعد ان استكمل وحدة العدوة الجنوبية واستنصره للمرة الثانية على المسيحيين جاعلا رهن اشارته الجزيرة الخضراء ليتخذها مقرا ترابط فيه جيوشه وكانت سبتة قد إنصاعت فعزز الامير المرابطي جهازها وتوافدت عليه فيها كتائب المجاهدين فأجاز بها الى الاندلس (479هـ) اقتبله بعض أمرائها كالمعتمد وابن الافطس وكان الادفونش (الفونس السادس) في حصار سرقطة فهاله زحف المرابطين واستنفر القشتاليين والجلالقة لمحاربتهم (2) وكان المعتمد قد تقوى بهذه النجدة فطاول الامير الاسباني (3) الذى تلقى من الزعيم المرابطي توقيعا على ظهر رسالة وجهها اليه «الذى سيكون ستراه» وانصبت جيوش الاندلس بامرائها وفي طليعتهم

---

1) هذه المقابلة تمت حسب ابن خلدون في فاس وحسب غيره في طنجة وهو المرجح .

(2) لاحظ ابن الاثير وابن خلكان وابن عبد المنعم الحميرى ان ابن تاشفين كان معتزما احتلال الاندلس وان ملوك الطوائف استصعبوا مدافعته لا سيما وانهم كانوا يواجهون خطر الغزو المسيحي والرواية المرجحة هي التى أشرنا اليها نقلا عن ابن خلدون .

3) الذى رفض قبول الجزية وطالب بأن تلد زوجته في جامع قرطبة فانصاع المعتمد لابن تاشفين قائلا قولته المشهورة «رعي الجمال خير من رعي الخنازير» (الروض المعطار) .

المعتمد للقاء ابن تاشفين فى هدايا وتحف جزيلة فتم الاتفاق على تصميم الهجوم وانبرى القائد اللمتونى داود بن عائشة فى عشرة آلاف فارس يتقدمهم المعتمد وابن صمادح (المرية) وابن حبوس (غرناطة) وابن مسلمة (الثغر الاعلى) وابن ذى النون وابن الافطس وغيرهم يتولى الجند على المراحل والمنازل حتى حلوا بعد استراحة فى طرطوشة أمام بطليوس بالزلاقة (تعرف اليوم بسكراخة) فكان بين الجيشين المرابطى والاندلسى ربوة وبينهما وبين العدو نهر بطليوس واستعد الفريقان للقتال فبادر الادفونش باعلان تأخير الملحمة من الخميس الى الاثنين معتزما اخذ المسلمين على غرة يوم الجمعة (منتصف رجب) فلم تنطل الخدعة على ابن عباد الذى غشيه الخصم من عدة جهات فاستحر القتل وصمد المسلمون فى استبسال نادر مافتىء داود بن عائشة ان كشف غمته فى طفرة عارمة عقبها ظهور يوسف فى طبوله الصاخبة وجماله التى استنفرت خيول الخصم فوقع الاذفونش بين اصدمات وادلهم الجو وانتظمت صفوف المسلمين فى حملة صادقة منسقة إنكفأ من جرائها العدو منهزما وأميره يخمع من طعنات الحراب وقد كاد النزال يسفر عن كارثة لولا انقضاض انجاد صنهاجة الذين اقتحموا محلة الاذفونش وقتلوا حاميتها وعمد ابن تاشفين الى خطة العرب فى العراك فوالى الكر فى حرب باردة ما لبث اوارها أن اشتعل عندما تدخلت آلاف الصحراويين بالدرق اللمطية والمزراق والسيوف تدأدأ من ضرباتها فرسان الافرنج فى ساعة كان اذان الجمعة يدوى فى العدوتين داعيا بالنصر للمجاهدين وفرت فلول الاسبان منسابة فى اعقاب اميرها الذى افلت فى جنح الظلام مخلفا فى محلته الرياش الناعمة والاوانى والاسلحة واعلن النصر وتعانق يوسف وابن عباد متبادلين التهنئة والدعاء لحسن البلاء وعزف أمير المسلمين ـ وهو لقب منحه منذ ذلك اليوم ـ عن المغانم والاسلاب التى تركها فيئا للامراء وكانت فرحة عارمة فى افريقية والمغرب والاندلس بهذا الظفر الذى اعاد للاسلام صولته بعد ان اوشك على التفكك فى طريق الانهيار وعاد يوسف الى العدوة على اثر وفاة ولى عهده ابى بكر ـ بعد ان عرج على ظاهر اشبيلية معززا جانب المسلمين بحاميات قوامها ثلاثة ءالاف جندى صدا لعدوان محتمل من العصابات المنكسرة (1) وظلت طليطلة فى قبضة القشتاليين بعد ان سلمها اميرها القادر للفونس فاتحا بذلك اولى الثغرات فى صرح الامبراطورية الاسلامية الجديدة غير ان العدو بدأ يجمع

---

(1) اختلف المؤرخون فى عدد القتلى الاسبان فاوغل البعض حين اوصلهم الى 120.000 مقابل ثلاثة آلاف من المسلمين ويؤكد ابن خلكان أن سيرا اللمتونى قام على رأس الحاميات المرابطية بغارات فى اقليم الاندلس وحده بينما اخلد امراء الطوائف الى الراحة والرغد من جديد .

شتاته من جديد لان امراء الاندلس ركنوا الى الراحة والتواكل وغامر بعضهم بحياكة الدسائس مع المسيحيين مما شجع الادفونش على استيناف هجماته ضد شرقي البلاد وتعزيز حماية بلنسية حيث ظل القادر محميا للفونس بينما وجه الجنرال كارسيا من حصن لبيط بالجنوب تهديداته ضد مرسية وغرناطة وهكذا توالت الحملات على امارة ابن عباد فاستنجد من جديد بابن تاشفين عابرا اليه ثانية (481هـ) (1) من القصر الصغير (قصر المجاز) الى الجزيرة الخضراء من حيث دعا الامراء الى الالتقاء بحصن لبيط فلم يلب سوى المعتمد وابن عبد العزيز صاحب مرسية واستمر الحصار اربعة اشهر انبثق في غضونها نزاع بين ابن عباد وابن عبد العزيز فخلع يوسف هذا الاخير واختل الوضع بفرار انصار الامير المعزول وقواده وقطعهم المؤن عن الجيش المحاصر فلم يسع الزعيم المرابطي امام احتشاد نجدات الاذفونش الا ان ينحاز الى لورقة ثم المرية والعودة الى المغرب وكله حنق على الامراء المتخاذلين فازداد يقينا بالخيانة والتواطؤ الذين بدرت اعراضهما من بعض ملوك الطوائف وقر عزمه بعد استفتاء العلماء في الشرق والغرب على تطهير الاندلس من الارجاس التي تضافرت الجماهير على بغضائها وذلك في جواز ثالث (عام 483هـ) اكتسح خلاله طليطلة حيث حاصر الاذفونش وشن الغارات بالاطراف دون ان يهب احد من ملوك الطوائف لمساعدته فنما غيظه ونازل عبد الله ابن بلكين أمير غرناطة الذي ظاهر الاسبان على المرابطين فاستامن من بعد شهرين ونقل مع اخيه تميم صاحب مالقة الى مراكش فتزايد هلع الامراء ووطدوا احلافهم مع المسيحية بعد ان توتر الحبل مع ابن عباد فعاد أمير المسلمين أدراجه الى المغرب في بحبوحة رمضان بعد أن قام سير اللمتوني واليا على الاندلس.

وازاء هذه الفوضى التي اخلت بحمى الإسلام وعرضت المسلمين الى المحق هب سير في حركة عنيفة ضد بني عباد فقتل المامون بن المعتمد امير قرطبة واحتل المدينة (484هـ) واتبعها بفتوحات متلاحقة لبياسة وأبدة وشقورة وقرمونة ثم حاصر اشبيلية فاستغاث المعتمد بالفونس السادس الذي أنجده بقائده القومس (الفارهانيز) وبآلاف الجند واستمر العراك قرب حصن المدور واقتحم المرابطون اشبيلية (رجب 484هـ) ونقلوا المعتمد وعائلته اسارى الى مراكش ثم

---

(1) ذكر ابن خلدون أن الجواز الثاني تم 486 هـ وان تثاقل أمراء الطوائف عن لقائه يرجع الى تكثيره عليهم ضرب المكوس وظلم الرعية ثم تم الجواز الثالث 490 هـ .

اغمات حيث مات بعد بضع سنوات (II شوال 488هـ) ومازال قبره الى الآن باديا للعيان مع زوجته اعتماد الرميكية وقد واصل سير زحفه فاحتل بطليوس وقتل ابن الافطس (489هـ) واستولى على معظم بلاد الاندلس باعلنة الامير يحيى بن ابى بكر بن يوسف (493هـ) وبعد اربع سنوات قام ابن تاشفين بالجواز الرابع (497هـ) الى الاندلس(I) وكان صيته قد ذاع في العالم الاسلامي حتى هم الغزالى بالوفادة اليهومع ذلكظل متشبثا بالخلافة الاسلامية حيثدعالاحمد المستظهر (2) بالله واوفد اليه عبد الله المعافري وولده القاضى أبا بكر ليعقد له على المغرب والاندلس حيث امتد نفوذه من اقصى الشرق الى اشبونة ومن جزائر بنى مزغانة الى السودان وكان الجنرال المسيحى رودريك المعروف بالسيد قد تنازع مع الادفونش فاحتل قسطا من ساحل المتوسط وفتح بلنسية حيث قتل اميرها القادر محيلا جامعها الى كتدرائية ولكن ابن تاشفين الذى هزم الجيش القشتالى قتل دييكو نجل السيد وتابعحملاته ضد الاسبان الى ان مات السيد منهوك القوى (عام 1099م) فحاصر المرابطون المدينة التى دافعت عنها جيمنا زوجة السيد ثلاث سنوات الى ان اضطرت الى الاستنجاد بقريبها الفونس الذى ساعدها على الفرار بعد ان ترك المدينة مفتوحة امام اميرها مزدلى الذى اسهم بحظ وافر فى تحرير برشلونة وباقى الاندلس .

على بن يوسف : ومات يوسف أوائل 500هـ فقام على بعهده من والده وعمره ثلاث وعشرون سنة وبايعه اخوه تميم وتوافدت القبائل لتهنئته بمراكش من مجمع انحاء الامبراطورية عدا فاس التى انتقض بها يحيى بن ابى بكر ولكنه اضطر الى الفرار بعد زحف عمه ثم استأمن بتدخل المزدلى والى تلمسان فنقل الى الصحراء ثم الى الجزيرة الخضراء حيث مات وكان الامير الجديد اندلسى التكوين ربى فى سبتة وعاش معظم حياته فى اسبانيا .

وقد ولى تميم امارة الاندلس واستقر فى غرناطة فاستحرت بينه وبين الاسبان عام 502هـ وقعة افليج حيث اصطدم بسانجة نجل الفنش الذى قتل وانتصر المرابطون وكانت ممالك الغرب المسيحية قد وهنت وتولى النساءوصايات العرش فى البرتغال وقشتالة بينما تضعضعت قوة امراء دويلات الشرق بانبثاق نزاعات مع النبلاء وتناحرادعياء العرش وكان الاسبان ينصبون الافخاخ احيانا

I) حسب ابن خلدون الذى تختلف روايته عن رواية ابن ابى زرع .

2) بعد تقليد الخليفة اياه ضرب السكة باسمه ونقش على احد الوجهين اسم احمد أمير المومنين العباسى .

لكتائب المسلمين مثل ما وقع لمحمد بن الحاج الذى خلفه ابن تافلون (I) فامتدت ولايته من مرسية الى بلنسية وطرطوشة ونازل القائد روذ مير قرب برشلونة فى حرب دامية ٠

وما لبث على بن يوسف ان جاز الى الاندلس عن طريق سبتة (503)ه فى جيش كثيف احتشد فى قرطبة وفتح طلايوت ثم احتل فى اقليم قشتالة الجديدة 27 حصينا ثم مجريط ووادى الحجارة وحاصر طليطلة شهرا عاد بعده الى قرطبة وفى العام التالى غزا سير البرتغال فاقتحم شنترين وبطليوس ويابورة واشبونة وبرتقال وبذلك تقلص نفوذ امراء العرب وهددوا فى عقر ديارهم ومع ذلك ظل الخطر المسيحى يداهم المملكة المرابطية التي اضطرت الى مواصلة فتوحها وقد بقى احمد بن يوسف المستعين بن هود اميرا على سرقسطة الى ان استشهد عام 503 ه فى اصطدام مع ابن رذمير فخلفه ابنه عبد الملك المعروف بعماد الدولة عام 512ه حيث تحالف ابن رذمير مع الاذفونش الذى زحف نحو لاردة فتضافرت جهود أمراء الغرب مع تميم وزحزحته عنها ثم استلحقت عمالة سرقسطة فاحتل قلعة ايوب بشرق الاندلس ووجه حملاته المتوالية ضد بلاد الجوف فجاز أمير المسلمين للمرة الثانية (513ه) وفتح شنترية ومهد غرب الاندلس فى حركة استكمل بها وحدة المملكة المرابطية تحت امارة تميم الذى ما لبث أن توفى (520ه) فخلفه تاشفين بن على وظلت الجزر الشرقية (الباليار) المحررة تحت غرب الاندلس فى حركة استكمل بها وحدة المملكة المرابطية تحت امارة تميم امرة محمد ابن على المسوفى المعروف بابن غانية ووالى تاشفين فتح الحصون واحتل كركى واشكونية ثم عاد الى مراكش حيث نصب وليا للعهد ولم تكد تمر أربع سنوات حتى بايعه الناس أميرا لدى وفاة والده (7 رجب 537ه) وكان الموحدون قد بدأوا يقضون مضاجع الدولة المرابطية فاصطدم الامير الجديد باكبر خطر داهم العدوتين منذ ثلاثة ارباع قرن على ان هجمات المسيحيين لم تفتر لان « الفونس لوباطايور » طفق يقتطع من الاندلس منذ عهد تميم باتساق مع ملك اركون الذى احتل سرقسطة وزحف عبر البلاد خلال خمسة عشر شهرا فكان ذلك المظهر الاول لتضعضع الكيان المرابطى امام الجبهتين بانبثاق نوع جديد من ملوك الطوائف ٠

I) ممدوح ابن خفاجة وصاحب الفيلسوف ابى بكر بن باجة المعروف بابن الصائغ ٠

ومع ذلك استطاع المرابطون في عقود من السنين توحيد الاندلس تحت راية الاسلام رغم احتفاظ الاسبان بممالك الشمال

الاقتصـــاد

وقد عرف المغرب في هذا العهد الوفرة والثراء وانتشرت ضيع فلاحية في البادية بفضل الامن النسبي وكان للتبادل المغربي الاندلسي اثره القوى في تكييف الاقتصاد وتنمية الموارد وامست الحاضرة الجديدة (مراكش) مركزا تجاريا هاما بين الصحراء والشمال ومهبطا لرواد الثقافة من اعلام الفكر بالاندلس وقد سك الدينار اليوسفي باسم الامير المرابطي والخليفة العباسي وبلغ وزنه 3،960 غرامات في مقابل اربعة غرامات ذهبا الى 4،729 غرامات في عهد عمر بن الخطاب وقد الغى المرابطون المغارم والمكوس واقتصروا على الزكوات والاعشار والمغانم والجزية لتحقيق التوازن في بيت المال

الجيـــش

وفي هذا العهد ظهر جيش نظامي جديد تعزز بالاغزاز (1) المشارقة علاوة على فرسان القبائل البربرية وقد درب على الحياة العسكرية غير ان اغلبيته كانت من القبائل المستنفرة عند الحاجة وقد استعرض يوسف جيشه العتيد في حصن لرقة خلال جوازه الاول للاندلس (2) كما استعرض حفيده تاشفين قواته في تلمسان عام 538هـ (3)

الفـــن

وقد ادخل المرابطون عنصرا جديدا في الفن البربري فتركز المزيج المغربي الاندلسي واستمرت عملية الانصهار منذ ذلك العهد نحوا من ثلاثة قرون واتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التي لم يخل منها ربض ولازقاق في كبريات الحواضر وعززوا الحصون والقلاع التي استمدت من الهندسة الاطلسية كما اسفر التبادل بين العدوتين عن ازدهار الصناعة التقليديـة والاساليب

---

1) الانيس المطرب ج 2 ص 4
2) المعجب ص 77
3) الحلل الموشية ص 108

المعمارية وقد ورد على المغرب مهندسون وصناع قرطبيون منذ عهد يوسف بن تاشفين ساهموا فى طبع العمارات والمساجد بلون جديد وكذلك الحمامات والخانات والسقايات وقد بنى هؤلاء المهندسون قنطرة تنسيفت ايام على اللمتونى ولم يبق مما شاده المرابطون سوى جامعى تلمسان وجزائر بنى مزغانة لاندراس اعلام المساجد اللمتونية بمراكش وفاس عدا جامع القرويين الذى اتخذ فى عهد على بن يوسف سعته وشكله اللذين ما زال يحتفظ بهما الى الآن وقد زيدت بلاطاته وجدد منبره(I)ونقشت سقوفه بترخيمات رائعة اسفرت عنها الحفريات عام 1952 واكدت ما وصفه به ابن ابى زرع عند حديثه على القبة المرابطية التى غطيت بالجير ليلة دخول الموحدين الى فاس . اما القصور فقد اشار صاحب الاستبصار الى « دار الامة» التى بناها يوسف كما اشار الادريسى الى «دار الحجر» التى اسسها على بمراكش والتى سيهدمها عبد المومن لاقامة الكتبية الحالية مكانها ومن الحصون المرابطية قلعتا بنى تودة بفاس وامركو لمراقبة بدو الريف وقد استخدم اللمتونيون طريقة جديدة فى مد السواقى بواسطة الخطارات الصحراوية.

وخلافا لما زعمه دوزى يمكن القول مع طيراس بان المرابطين افادوا الحضارة الاندلسية وقد ابرز المؤرخون الاسبان الدور الذى قام به امراء لمتونة فى تشجيع الادب والعلم والفن

I) زهرة الآس ص 42

الفصل الرابع عشر

الانتفاضة الموحدية

مافتىء الموحدون يحملون شعلة الاسلام فى الاطلس منذ الفتح العربى وقد ناوأوا البرغواطيين المصامدة وكانت لهم فيما قبل زعامة موصولة وقد ولد المهدى تومرت فى هرغة (شمال الاطلس الصغير) عام 485هـ وارتحل الى الاندلس والشرق (بغداد والقاهرة) فى طلب العلم وهو دون العشرين ولقى فى زعم بعض المؤرخين كلا من الغزالى (1)والطرطوشى وأظهر ورعا ونسكا وصرامة فى استنكار الزيغ والاستهتار (الخمر والخنا) ثم عاد الى المغرب بعد زهاء عشر سنوات وقد نهل من ينابيع الاشعرية فابحر من الاسكندرية الى طرابلس ثم المهدية داعيا الى مذهب التـاويل الذى حاد عنه اللمتونيون انتجاعـا للسلفيـة فطورد من الولاة حيثما نزل ثم عرج على بجاية فلقى فى ملالة بالقرب منها عبد المومن بن على الكومى

---

1) ممن أثبت لقاء ابن تومرت للغزالى بصفة الجزم ابن أبى زرع (القرطاس ج 2 ص 104) وابن خلكان (ج 2 ص 37) وابن الخطيب فى رقم الحلـل (ص 57) وصاحب الحلل الموشية (ص 85) وابن أبى دينار فى المؤنس (ص 107) واليوسى فى محاضراته ونقله عنه القادرى فى نشر المثانى (ج 1 ص 122) وأبـو الفـداء (ج 2 ص 23) والزركشى فى تاريخ الدولتين (ص 2) وعده مرتضى من تلاميذه وممن شك فى ذلك ابن خلدون فى العبر (ج 1 ص 298) والمراكشى فى المعجب (ص 99) وجزم بعدم اللقاء ابن الأثير فى الكامل (ج 10 ص 201) ورينيه فـى دائرة المعارف ٠

فى طريقه الى الحج فاستصفاه لامانة سره واصطحبه مع البشير عبد الله الونشريسى الى تلمسان ثم كرسيف ووجدة ففاس حيث تصدى للتدريس وواصل رحلته من مراكش الى مكناس فاغلظ فى النكير على الامير على بن يوسف وتوبيخ اخته السافرة وكان حفاظ العلماء عليه يتزايد لنحلته الاشعرية التى تصمهم بالجمود على المختصرات المالكية فدفعوا الملك لتنظيم مناظرة انتهت بظفره وانقسم المجلس فى شأنه بين مستهون ومستعظم لمغبة دعوى الرجل ولكن الملك الصالح صرفه فى امان رغم نصح القاضى المنجم مالك بن وهيب فخف المهدى الى أغمات لا يلوى على شىء وانضم عمر بن يحيى الهنتاتى لركب المهدى الذى أقام فى ايجلى بهرغة الرابطة للعباد وقد تعززت بأفواج الطلبة الذين لقنهم ابن تومرت قواعد «المرشدة» فى التوحيد فذاع صيته فى الاطلس الكبير وشمالى الاطلس الصغير والتف حوله منذ 515هـ المصامدة الموحدون • وازاء هذه التجمعات انبرى عامل المرابطين بالسوس ضد المهدويين فاستجاش هؤلاء انصارهم ودارت معركة عام 516 هـ منى فيها اللمتونيون بأول هزيمة فاتسع نفوذ ابن تومرت الذى أقام عام519هـ بتينمل دارا ومسجدا وتينمل حوض خصيب على وادى نفيس طويل دقيق فى شعبة الاطلس الكبير وكانت مناعة الجبل خير حمى من سطوة اللمتونيين وهنا دعم ابن تومرت كتلته الاطلسية على فكرة دينية أذكت اوراها عداوة تقليدية ضد صنهاجة الملثمين وظل يتنقل من شرق الاطلس الى غربه بالغا سواحل المحيط باكادير حيث أقر اتباعه بأماميته وامسى بصفته المهدى المنتظر رئيس دويلة حاضرتها المحصنة تينمل وهدفها اقرار الاسلام الصحيح على هدى القرآن مع انتقاء الاصلح من اعراف البربر فىالشورى والتراتيب السياسية وكان مجلس العشرة الذى يشكل مستشارى الامام واركان حربه وكتابه وقضاته يتركب علاوة على ابن تومرت والبشير من بعض قادة الاطلس كالعمرين الهنتاتى والصناكى وابن وانودين وابن يغمور وابن تافراكين ومحمد بن سليمان وابراهيم بن اسماعيل الخزرجى وعبد الواحد الخضرمى والتحق بالعشرة اربعون ممثلا للقبائل الكبرى مثل كدميوة ونفيسة وهنتاتة وهسكورة لتكوين آيت الخمسين فى شكل مجلس للشيوخ الموحدين كان يعقد دوراته عندما يستشار فى المناسبات الهامة وكان الطلبة والحفاظ يدربون الدعاة يليهم فى الرتبة اهل الداروا هل الساقة •

وبعد الحبالة التى نصبها البشير بتواطؤ مع ابن تومرت لاظهار مخاريق مصطنعة قتل فيها كل من خالف الامام — تجهز جيش من عشرة ءالاف زحف على مراكش عام 523هـ فهزم اللمتونيين فى كيد وطاردهم الى مراكش فحاصرها

اربعين يوما ولكن نجدات المرابطين فكت هذا الخناق فى معركة عنيفة بالبحيرة قتل فيها البشير وعاد عبد المومن مع الفلول الموحدية دون أن تفت هذه الهزيمة الاولى فى نفس المهدى الذى راى فى نجاة عبد المومن املا فى الكر الظافر وصمدت الكتلة الموحدية فأمعنت فى تحصين حاضرتها حيث استعرض ابن تومرت جيشه للمرة الاخيرة ضاربا المثل فى التقشف والتقلل الى آخر رمق من حياته ولم تمر اربعة اشهر على وقعة البحيرة حتى توفى المهدى (بين 13و29 رمضان عام524هـ) بعد ان بشر اتباعه بالنصر وقدم عبد المومن للصلاة عليه .

عبد المومن

وكان الخليفة الجديد معتدل القامة اشهل العينين فقيها محدثا اصوليا سياسيا شجاعا وخطيبا مصقعا امتاز بتبصر واناة اعانتاه على تحمل أعباء الرسالة الموحدية وانبرى فى غزوة استمرت سبع سنين (534-541هـ) لفتح المغرب الاوسط بعد تمهيد المغرب الاقصى وكانت انطلاقاته الاولى من تينمل صوب الشمال الشرقى بالمنحدر الغربى للاطلس سامته فى السهل خصمه المرابطى تاشفين بن على وقد تحاشى الطرفان التصادم فى تحفز دفاعى سيار وكان على ابن يوسف ما زال حيا فى الفترة الاولى (توفى عام 537هـ) وطفق عبد المومن يعزز قواته بانضمام سكان الجبل والواحات (دمنات وبنى ملال وفازاز وتافيلالت) والعناصر الفارة من المرابطين مثل هسكورة وصنهاجة الاطلس الاوسط ومسوفة تلمسان ومصامدة غمارة (وادى لووتطوان وباديس عدا سبتة) فاصطدم الجبليون المنحازون مع فلول المرابطين المنظمة والمعززة بالميليشية المسيحية التى كان يقودها الروبرتير القطلانى بجهازه العتيد وفنه العسكرى المحكم غير أن وفاة هذا القائد الاسبانى (539هـ - 1145م) فسحت مجال السهول امام الموحدين الذين انحدروا فى خضم صاخب نحو غياثة (تازة) وبطوية وملوية وبلاد زناتة بالمغرب الاوسط وكان الموحدون قد انهزموا من قبل امام بنى عبد الواد وبنى يلومى والروبيرتير وقتلوا ابن موخوخ الزناتى الذى كان انضم الى عبد المومن وهو فى الريف فاردفه بعد احتلال الحسيمة ومليلية وتمسمان وبنى يزناسن بابن يغمور وانودين ولكنه اضطر تلبية لاستصراخ ابن ماخوخ الى الزحف نحو تلمسان وكان امير صنهاجة قد هب لانقاذ الامير المرابطى المقيم بالصفصفان فقتله الموحدون مع الروبيرتير وارتحل تاشفين اللمتونى الى وهران (539هـ) بعد ان اوفد الى مراكش ولى عهده ابراهيم مع الاديب احمد بن عطية وزحف عبد المومن من تلمسان للقاء خصمه الذى ساندته بوهران اساطيل محمد بن ميمون المستقدمة من المرية فى حين تعززت طلائع الموحدين التى كان على

رأسها ابو حفص الهنتاتي ببني ومانو الزناتيين فدارت معركة اولى ضد زناتـة ولمتونة انتهت باذعان كل من امير بني يلومي وشيخ بنى عبد الواد فتقـوت الكتلة الموحدية في سيرها نحو وهـران حيث أحدقت برابيـة اجحت حواليهـا النيران وماكاد يرتخي جنح الظلام حتى تردى تاشفين ــ وهو فى تطوافه خارج الحصن ــ من الجبـل غادة موسم السابـع والعشرين من رمضان سنـة 539 ه واستسلمت وهران فلم يفلت من القتل بها سوى رجل واحد (البيدق) ٠

حصـار فـاس

وبعد اثخان الهنتاتي في برغواطة التحق بعبد المومن وهو في طريقه الى مراكش عن طريق تادلا وتعززت القافلة العسكرية بهسكورة وصنهاجة وانغمرت في عراك بجيليز دام خمسة أيام اكتسحت بعدها المدينة وتحصـن اسحـاق بالقصبة مع حاشيته (1) حيث استسلموا بعد مقاومة عنيفة فقتل الامير وكافة الملثمين وكللت حملات الموحدين بالنصر والسيادة على مجموع المغرب وانتقل جهاز الدولة الجديدة الى مراكش التي اختارها الخليفة ووافقه العلماء بعد تهديم مآثر المرابطين بها حيث اقيمت الكتبية فوق انقاض دار الحجر ٠

تمهيد البلاد : وفي هذه الفترة العصيبة ظهر محمد بن هود السـلاوى بماسة وتسمى بالهادى وكان قد لحق بعبد المومن فى فتح مراكش فابرز المخاريق واستجابت لدعوته سجلماسة ودرعة ودكالة ورجراجة وتامسنا وهوارة ثم الشمال (طنجة وسبتة وبني ورياغل في الريف) والمرينة بالاندلس فهزم فيلقا موحديا وبدأ ظل عبد المومن يتقلص فاهتبل الامير لهذا الحدث وجهز أبا حفص الهنتاتي في ذي القعدة عام 542 ه في جيش كثيف هزم جزولة وقتل ابن هود واوقع بهسكورة وهيلانة ولكن برغواطة صدته فتراجع الى تادلا ثم الى مكناس فحاصرها وكان الصحراوى قد رجع من الاندلس والتحق الخياط اخو الهادى بالبرغواطيين ثم اهل دكالة بتعزيز رجراجة وحاحة مما اضطر عبد المومـن الى القيام برد فعل عنيف فاقتحم سلا ثـم مكناس والريف والهبط في نفس الوقت الذى كانت الجيوش الموحدية تخضع دكالة ورجراجة وتقتص من برغواطـة

---

1) كان من بينهم فتاة هى فانو بنت عمر بن بنتيان التى استماتت وراء لثامها في الدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش طوال نصف يوم اثار استبسالها اعجاب الموحدين

وتطارد الصحراوى الفار الى فيافى الجنوب وتقمع هنا وهناك الفلول المتمردة وقد شعر عبد المومن بان التصفية الاولى لم تؤت اكلها فعمد الى تصفية ثانية اشد من الاولى امتدت جذورها الى مجموع الاقاليم وذهب ضحيتها حسب البيدق 32.720 نسمة لاسيما فى هسكورة وفازاز، وتادلا فكانت هذه الظاهرة اشد وسيلة لنشر الهدوء والسلام .

فتح الاندلس

وما ان انتهى عبد المومن من تمهيد المغرب الاقصى حتى اتجه نحو الاندلس وكان عهد جديد لملوك الطوائف قد انبثق باستقلال امارات قديمة وبروز رؤساء جدد وزحزح المرابطون عن قلاع ومدن كاشبيلية وغرناطة ثم الجزر الشرقية حيث صمد بنو غانية بينما ثار فى غرب الاندلس أحمد بن قسى ومريدوه من المتصوفة وابن المنذر فى شلب وابن الوزير فى يابورة والاميرال المرابطى على بن ميمون فى قادس اما فى الاندلس الوسطى فان القشتاليين وجدوا مساعدا فى شخص سيف الدولة من بنى هود وكانت قرطبة خاضعة نظريا ليحيى بن على المسوفى المعروف بابن غانية للحكم المسيحى كما انصاعت كل من بلنسية ومرسية لابن مردنيش فوجد الامراء الاسبان فى الشمال المجال خصبا لمحاولة الانقضاض على هذا الهيكل المنهار الذى عززه اسطول صليبى رابط فى مصب الطاج ونزل على شنترين واشبونة فى حين احتلت الكتائب المسيحية بياسة وابدة وطرطوشة والمرية وماردة وشنتمرية غير أن انبعاث الدولة على يد عبد المومن ما لبث أن تمخض عن انضمام ابن ميمون الى الموحدين حيث خطب فى قادس باسمهم وصبغ ابن قسى ثورته بطابع موحدى وقد وجه الامير جيشا بقيادة ابن محمد المسوفى ووالى النجدات لتعزيزه فاقتبله ابو الغمر بن عزرون (عام 539هـ) فى شريش التى اعتبر اهلها السابقين الاولين على غرار ما كان فى الصدر الاول ــ ثم تعاقبت الفتوح فى شلب وباجة وبطليوس واشبيلية (541هـ) من حيث قدم وفد برياسة القاضي أبى بكر بن العربى الى مراكش لتقديم البيعة باسم قرطبة (543هـ) .

واستقر عبد المومن (545هـ) فى سلا لاقتبال وفود الاندلس فبايعه ابن ابى الوزير عن باجة ويابرة ويوسف البطروجى عن لبلة وابن عزرون عن شريس ورندة محمد بن الحجام عن بطليوس وعامل بن مهيب عن طلبيرة ولم يتخلف من الثوار سوى ابن قسى وغب هذه التهانى عاد الامير الى مراكش لانشغاله

بفتوح افريقية بعد ما جهز أبا حفص الهنتاتى صحبة نجله الامير السيد ابى سعيد (546هـ) فحاصر المرية التى حاول ابن مردنيش انجادها تعزيزا للفونش فعجز عن منازلة محلة الموحدين المحصنة بسور وفر بينما جلا العدو عن بياسة وابذة وتنازل ميمون بن بدر اللمتونى عن غرناطة ٠

الامبراطورية الافريقية : وفى نفس السنة زحف عبد المومن الى سبتة عن طريق سلا فاستقدم الى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط اعيان لاندلس للاستعلام والاستحثاث الى الوحدة وتظاهر بالرجوع الى مراكش معرجا على الملوية فتلمسان وكانت افريقية نكبت بالسيل العارم الذى انحدر اليها من بنى هلال وبنى سليم بدافع من العبيديين الذين نقلوا هؤلاء الاعراب حلفاء القرامطة من الشام الى الصعيد المصرى حيث عاثوا فسادا ثم عمدوا الى الاقتصاص من بنى زيرى الصنهاجيين الذين استقل معزهم السنى (ابن باديس) عن المستنصر العبيدى منذ عام 443هـ منحازا الى خلفاء بغداد ففسحوا لهم مجال النزو على افريقيا لتملكها بدل صنهاجة فانصبوا على امصارها فى خضم جارف اهلك الحرث والنسل واضعف البلاد ٠

ومن خلال هذه الفيافى المهزولة وصل عبد المومن بعد خزن المؤن من المحاصيل الى عاصمة الجزائر فى مائتى الف جندى ففاجأ أهلها بزحفه الخاطف وانضم اليه الحسن بن على الصنهاجى الذى كان النورمانديون قد طردوه من امارة المهدية ثم احتل بجاية من حيث فر أميرها يحيى بن العزيز آخر ملوك الحماديين الى بونة ثم قسنطينة وكان نجل الخليفة قد اقتحم فى جيش من الموحدين قلعة بنى حماد فاصطدم الموحدون فى سطيف بالعرب الهلاليين فهزموهم واستسلم يحيى الذى كان قد خلف اخاه على امارة قسنطينة فانتقل الى سلا مكرما ومرت ثمان سنوات وكان عبد المومن يظهر رغبته فى استكمال احتلال افريقية لتخليص البلاد من خطر الغزو النورماندى وقد استصرخت به وفود افريقية حين نكبتها الجنود الصقلية فهب عام 554هـ يغد السير نحو المغرب الادنى فى حركة متئدة تصون المحاصيل ضاربا المثال الصالح فى اقامة شعائر الدين واحتذاء سنن السلف فوصل الى تونس معززا بسبعين قطعة بحرية فانصاع اهلها مستأمنين ثم نازل المهدية برا وبحرا مصحوبا باميرها المطرود الحسن بن على وكانت حصنا منيعا تجمع فيه أعلام النورمانديين فرابط الجيش بزويلة الخالية المجاورة واقام سورا غربى المدينة بينما احاط الاسطول بجهاتها واستمر هذا الحصار

القاسي يستنزف قوى الخصم وأقواته بينما اتجهت الجيوش الموحدية لفتح طرابلس ومرابض نفوسة وصفاقس وسوسة وقابس والحصون الافريقية مستكملة زحفها الظافر ولما تنته السنة وهب اسطول صقلية فى هذه الآونة فى مائة وخمسين سفينة وطرادة لانجاد الرعايا النورمانديين المحاصرين فصده الاسطول الموحدى فى مطاردة اسفرت عن اسر سبعة مراكب ومع ذلك واصل الافرنج الصمود فى المدينة بضعة اشهر اخرى استأمنوا خلالها فجلوا عن المهدية بعد احتلالها اثنى عشر عاما (555هـ) .

وفى هذه السنة ـ سنة الاخماس ـ اكتملت وحدة القسم الشرقى الامبراطورية الموحدية من برقة الى تلمسان حيث اقرت الحاميات ونصب الولاة والقضاة ورفرفت راية الاسلام من جديد فى هذا الصقع المترامى كما مسحت الارض الى السوس الاقصى فراسخ واميالا ففرض الخراج على ثلثيها زرعا وفضة التزمت القبائل بادائها كما انضم الاعراب الهلاليون الى الدولة لا سيما بعد معركة القرن التى نكبت فيها فلولهم المتخاذلة عن الجهاد فى الاندلس ونقل نسائهم وصبيانهم الى مراكش وهكذا انشغل الخليفة طوال خمس عشرة سنة فى توطيد الشق الافريقى من الامبراطورية فزحف فى نفس العام نحو العدوة الشمالية بعد ان اصدر الامر وهو فى غمرة الجهاد بتحصين جبل الفتح (جبل طارق) ولم تكد تهل سنة 556هـ حتى اجاز عبد المومن من طنجة الى الاندلس فاستقدم الى الحصن الجديد القواد والاشياخ للتشاور فى تصميم حملة عارمة تنظم ما انتثر من عقد الاندلس اذ كان محمد بن مردنيش قد عاث بشرق البلاد ومن بينهم والى جيان محمد بن على الكومى ثم استولى على كل من قرمونة وقرطبة فانبرى الهنتاتى واسترجع من القشتاليين باجة ويابورة وبطليوس كما استرد الامير ابو يعقوب قرمونة ولكن بعودة الخليفة الى مراكش استعاد صهر بن مردنيش (ابن هامشكو او الملك لوبو) غرناطة وتراجع الموحدون الى مالقة فصدر الامر من جديد بالتجمع العسكرى فى سلا وكان الاسطول قد نما جهازه عام 557هـ باربعمائة قطعة رابطت فى الثغور الكبرى منها مائة وعشرون فى المعمورة (وهى المهدية بمصب نهر سبو) ومائة موزعة على طنجة وسبتة وبادس وموانىء الريف ومائة اخرى فى مراسى افريقية والجزائر وثمانون بسواحل الاندلس كما تعزز العتاد والسلاح وديوان الجيش باربعين الف فارس كومى وانتظم الحشد (558هـ) فتوافد الجنود من كل الانحاء استعدادا للجواز الثانى الى الاندلس وكان العرب الهلاليون فى صف واحد مع زناتة والموحدين وباقى البربر فى ثلاثمائة الف فارس انتشروا بين مصبى سبو وابى رقراق الا ان المنية عاجلت الخليفة بسلا (18 جمادى الثانية 558هـ) فنقل الى تينمل حيث دفن قرب المهدى .

الفصل الخامس عشر

العصر الذهبي في العدوتين

عرفت الدولة الموحدية خلال نصف قرن عنفوان مجدها وتعاقب عليها ملوك برزوا في مدارج الحضارة وركزوا عوامل الاستقرار والانبعاث في الاندلس وافريقيا الشمالية فكانوا بحق زهرة هذا العصر لم تتجدد الى الآن في الامبراطورية العربية الاسلامية معالمها الوضاءة وقد امتاز المغرب في هذهالفترة بسياسته الأصيلة وسيادته الرصينة بافريقية والبحر المتوسط

يوسف بن عبد المومن (558هـ ـ 580هـ)

وبعد وفاة عبد المومن بايع الموحدون أبا يعقوب يوسف بتاييد أخيه أبي حفص والشيخ عمر الهنتاتي وقد احتفظ ابو حفص بن عبد المومن بمنصبه كوزير واصبح مستشار اخيه وأمين سره وتخلف عن البيعة الاميران ابو محمد عامل بجاية وابو عبد الله عامل قرطبة ويظهر ان ابا يعقوب الذي صادفه الحبال باشبيلية عند نعي والده لم يتحل بلقب أمير المومنين الا عند ما اجمع الناس على مبايعته (563هـ) وفي ضمنهم اخواه بعد استئصال الثائرين مرزدغ الصنهاجي الذي انبثقت دعوته من غمارة الى تازة بتأييد اوربة وصنهاجة (559هـ) وسبع بن منغفاد في نفس الاقليم (561هـ)

وكان الامير الشاب رائق الهندام رقيق الطبع عميق التكوين حلو المنطق

قد استكمل اداته العلمية باشبيلية فبرز فى الفلسفة والاداب وازدان بلاطه باقطاب الفكر امثال ابن طفيل وابن رشد وحنكته ممارسة الحكم بالاندلس فجمع بين الصرامة واللين والتسامح والاحسان وقد اختص اسرته بالمناصب السامية فعقد لاخوته ابى زكرياء على بجاية وابى اسحاق على قرطبة وابى سعيد على غرناطة وابى على على سبتة وغمارة واستوزر نجله المنصور اعدادا لولاية عهده وكانت اشبيلية قد كيفت سريرته فجاء اندلسى الطبع بعد ما كان والده افريقى الروح وانتظمت فى عهده الزاخر مملكة مترامية عم فيها الرخاء والامن وانبسطت مجال الثراء بالحواضر ونعمت البادية بازدهار تبلور فى وفرة الجبايا واتساقها ·

ثورة قفصة : وفى هذه الآونة ثار بنو الرند فى قفصة (574هـ) فهب الامير وقتل المتمردين واقتحم المدينة ونقل عرب رياح الى مراكش بعد ان مهد القطر التونسى حيث انتقض قراقوش التركى الذى احتل برقة وطرابلس ثم بنو غانية الذين وجدوا فى هذه الاقاليم النائية ميدانا خصبا لانبثاق تمرداتهم بمساعدة الاعراب الثوريين ·

السياسة الاندلسية : ولم تكن رسالة الخليفة الراحل قد اكتملت فى الاندلس الذى اولاه الامير الجديد كل عنايته فقد ظل ابن مردنيش مسيطرا على مرسية وبلنسية وصهره ابراهيم ابن همشك على جيان وبنوغانية فى الجزائر الشرقية فهب أبو حفص أخو الامير فى فيالق عربية (عام565هـ) لانقاذ قرطبة من غارات ابن مردنيش المعزز بالمليشيات المسيحية ثم تواردت نجدات بامرة أبى سعيد والى غرناطة فطوق الاميران مرسية بعد ان انضم لهما ابن همشك واقتحما المرية واستسلم ابن الحجاج اخ ابن مردنيش وامير بلنسية وواصل بنوغانية صمودهم فى البحر بالاضافة الى مناوراتهم فى افريقية أما الدويلات المسيحية فقد أمست تشكل خطرا على جيوش أبى يعقوب فاحتلت يابورة ووجهت ضرباتها الى باجة وشنترين وارباض اشبيلية وكانت قشتالة تتحصن شرقا خلف سلسلة من الجبال وقد خاض أميرها الفونس الثامن ضد الموحدين معارك عنيفة واضطر الخليفة الى الجواز للاندلس فنزل بقرطبة (567هـ) ثم اشبيلية حيث نعى اليه محمد بن مردنيش وتنازل اولاده عن جميع شرق البلاد واتجه الامير الى وجدة فحاصرها شهورا ونضبت فيها مستودعات الماء وكادت تستسلم لولا وابل هتان انقذها فاضطر الامير الى النزوح ومهادنتها بضع سنوات غير أن الموحدين ما لبثوا ان اقتصوا من العدو فى ناحية قلعة رباح واغاروا على طليطلة وهنا اغتنم الامير فترة

استجمام فاتم بناء جامع اشبيلية بمنارته الخالدة واسس القصبة ومد الارصفة على وادى المدينة والقنوات المجلوبة من قلعة جابر غير ان الفونس خرق الهدنـة فانبرى أبو حفص لاقتحام القنصرة ، فرجع الخليفة الى مراكش (عام 571هـ) بعـد تعديلات بالولايات وكان الطاعون قد جرف بعاصمة الجنوب فاودى بحياة بعض اخوة الخليفة ومات الشيخ ابو حفص الهنتاتى بسلا فى طريق عودته من قرطبة .

ومرت ثمانى سنوات (571 هـ ـ 579 هـ) مهـد الخليفـة خلالها افريقيـة فأعاد الكرة على الاندلس فى جواز ثان عند استفحال غارات الفونس على قرطبـة ومالقـة ورندة وغرناطـة واستجة وحصن شفيلـة واتصال المعارك سجالا بين العدو من جهة وبين ابى اسحاق ومحمد بن يوسف بن وانودين من جهة اخرى وكان الامير قد عقد لابنائه على الولايات (ابى زيد على غرناطة وابى عبد الله على مرسية وابى اسحاق على اشبيلية واستنفر حشود البربر والعرب والاغزاز فعبر بهم (580هـ) الى جبل طارق ثم الجزيرة الخضراء ومنها الى اشبيلية حيث انتفضت جيوشه لغزو شنترين بغرب الاندلس فى حصار طويل انتهى بالجـلاء للزحف ضد اشبونة وقد اساء الجيش الاندلسى فهم اوامر الخليفة فسارع بالرحيل فى جنح الظلام بدل الفجر ووجد المسيحيون المحاصرون فـى شنتـرين ثغـرة للانقضاض على الخليفة الذى وجهت اليه طعنات نجلاء نفذت الى مقاتله وتراجع آنذاك الجيش فانحنى بالسيف على المسيحيين ومات الامير قـرب الجزيـرة الخضراء (10 ربيع الثانى 580هـ) فنقل الى تنميل حيث دفن بجانب قبر والده

وهكذا ظل العدو الذى استقر بغرب الاندلس يهدد حوض الوادى الكبير رغم جهود الخليفة الشهيد وتزايد الخطر المسيحى بالشمال بقدرما اشتد ضغط بنى غانية وفلول صنهاجة والعرب فى المغرب الشرقى .

يعقـــوب المنصـــور : 580 ـ 595 هـ

تلقى ولى العهد ابو يوسف يعقوب البيعة الاولى باشبيلية حيث خف الى المغرب لنقل جثمان والده واستوزر عبد الواحد بن ابى حفص الهنتاتى وتقبل فى القصر الصغير ولاء ابى زكرياء بن ابى حفص الذى قدم من تلمسان مع اشياخ عرب زغبة الهلاليين الذين تعززت بهم الكتلة الموحدية وفى سلا انصاع للخليفة اخوته واعمامه فغمرهم بالرفد الجزيل كما أكرم الاجنـاد والموحـدين والفقهاء والصلحاء وحرر المساجين ورد المظالم واستحث القواد على عدم الحيـاد عـن

الشريعة وكان الامير الشاب قوى الشكيمة فصيح اللسان طموحا درب على شؤون الدولة عندما استوزره والده ، قد احاط نفسه بحجاب من الموالى وكتاب وقضاة معظمهم من الاندلس وضرب على ايدى المنتقضين من اسرته وقومه وكانوا قد بدأوا يعكرون صفو الوحدة التى اندست فيها نواخر خارجية ·

الاحداث الافريقيــــة

وكانت ثالثة الاثافى فى هذه القوى الناخرة هى عصابات قراقون (احد موالى الاكراد بمصر) التى انضمت الى ثوار الجزائر الشرقية (ميورقة ومنورقة) والاعراب المسلمين من طرابلس وكان على بن يوسف اللمتونى قد ولى على جزر الباليار هاته محمد بن على المسوفى (ابن غانية) وتداولها ابناؤه الى ان بايع حفيده محمد بن اسحاق الامير يوسف الموحدى فانكر اخوته انصياعه وامروا على بن اسحاق الذى ماكاد يطرق سمعه نعى ابى يعقوب حتى سرح اثنتين وثلاثين قطعة بحرية فنزل على بجاية فى غفلة من اميرها ابى البربيع المومنى (581هـ) وواصل خلال ثلاث سنــوات فتوجــه للجزائــر ومازونة ومليانة والقلعة ثــم حاصــر القسطنطينية تسانده عرب رياح وجشم واثبج فى حركة ظافرة بالجنوب التونسى حيث اقتحم قفصة منها طرابلس واستقر هو فى بلاد الجريـد بينمـا رابـط قراقوش الغزى من قابس الى طرابلس فى ظل الراية العباسية وكان ابن زيد المومنى قد اجلى بنى غانية عن بعض السواحل فطفقوا يصولون فى الصحراء الى ان هب المنصور من مراكش عام 582هـ الى تونس حيث بلغ الامير انهزام الموحدين بامرة يعقوب حفيد عبد المومن فزحف نحو القيروان ثم الحامة حيث استعرت معركة انهزم فيها المسوفيون فافلت ابن غانية وقراقوش فى فلول من عصاباتهما ثم واصل المنصور زحفه فاقتحم قابس وتوزر وقفصة حيث هدم الاسوارواسترد مليانة والجزائر وبجاية وانضمت الى الخليفة افواج من الاغزاز الاكراد الذين كانوا في جيش قراقوش فاندرجوا فى سلك الجيش الموحدى وتفككت أوصال العرب المشغبين وزج بهم فى خضم القبائل البربرية بالمغرب الاقصى كرصيد للجهاد فى الاندلس وهكذا نزل بنو هلال وجشم الخلط فى تامسنا بينما فى الغرب استقر بنو رياح ·

وملك الموحدون الجزر الشرقية ولكن احد اخوة على بن غانية نزل فـى ميورقة بجيش افريقى فاعاد نفوذ الصنهاجيين بينما خلف يحيىاخاه عليا المتوفى

فاستعاد النضال فى افريقية ضد الحاميات الموحدية وكان قراقوش قد استقر من جديد فى قابس ونافرته سليم فقتل بعض اشياخها ودب الخلاف بين الحليفين فانتزع يحيى قابس من يد قراقوش فى حين استقل القائد الموحدى عبد الكريم الرجراجي بالمهدية عن والى تونس ونصب نفسه سلطانا فقتله يحيى الذى استرجع المهدية وأصبح فى ءاخر أيام المنصور أميرا للجنوب التونسى يوسع رقعة مملكته فى الغرب ٠

وهكذا لم يستطع المنصور استئصال جذور الثورة الصنهاجية فى افريقية بالرغم عن كفاءته وكفاحه الموصول طوال سنتين (582 ـ 584هـ) وزحفه الجديد (586 ـ 558 هـ) الى تونس ٠

المنصور فى الاندلس

وقد اضطر الخليفة الى التأرجح بين شقى المملكة للتهدئة ولكن بدون جدوى لان عناصر التشغيب كانت تجلو عن الميدان موقتا لتعود بوفر عدة ٠ اذ لم تكد تمرسنة واحدة (585هـ) على الزحف الاول ضد افريقية حتى اجاز المنصور من القصر الصغير الى الجزيرة الخضراء لصد المسيحيين عن البرتغال فشن الغارات على اشبونةوعاد الى العدوة بآلاف الاسرى واثناء الكر الخاطفضد تونس توالت عليه البرد (586هـ) تنذر باستيلاء الفرن على شلب وباجة ويافورة فاستنفر الخليفة جيوش الاندلس بامرة محمد بن يوسف الذى حاصر شلب فاقتحمها مع المدن المحتلة وبعض الحصون كقصر ابى دانس (587هـ) وعاد المنصور من افريقية الى مراكش بعد ان قضى بفاس عدة شهور فى علة الزمته الفراش فنهض من جديد الى الاندلس فى جوازه الثانى (591 هـ) وكان القشتاليون قد بدأوا يتوغلون فى قلب الاندلس واغاروا على الجزيرة بينما خرجت فلول من اتباع الفونس ملك طليطلة قبيل انتهاء هدنة خمس سنوات تعيث فسادا فى الاقاليم الاسلامية وماكاد الخليفة يطأ أرض الاندلس حتى اتجه صوب جنوب قشتالة فعسكر قرب قلعة رباح واستعرض الجيش ثم نزل حصن الارك فرتب قواته فى وجه العدو فى تاسع شعبان وعلى ميمنته الاندلسيون وبميسرته العرب والبربر وامامه المتطوعون والاعزاز والرماة وهو يتوسط القلب والكل بقيادة ابن ابى حفص الهنتاتى الذى استشهد فى الحملات الاولى لفرسان الفنس فانبرت الخيالة البربرية واقتحمت الاوعار التى تحصنت فيها عشرات الالاف من الاسبان

فانكسرت طليعة العدو وقرعت طبول النصر وظهر الخلل فـي صفوف الفـونس بعد توالى النجدات الموحدية والتى اطبقت على حصن الارك وطـاردت الفلـول المتعثرة واسرت الافا من الجنود مالبث المنصور ان حررهم محتفظا بكتل من الاسلاب والعتاد والخيول واستغل المنصور هذا الفتح فتوغلت فيالقه الى مجريط (مدريد) ووادى الحجارة وطلمنكة وارياض طليطلة حيث لجأ الفنس المتدحـر وبالرغم عن الاثر العميق الذى تركه هذا الانتصار فى نفوس المسيحيين الذين أصبحوا يستخطرون تهديد الموحدين فان ألفنس الثامن انكب مع أسقف طليطلة على اعداد اقتصاص حاسم خلال مدة المهادنة التى استمرت بضع سنوات وكان المنصور قد اضطر الى عقد هذه الهدنة لمجابهة ثورة بنى غانية وهكذا عاد المنصور الى مراكش (594هـ) دون ان يستكمل استغلال سلسلة انتصاراته مكتفيا بتغيير الولاة بالاندلس وتلقب الخليفة بالمنصور ثم ما لبث ان توفى (ربيع الاول عـام 595هـ) بعد أن عقد لولده محمد الناصر وراجت اساطير حول عزوفه عن الملك وسياحته بالشرق فذاع صيته فى الشام وتناقل المؤرخون تصريحاته وهو على فراش الموت حول ندمه على نقل العرب الى المغرب وبناء الرباط وتسريح اسارى الارك ٠

المـآثـر المـوحـديـة

وهكذا كان القرنان الخامس والسادس ابرز العصور العلميةفى المغرب حيث اصبح بلاط مراكش ملتقى الفلاسفة والاطباء والشعراء وتحرر الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل (1) وحفلت اندية الفكر بالعـدوة الجنوبية برجـالات أفذاذ مثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد وبنى زهر علاوة على كبار الصوفية مثل ابى يعزى وابن غالب القضرى والسهيلى وابن حرزهم وابن شعيب السارية وابى شعيب الانصارى كما ازدهر العمران واينع الفن والاقتصـاد وتعـزز بتنظيمات جديدة ٠

الفـــن

وقد استطاع الموحدون بفضل ما أبدعوه من روائع تبوأ المقام السامى فى تاريخ الفن لا سيما فى عهد يوسف الذى عاش باشبيلية وتشبـع بالثقافـة

---

1) عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص 176

الاندلسية وجمع خزانة تضاهي مكتبة الحكم الثاني ، وقد لاحظ « مارسي» ان مراجعة قائمة مؤسسات هذا الامير تحدو الى الاعتقاد بان حاضرة الفن الاندلسي (اشبيلية) كانت اقرب الى قلبه من مراكش ، وقد زينها باروع البنايات والمآثر العمومية ثم جاء ولده يعقوب فكان ابدع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة في اشبيلية والرباط ومراكش وجوامعها ومناراتها الخالدة وأصبحت مراكش بقصورها وحدائقها وشوارعها أشبه ببغداد كما ضاهت فاس دمشق في روائها وطبيعتها الخلابة ومياهها الدافقة وقد ظل للصناع المجلوبين من الاندلس اليد الطولى في هذا العهد الزاهر الذى نشر الموحدون خلاله معالم الفن الاندلسي في ربوع افريقية مجددين الاتصال بين الاسلوب المغربي والأسلوبين المصرى والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس وبذلك امكن للموحدين تحقيق وحدة الاسلام السياسية من قشتالة الى طرابلس الى السودان عاملين بذلك على توحيد معطيات الفن الاسلامي في الغرب .

ومنذ خلافة عبد المومن بن على بني مسجد تازة ومسجد تينمل وشرع في تاسيس جامع الكتبية الذى اقيمت بازائه منارة اخرى في عهده ايضا ثم تمت على يد حفيده يعقوب المنصور ومن خواص مسجد تينمل ان منارته بارزة فوق المحراب ويوجد مسجد موحدى على هذا النمط بسلا واذا وفقنا بين روايتي القرطاس والاستبصار ، لاحظنا ان المنصور هو الذى شرع في بناء جامع حسان واكمل جامع القصبة بمراكش وكذلك منارة اشبيلية المعروفة بالخيرالدة (الخالدة) وصومعة الكتبية .

وقد اندرست القصور والمدارس التي اقامها الموحدون كما انمحى اثر المارستان الذى بناه المنصور بمراكش ووصفه بعض المؤرخين بانه لا مثيل له في الدنيا وان مستشفيات باريس في اوائل القرن العشرين لاتوازى هذا المستشفى الذى احتوى على نقوش بديعة وزخارف رائعة وبرك من الرخام الابيض تترقرق كما شيد القلاع والاسوار في مختلف الحواضر ومدت القنوات منذ ظهور الدولة كقناة غبولة التي تنقل الماء الى الرباط والقناتين اللتين اقامهما المنصور بمراكش وفاس وقنطرة تنسيفت التي جددها يوسف .

واسست في قصبة مراكش مقصورة مدارة بحيل هندسية تظهر اذا استقر المنصور ووزراؤه في المصلى وتختفي اذا انفصلوا (1) .

---

1) ذكر المقرى في نفح الطيب (ج2ص804) انه زار مراكش عام 1010 هـ فلاحظ ان حركات المقصورة بطلت وبقيت اثارها .

مسح الموحدون لاول مرة الاراضى الافريقية دعما للتنظيم الجبائى حتـى بلغ دخل الخراج وقر 150 بغلا فى افريقية وحدها عدا ابجاية وتلمسان والمغرب وعمت الرفاهية مجموع البلاد كما يقول طيراس الذى اكد ان مدن المغرب بلغت من الازدهار مبلغالم تعرفه من قبل اما فى الاندلس فان النظـام الـذى اقـرد الموحدون قد جعل حدا ـ حسب اندرى جوليان ـ للفوضى المالية التى كان يتخبط فيها ملوك الطوائف واسست ضيع تجريبية بمراكش ومكناسة وفاس وتازة واشتهرت بحيراتها بثرائها فى غراسة الزيتون (1) كما ازدهـرت الصنـاعـة بالحواضر والبوادى فأصبحت سبتة فى طليعة مراكز انتاج الورق الذى لم يكن يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة (الورق الشطبى) وقد احصيت بفاس وحدها ايام المنصور والناصر 3.094 من اطرزة النسيج و 47 معملا للصابون و 86 معملا للدباغة و 12 معملا لتسبيك الحديد والنحاس و 11 معملا للزجاج و 400 معمل لصنع الكاغد علاوة على المطاحن والمعاصر والمخابز وأفران الجير (2) اما العملة فقد وطد الموحدون قيمتها الذهبية حيث رفعوا وزن الدينار من 3.960 غرامـا ذهبيا فى العهد المرابطى الى 4.729 غراما ذهبيا كما كان فى عهد عمر بن الخطاب وبقى الدينار مربعا الى عهد المرينيين حيث استدار مع احتفاظه بوزنه .

الجيـــش

وكان للموحدين جيش عتيد اقتلع جذور النور مانديين من افريقية بفضل اسطول قوى ساد البحار فكان اول اسطول فى المتوسط (حسب اندرى جوليان) واسست فى هذا العهد كتابة لديوان الجيش النظامى الذى كانت نواتـه الاولى هى ثلاثة ءالاف الطلبة الذين تم تدريبهم بالاضافة الى العلوم التقليدية على ركوب الخيل والسباحة والرماية والتجديف فى بحيـرة المسـرة (المنارة) وتضخم هذا الجيش بانضمام الاغزاز والاكراد والعرب الى ان بلغ نصف مليون .

ويمكن القول بان الموحدين اقاموا اقوى دولة عرفتها افريقيا الشماليـة والاندلس فكان عصرهم فترة ذهبية فى تاريخ الاسلام .

---

(1) المعجب ص . 155 .

2) المؤرخ ميليى فى كتابه حول الموحدين

الفصل السادس عشر

انهيار الامبراطورية الموحدية

بعد وفاة المنصور خلفه ولي عهده محمد الناصر لدين الله وتجددت بيعته (عام 595هـ) وكان رجلا شجاعا قوي النفس ولكن قلة دهائه لم تساعده على تخليص الدولة مما حاق بها من عوامل الانحلال لاسيما في افريقية حيث عجز الولاة الجدد عن اقرار النظام وايقاف زحف يحيى بن اسحاق الذي استولى على ممتلكات قراقوش بطرابلس واحتل المهدية وبلاد الجريد وتونس والقيروان وسيطر على مجموع اقاليم افريقية بعد اعتقال الوالي الموحدي ابي زيد عم الخليفة وانصاع للخلافة العباسية فلم يجد الامير بدا رغم نصائح كثير من مستشاريه بالمسالمة من استنفار الجيش بايعاز من سنده الوطيد عبد الواحد بن ابي حفص الهنتاتي لتحرير شرق المملكة فتوجه الاسطول عام 600 هـ بقيادة الامير يحيى ابن أبي زكرياء الهزرجي ووازاه الناصر برا الى افريقية حيث جلا ابن غانية عن تونس والقيروان الى قفصة بعد ان نقل امواله وذويه الى المهدية مع قريبه علي ابن الغاني وواصل الناصر سيره نحو المهدية فحاصرها بينما طاردت حشود القائد الهنتاتي يحيى المسوفي المتحصن في جبل تاجورة (باقليم قابس) مع رهائن العرب فأوقع بفلوله وحرر والي افريقية الموحدي وقتل جبارة اخ ابن غانية وطال حصار المهدية فاستأمن ابن الغاني وفتحت المدينة (602هـ) واستعاد الموحدون مجموع افريقية وانتصب الهنتاتي جد الحفصيين واليا عليها فركز الخليفة بذلك سلطة الحفصيين في تونس قبل ان يعود الى حاضرة ملكه (604هـ)

غزو الجزر الشرقية : وانفسح بانهيار بنى الغانية مجال تحرير جزيرة ميورقة التى استعصت على المنصور فنازلها الاسطول الموحدى بامرة كل من عم الامير ابى العلاء وابى سعيد بن ابى حفص وقتل واليها عبد الله اخو ابن غانية وولى عليها عبد الله الكومى الذى اسندت اليه بعد ذلك اميرالية الاسطول وتوالى على ميورقة ومنورقة بعد ابى زيد عم الخليفة عاملان نيفا وعشرين سنة الى ان احتل ميورقة ملك اراكون عام 627هـ ــ1230 م ٠

وقعة العقاب : 609 هـ ــ 1212 م ٠

وعند ما كانت تتوارد أنباء غارات الفونس على ثغور الاندلس ثار ابن الفرس الاندلسى فى جزولة ومحمد بن عبد الله بن العاضد (آخر خلفاء الشيعة بمصر) فى ورغة (حوز فاس) فقتل الدعيان وحشد الامير جيشا كثيفا عبر به من قصر المجاز (القصر الصغير) عام 607 هـ الى طريف حيث تجمعت مآت الآلاف من الجند فاتجهت الى اشبيلية تبث الرعب فى طريقها ومنها الى قشتالة (608هـ) فاستنفد بعض قواه فى محاصرة حصن سلبطرة بايعاز من وزيره ابن جامع فاهتبل الفونس تضجر الجيش واقتحم قلعة رباح التى كانت امنع الحصون واصطدم بالناصر فى حصن العقاب (15 صفر 609هـ ــ 1212 م) وكان الجيش الاندلسى قد حقد على الخليفة الانصياع لوزيره الذى قتل ابن قادس لفراره من قلعه رباح وعزل قوات العدوة الشمالية عن الموحدين فجلا هذا الجيش عن ساحة القتال بعد ان استشهد المتطوعون فى الطليعة وانغمر العرب والبربر فى معترك مختل مالبثوا ان انزاحوا عنه فبقى الناصر فى قبته الحمراء بقمة الهضبة يحميه حشمه من العبيد وصمد الخليفة فى كبكبته المزجاة ولكنه اضطر الى التراجع فى مقدمة العبيد وكتائب الفنش تتعقبهم برماحها ولم يكن هذا النصر الاسبانى نتيجة قوة خارقة فى الجيوش المسيحية التى اذكى حماسها بطل الصليبية روذريك اسقف طليطلة ومؤسس كتدرائيتها الذى نظم المقاومة بقدرما استغل نتائج الحضارة العربية لتعزيز اللسان اللاتينى الذى كانت لغة القرآن والعلم قد استأصلت معالمه وطاف بفرنسا وايطاليا واسبانيا لاقرار الهدنة بين الدويلات المسيحية بالشمال والحصول على نداء صليبى من البابا اينوسان الثالث *Innocent III* بل ان هزيمة المسلمين تمخضت عن تخاذلهم بالرغم عن جيوشهم التى بذت بعددها وعددها قوات الخصم وكانت وقعة العقاب ضربة قاسية انهارت بها مقومات الامبراطورية الموحدية ٠

وما لبث الامير ان عاد الى مراكش منحل الشكيمة محطم المعنوية فعقد ولاية العهد لولده يوسف المنتصر الذى دعت له منابر المغرب والاندلس وقبع الشيخ المنهزم فى عقر قصره الى ان مات فى السنة التالية (شعبان 610هـ) غما او تسميما فى غمرة ملذاته وكان الخليفة الجديد صغير السن لم يزد عمره على ست عشرة سنة فاستبد بالامر الوزراء الذين تواطأوا ضد أبيه وتقاعس عبد الواحدالحفصى عن البيعة فى افريقية (وكان ممن نصح الناصر بعدم الجـواز الى الانـدلـس) ووزعت المملكة بين امراء الاسرة (اسحاق والد عمر المرتضى بفاس واعمام الامير اسحاق بن المنصور فى اشبيلية ومحمد فى بلنسية وشاطبة وعبد الله فىورسية ودانية) ولم يعرف الاسبان كيف يستغلون هذا النصر لتنظيم حملة منسقة ضد الاندلس الواهنة كما أن قواد الفردوس المتخاذلين لم يستطيعوا تحقيقالانتفاضة اللازمة لتدارك الامر فظل الخلاف ينخر كيان الامبراطورية الموحدية طوال نصف قرن وهى متماسكة وقد اسفر انحلال المقومات العسكرية والروح السياسية عند مشيخة الموحدين عن انبثاق معسكرات فى البلاط يحركها وزراء اوادعياء الوزارة مما حدا عناصر من الكتلة الموحدية الى الانفصال كهسكورة وصنهاجة وشجع الحفصيين (1) على الاستقلال بتونس وزناتة وبنى عبد الواد وبنى زيانبالجزائر وبنى مرين على الزحف على الشمال بينما تمردت القبائل العربية فى سهول المحيط الاطلنطيقى وبنو معقل فى واحات الصحراء وغمرت الفوضى والاضطراب جميع أنحاء المغرب الوديع فخربت المدن وتضعضـع الاقتصاد ووهنت الفلاحـة واستقر الرحالة فى ارباض الحواضر يعيثون ويفسدون .

وكان الزحف المسيحى قد توقف فى الاندلس اثر وفاة الفنس الثامن بعد وقعة العقاب بسنتين وواجهت قشتالة واراكون ازيد من عشر سنين صعابا داخلية انفرد خلالها الليونيون بمحاربة الموحدين فانهزم المسلمون بقصر أبـى دانس (614هـ) وتخاذلت جيوش اشبيلية وقرطبة وجيان وغرب الاندلس رغم جهود المنتصر ، غير ان الزمان كان يخدم المسيحية اذ تمزقت وحدة الاندلس المسلمة بقيام امارات مستقلة بقيادة ولاة موحدين او امراء اندلسيين تجددت

---

(1) توفى عبد الواحد عام 618 هـ فبايـع الموحدون بافريقيـة ولده عبـد الرحمن ولكن المنتصر عزله وولى مكانه ادريس حفيد عبد المومن ثم ابنه عام 620 هـ ثم عبد الله بن عبد الواحد الحفصى الذى تغلب عليه أخوه يحيى فاستبد بالملك باسم الحفصيين (627 هـ) .

بها دويلات ملوك الطوائف للمرة الثالثة وظهر محمد الاحمر فى اركونة فامتدت مملكته الى جيان وباجة وقادس وغرناطة بمحالفة القشتاليين وتوطد محمد بن هود فى امارة مرسية باسطا نفوذه على قسط مهم من الاندلس ولكنه خضع بعد عشرين سنة لحماية قشتالة ثم سيطرتها بعد عقدين آخرين من السنين . وبذلك تفتت هذه الدويلات واحدة واحدة تحت ضربات فرديناند الثالث ملك قشتالة وجيم الاول أمير اراكون اللذين تكتلا لاقتسام النفوذ فاحتل هذا الاخير الجزر الشرقية وبلنسية وشاطبة واغنى أقاليم اسبانيا فأصبحت اراكون دولة متوسطية بينما اتجه فرديناند عقب تحقيق وحدة قشتالة وليون الى اقتحام ماردة وباجة وابذة وقرطبة وجيان ثم سفليات الوادى الكبير واشبيلية بمعونة محمد الاحمر وهكذا لم تكد تمر ثلاثون سنة حتى كان نصف الاندلس فى قبضة المسيحيين وظلت المملكة النصرية وحدها قائمة فى تبعيتها لقشتالة ولم يكن فى وسع الموحدين نجدة الاندلس المتفككة لما غمرهم من انهيار تدريجي وعاش مسلموا الاندلس تحت رحمة المسيحية التى فرضت عليهم مع اليهود زيا خاصا وحظرت الجهر بشعائر الدين فى حين افادت من معالم حضارتهم العربية التى تبلورت مظاهرها الاسبانية المغربية .

وانبرى بنو مرين منذ سنة 613هـ من صحراء فجيج مكتسحين بسائط المغرب فاوقعوا بعامل فاس فى الريف ثم استولوا على عمالة تازة وتوفى المنتصر فى غضون ذلك (620 هـ) وسط حديقة حيواناته بطعنة من بقرة شرود من أبقار الطعان فاستخلف ابن جامع والموحدون عم الامير الراحل الشيخ عبد الواحد ابن يوسف وكان عالما ورعا قبل الخلافة على كره منه فبايعه الناس عدا شرقى الاندلس حيث انتصب عبد الله المنصور بمرسية وتلقب بالعادل معززا بداهية الموحدين بن برجان الاصفر واخوته الثلاثة امراء قرطبة وغرناطة ومالقة فانقض الموحدون بمراكش على عبد الواحد المخلوع (621هـ) وخنقوه وخلص الامر للعادل باستثناء تمرد البياسى احد حفدة عبد المومن الذى تملك بلقب الظافر فى قرطبة وجيان وحصون الثغر الاوسط وتحالف مع المسيحيين فى مقابل التنازل عن بياسة وقيجاطة لمقاتلة ادريس نجل المنصور الذى انهزم فى اشبيلية امام عشرين الف جندى مسيحى وما لبث العادل ان عزل بتواطؤ عرب الخلط وبربر هسكورة رغم التفاف اهل تينمل وهنتاتة حوله فانتصب ادريس باشبيلية اميرا وتلقب بالمامون (624هـ) وخنق العادل بمراكش على يد من بها من الموحدين بعد

ان رفض التنازل عن العرش وكانت الروح القومية لدى هؤلاء المشيخة قد تهلهلت وفوضناهم النفسية قد طمت فما لبثوا ان نكثوا العهد وبايعوا الفتى يحيى بن الناصر وهو ابن 16 سنة فانضمت اليه افريقية وسجلماسة بينما التف حول المامون جزء من الاندلس مع فاس وتلمسان وسبتة وبجاية فحالف ملوك قشتالة مقابل التنازل عن عدة حصون وعبر البحر بخمسة عشر الف فارس مسيحى علاوة على العرب زاحفا نحو مراكش وتوالت في غضون ذلك على الحاضرة غارات الخلط والهسكوريين الموالين للمامون كما ثار محمد ابن ابى الطواجين الكتامى المتنبى بغمارة (625 هـ) ومحمد بن يوسف بن هود الجذامى بسرقسطة فى نفس السنة حيث دعا للمستنصر العباسى وما كادت تصل انباء زحف المامون حتى فر يحيى الى تينمل (626 هـ) وجدد أشياخ الموحدين البيعة للمامون الذى دخل مراكش بعد ان قتل جنود يحيى ولعن المهدى على المنبر ودعاه بالغوى المذموم بدل الامام المعصوم ومحا اسمه من النقود ودورها واستأصل البربرية من الاذان واعدم اشياخ الموحدين الناكثين وسمح للمليشية المسيحية ببناء كنيسة اصبحت نواقيسها تدق بمراكش وطفق يحيى يغير بين الفينة والفينة على العاصمة فهدم الكنيسة وقتل اليهود وابتز اموال القصر فى الوقت الذى كان المامون محاصرا فى سبتة أخاه عمران المؤيد الذى فر الى ابن هود فنصبه بالمرية واستعاد سبتة وتوفى المامون بوادى العبيد وهو فى طريقه غما ونكدا فى اخر يوم من عام 629 هـ وجعلت الظروف القاسية من هذا العالم الشهم والخطيب المفوه والمحدث الراوية عنصرا اكتمل به انحلال الدولة وانهيارها .

فترة الفوضى : ثم بويع ابنه عبد الواحد الملقب بالرشيد أول سنة 630 وعمره لايتجاوز الاربع عشرة وذلك بتواطؤ سفيان وهسكورة والجيش الافرنجى وأمته حباب الاسبانية أم الامير التى استنفرت قواد هاته الفئات فافتتحت مراكش وفر يحيى مع فلوله المنهزمة وتعزز الرشيد بعمه سعد ابن المنصور واستمرت القلاقل فى الجنوب فطارد الرشيد يحيى بهزرجة ثم سجلماسة وامن الموحدين المشغبين واعاد المراسيم المهدوية ولكن تنكيله بقادة الخلط حداهم الى الانتقاض والمناداة بخلافة يحيى الذى زحف من جديد على مراكش فاستعادها فى حين توجه الرشيد عن طريق الاطلس الى سجلماسة فملكها (362هـ) وكان صيت المغرب قد بدأ ينهار فى الخارج مما شجع أسطولا جنويا على محاصرة سبتة وفرض غرامة أربعمائة ألف فى مقابل الافراج عنها وكان العهد قد بعدبين المغرب وهذه الغارات

الافرنجية على ثغوره لان ادعياء الملك كانوا فى شغـل شاغل بتطاحنهـم حيث زحف الرشيد مرة ثانية على مراكش فى جيش سفيان واقتحـم المدينـة وفـر قادة الخلط الى ابن هود فاستنجد يحيى ببنى معقل الذين اجاروه ثم قتلوه قرب تازة فخلص الامر للرشيد الذى انتزع فاس من بنى مرين وقد حاول ابن هود اقتحام سلا فى اسطول وجهه لمنازلتها ولكنه فوجىء بانضمام الاشبيليين واهل سبتة الى الرشيد (635 هـ) وكذلك محمد بن يوسف ابن الاحمر الذى التف حول ابى زكرياء الحفصى ثم بدا له فعاد الى الحظيرة الموحدية (636 هـ) غير ان بنى مرين توالت انتصاراتهم على جيوش الرشيد الذى توفى غريقا فى احد صهاريج مراكش (640هـ) فبويع أخوه أبو الحسن السعيد الملقب بالمعتضد الذى سعى معززا بالقبائل العربية لاسترجاع السلطة الموحدية بالمغرب والجزائر ولكن الحفصيين كانوا قد استولوا على سبتة وسجلماسة التى هب السعيد لفتحها مع الشمال وبينما كان فى زحوفه عام 645 هـ نحو تلمسان وافريقية تعقب ابن عبد الحـق المرينى الى تازة حيث تنازل وانضم الى الموحدين لمقاتلـة يغمراسن فى أعقـاب السعيد الذى طعن طعنة قاتلة فى التحامه ضد بنى عبد الـواد (صفر 646 هـ) وتراجعت جيوشه مفلولة وكان الامير المرينى فى بنى يزناس فاغتنـم الهزيمة وقتل عبد الله بن السعيد ، وبينما عقد الموحدون بمراكش لعمـر المرتضى والى رباط الفتح معززا بأشياخ العرب استولى المرينيون على تازة ومكناسة ثـم فاس فاقتطعوا بذلك غرب البلاد عن جنوبها الذى ظل تحت نفـوذ المرتضى من أبـى رقراق الى السوس (647 ـ 649 هـ) وكان عرش المملكة بالاندلس قد انتقل قبـل ذلك بسنتين من اشبيلية الشهيدة الى دولة حاضرة بنى الاحمر وحاول المرتضى استرجاع عمالة فاس ولكن جيوشه التى احتوت على عشرات الالاف من الفرسان ولت الادبار تاركة الشمال للرينيين وسبتة للعزفيين وطفق بنو مرين يوسعون رقعة نفوذهم فى السنوات التالية فاحتلـوا سجلماسة (655 هـ) ثـم انسابت جيوشهم فى تامسنا الى ام الربيع وبقى المرتضى متأرجحا بين على بن يدر الثائر بسوس وبين المرينيين الذين ما لبث أميرهم يعقوب بن عبـد الحق ان هاجـم حاضرة مراكش عام 662 هـ فى عراك هلك فيه ولده عبد الله وأسفرت هزيمـة الموحدين عن رضوخ المرتضى لاتاوة سنوية ثم انتقض أبو دبوس المومنى قائـد جيوش المرتضى على سيده ولحق بيعقوب بفاس يستنجده فامده بالرجال والعتاد وبايعه العرب والهساكرة والازموريون وعرج على مراكش فاقتحمها على غرة من أميرها أوائل سنة 665 هـ ومر المرتضى يتنقل من هنتاتة الى كدميوة ثم شيشاوة

الى ان قتل أواخر ربيع الثاني من نفس السنة ففقد المغرب في شخصه ءاخر زهاد الملوك الموحدين الذين عرفت البلاد في عهدهم رغد عيش ورخاء بال بالرغم عن الثورات المتسلسلة .

واستقل أبو دبوس الواثق بالله والمعتمد على الله بالامر في مملكة مراكش ونكث مهادنة يعقوب المريني الذى هب لمناجزته فاستصرخ أبو دبوس بيغمراس ابن زيان الذى اضطر بغاراته الامير المريني الى القفز الى الشمال لاستئصاله ثم العودة في السنة التالية الى حاضرة الجنوب ولكن أبا دبوس تحرك لمقاتلته وهو لا يزال في أم الربيع فكر راجعا الى مرابض فوال والموحدون يلاحقونه وولى يعقوب المريني وجهه فجأة شطر أبي دبوس لينزل بجيشه هزيمة منكرة صرع فيها ءاخر خلفاء الموحدين واستسلمت مراكش (668 هـ) وفر فلول الموحدين الى تينمل حيث بايعوا اسحاق المرتضى الذى اعتقل وقتل بعد سنوات (674 هـ) فاكتمل انقراض الدولة المومنية التي اقامت حول مراكش امبراطورية شامخة البنيان وطيدة الاركان شملت الاندلس وافريقية والصحراء الى السودان .

الفصل السابع عشر

المرينيون وتقلص الحدود المغربية

لعبت الطبقة الاولى من زناتة دورا اساسيا هاما فى القرون السالفة فملك المغراويون اقليم فاس وبنويفرن سلا وانبرت عناصر من الطبقة الثانية فاستقر منهم بنوعبد الواد بتلمسان والجزائر وبنومرين بالمغرب الاقصى وكان هؤلاء يعيشون فى فيافى الصحراء بين سجلماسة وفجيج والملوية وربما انتجعت ظواعنهم الكلأ فى الزاب بالمغرب الاوسط وشارك بعضهم فى غزوة الارك بجانب المنصور الموحدى غير أن هزيمة العقاب (609 هـ) وتضعضع العمران وانتشار الاوبئة وانحلال الحكم فى عهد المنتصر شجع الرحالة المرينيين على التوغل فى البسائط الثرية التى أفنى الحدثان كثيرا من قطانها وفرسانها حتى وصلوا الى الريف وهزموا الموحدين(613 هـ) بامرة عبد الحق وتعززوا باسلاب الخصم وسلاحه فى اقليم تازة ورغم استشهاد عبد الحق فى صراع مع عرب رياح انتصر المرينيون وشردوا فلول العرب والتفوا حول ابى سعيد عثمان الذى والى غاراته على القبائل من الملوية الى فاس والقصر الكبير والهبط فارضا عليها الاتاوات الى ان قتله علج عام 638هـ فخلفه اخوه محمد مقتفيا اثره فى توظيف المغارم واكتساح البلاد وقد انهزم المرينيون فى مناوشات دارت عام 642هـ بين جيش ابى معرف بن عبد الحق وقوات الخليفة الموحدى السعيد فقتل الامير المرينى بطعنة احد الاعلاج الذين تعززت بهم الكتائب المرينية وما لبث أبو بكر بن عبد الحق ان انبرى فى سيل عارم من الاجناد المرتبة لامتلاك الحصون داعيا بمكناسة الى ابى زكرياء

الحفصي امير افريقية وشعر السعيد بان الامبراطورية الموحدية بدأت تتقلص فزحف من مراكش في جيوش كثيفة (645هـ) صوب تلمسان وافريقية وانحاز المرينيون الى الريف ثم بايعوا الخليفة في تازة وانتقضوا بعد مقتله في تلمسان عاثين في بسائط الملوية ففتحوا مدينة فاس(646هـ)ووطدوا شمال المغرب وشرقيه فازدهر الاقتصاد واستتب الامن واندرج المومنيـون فـي جيش المرينيين مـع ثلة من الاعلاج تحت ولاية السعود الذي مالبث الفاسيون ان قتلوه وعاد ابوبكر من منازلة فازاز الى حصار فاس التي دعت من جديد للمرتضى ثم قتال حليفـه يغمراسن في ايسلي قرب وجدة فانهزم بنوعبد الواد واستأمن اهل فاس مقابل مائة الف دينار فاتحين أبوب المدينة للامير الظافر (648هـ(ودخل الرعب القلوب بعد اعدام المشغبين وفي ضمنهم القاضي المغيلي وبعد احتلال ابي بكر لمصب أبي رقراق (649هـ) انتزعها منه المرتضى الذي استنفر عشرات الالاف من العرب والبربر لمصادمة بني مرين في البهاليل(ناحية فاس)فمنيت انتقاضاتهم بالهزيمة (653هـ) وتعزز سلطان الدولة النامية بالغنائم والاسلاب التي مكنتها من احتلال تادلا ثم مطاردة يغمراسن في سجلماسة ودرعة واخراجه منهما فانبسط النفوذ المريني وعاد الامير الى تفقد هذه الثغور حيث مات بعد رجوعه لفاس(656هـ)فبويع ابنه أبو حفص ولكن مشيخة بني مرين كانت اميل الى يعقوب بن عبد الحق

يعقوب بن عبد الحق (657 ــ 685 هـ) ــ (1269 ــ 1286 م)

وقد امتاز هذا الامير الشهم بحلمه وجوده وتواضعه وتقواه فكـان بحق ابرز امراء بني مرين ميمون الطالع لم تنكس له راية ولم يهزم له جيش فانتصر مرارا على بني عبد الواد وحرر سلا من الافرنج المتواطئين مع يعقوب بن اخيه عبد الله (658هـ) حيث انتقل من تازة الى مصب أبي رقراق في ظرف أربع وعشرين ساعة ثم هادن بني زيان غب احتلال تامسنا وحاضرتها انفا (الدار البيضاء) وقد ثار بنو ادريس في هذه الفترة معتصمين بجبال غمـارة ولكن سياسة الحلـم والاسترضاء التي نهجها يعقوب ازاء ذويه حدته الى العقد لاحد الامراء المشغبين على اول جيش مريني عبر عام 660هـ الى الاندلس بينما زحف في نفس السنة الى جبل جيليز بحاضرة الجنوب لمقاتلة المرتضى فاصطدم بقائده ابي دبوس واضطر بعد مقتل نجله عبد الله الى التراجع لوادي ام الربيع حيث انهزم ابن وانودين قائد الموحدين ونشب خلاف بين المرتضى وابن عمه ابي دبوس فانضم هذا (عام 661هـ) الى المرينيين الذين جهزوه بالجند والعتاد لفتح مراكش وخلع

المرتضى ثم قلب ابو دبوس ظهر المجن فاستنجد بيغمراسن ضد ولى نعمته يعقوب الذى قفز من الحمراء الى تلمسان فاقتص من بنى عبد الواد (666هـ) وقتل عمر بن يغمراسن وكر على الجنوب عبر تادلا ووادى العبيد الى ان بلغ الحوز فاندفع أبو دبوس يطارد جيش يعقوب وهو يستجره نايا به عن مرابض قواه فانقلب المرينيون على غرة واحتزوا راس الخليفة الناكص (668هـ) ودخلوا مراكش ظافرين فاستوسقت المملكة المرينية بالحاضرتين مع درعة والسوس وكان الامير المرينى يظهر الانصياع للمستنصر الحفصي ويكاتبه ويهاديه وبعد الابلال من وعكة شديدة بسلا عقد ولاية العهد لولده عبد الواحد فانحاز بنو عبد الحق الى غمارة ثائرين على عمهم فاسترضاهم الخليفة من جديد وامنهم ولكن معظمهم فضل اللجوء الى الاندلس حيث امسوا اشواكا فى حلوق الاسبان

واستعرض يعقوب حشوده العربية (سفيان والخلط وذوى حسان والشبانات ورياح والهبط) فى طريقه الى تلمسان فبادر باستصلاح الواديين والمغراويين الذين ابى اميرهم يغمراسن الا النزال فالتحم الفريقان فى ايسلى وانكسرت طليعة الاعلاج وسار السلطان فى اعقاب الفلول المنهزمة فهدم وجدة (670هـ) واكتسح سهول تلمسان ونزل بنو توجين خصوم يغمراسن من وانشريس فنسفوا المحاصيل وحرقوا القرى والضياع وطرد بنو عبد الواد من سجلماسة

فتح طنجة وسبتة

ولم يقر للامير قرار رغم فجيعته فى ولى عهده (671هـ) حتى انتفض لتحرير طنجة وسبتة وكان ابو القاسم العزفى قد استبد بالامر فى سبتة وظلت طنجة تابعة مدة سنة الى العزفيين غير ان واليها يوسف الهمدانى المكنى بابن الامير مافتيء ان خطب للحفصيين ثم للعباسيين واستبد اخيرا بالامر ثم صرع فاستولى العزفيون على المدينة وانتهى الصراع باستسلام طنجة بعد الحصار المرينى (672هـ) ثم سبتة لاداء خراج سنوى

وحدة البلاد

وهكذا استكملت وحدة البلاد فى حدودها الافريقية ووجد المرينيون فى المغرب الجديد ثروة فى الرجال والسكان واستقر العمران وانتشر الرغد وازدهر الاقتصاد فى الحواضر الا ان القبائل العربية اصبح لها ضلع فى تركيز الحياة

السياسية والاجتماعية والسيطرة على الكتل البربرية ثم التسرب الى جهاز الدولة بالمصاهرة والاقطاعات التى استدروا بها جبايات الحاضرة والبادية وتمخض استيطان البدو والاعراب فى السهول والواحات عن اتجاه اجتماعى جديد فى المجتمعات البربرية عدا الاطلس الذى احتفظ باصالته واستقلاله الذاتى بالرغم عن بربرية الدولة فى حين ظهرت الحياة الظاعنة حتى فى المراكز الفلاحية التى كان يغلب عليها الاستقرار وتوطدت اللغة العربية فى اصقاع متنائية وبذلك تعززت الوحدة السياسية رغم ظهور العناصر العربية الجديدة التى ملأت ازيد من نصف البلاد والتف معظمها حول يعقوب الذى امسى اقوى ملك فى الغرب الاسلامى حيث ارتكز على العرب وزناتة معا فى قيادة جيوشه وتوطيدها

السياسة الاندلسية

وكانت مطامح الفونس العاشر فى غزو الثغور الافريقية لم تتبلور بعد لان غاراته لم تكن تعدو جولات لنهب السواحل المغربية مع تضييق الخناق على المملكة النصرية وحصرها فى اقليم جبلى تحت حماية قشتالة وقد اتخذ محمد الفقيه ابن الاحمر فى هذا الساحل الوعر مدينة غرناطة حاضرة لامارته وشيد بها قصر الحمراء واستعان اول الامر بالامراء المرينيين اللاجئين اليه ولكن تكالب القشتاليين وانبثاق الروح الصليبية حدته استجابة لوصية والده الى ايفاد مشيخة الاندلس للاستنجاد بيعقوب وكان الخليفة تواقا الى الجهاد فهادن يغمراسن وهب من فاس (673) مستعينا بأسطول العزفى لاجازة ابنه ابى زيان فى طليعة الجيش الى طريف حيث والى غاراته التمهيدية على حصون العدو فى شريش ثم اجاز الامير فى خمسة آلاف من المرينيين (674 هـ) مع حشود عربية وبربرية تجمعت فى زندة وطريف الى الجزيرة الخضراء وخف ابن شقيلولة امير مالقة الى اقتباله فهب الخليفة لمواجهة مرابض الخصم فى الوادى الكبير مقدما طلائع جنده بامرة ولده يوسف وكان الجو مكهربا بين ابن الاحمر وأصهاره بنى شقيلولة الذين ساعدهم الفونس العاشر على الاستقلال بالامر فى مالقة ووادى آش وقمارش هادفا الى تقليص ظل المملكة النصرية وفوجىء المسيحيون بهجوم عارم فى استجة قتل فى غضونه زعيم قرطبة نونة *Dun Nuna* (الدون نونيو) الذى طالما نكل بالثغور الاسلامية فبعث رأسه الى ابن الاحمر الذى داهن حفظا للمستقبل باعادته مطيبا الى ذويه وتكدست الغنائم والاسلاب واستطال النهب والتخريب الى

اشبيلية وقرطبة وبعد استجمام الامير خلال الشتاء في مدينة البنية المقامة جنوبي الجزيرة الخضراء عاد الى المغرب بعد ان قتل جنوده الزناتيون اسقف طليطلة واسفرت احدى المعارك عن هلاك ولي عهد قشتالة وتنصيب أخيه سانجة *Sancha*

وبعد جولة تفقدية في سوس استنفر الخليفة المتطوعين من جميع القبائل واتجه اوائل عام 676هـ من جديد نحو قصر المجاز (القصر الصغير) من حيث ابحر الى طريف واقتبله برندة ابنا شقيلولة فزحف الجميع نحو اشبيلية حيث انهزم جيش الجلالقة فاحتل السلطان بعض الحصون ثم والى غاراته على شريش وقرطبة ولم يكن يهدف الى أزيد من هجمات ابادية اقتصاصا من القشتاليين الذين عاثوا فسادا في ثغور المسلمين وشارك ابن الاحمر على مضض في حملة على ناحية قرطبة وجيان فضاق الخناق على أنصار الصليب وانعقد الصلح وكان الخليفة حفيا بابن الاحمر فصاحبه الى غرناطة ومنها نقل الى الجزيرة وفي غضون ذلك مات عبد الله ابن اشقيلولة فتنازل ابنه محمد عن مالقة للمرينيين مخافة وقوعها في قبضة عمه ابن الاحمر ودخلها الامير المريني في موكب حافل ثم عاد الى المغرب في فاتح 677هـ

ولكن ابن الاحمر ظل مغاضبا للخليفة لموالاته لابني شقيلولة وخوفا من طمع الدولة المرينية الفتية في المملكة النصرية فحالف الجلالقة لمهاجمة الجزيرة الخضراء في اسطول بامرة الدون بيدرو *Don Pedro* ثم اغراء والي مالقة لتسليمها والتواطؤ مع يغمراسن لمهاجمة يعقوب المريني من الخلف وتوالت الانباء على الخليفة وهو بجنوب المغرب يقمع الثائر مسعود السفياني فكظم غيضه وعقد الوية الجهاد لولي عهده يوسف واستنفر القطع البحرية المرابطة في سلا وانفا وبادس وسبتة حيث تجمع منها اثنتان وسبعون اقلعت في ربيع الاول (678هـ) وكان الاسطول القشتالي مركبا من أربعمائة قطعة غير ان رجالها كانوا موتورين لزهادة الاجور وضعت التموين وانحلال بنياتهم من الجوع فتساقطوا تحت ضربات المدرعات المغربية وفر جنود البر وحررت الجزيرة وهادن يوسف ملك قشتالة وما لبث يعقوب أن عاين في طنجة مظاهر المؤامرة النصرية ففضل الزحف أولا على تلمسان لقمع يغمراسن بمساعدة بني توجين قبل العودة الى مراكش حيث بلغه عام 681هـ استنجاد الفونس العاشر ضد ولي عهده سانجة الذى استعجل موت والده وحالف بني نصر للنزو على عرشه

فاهتبل الخليفة هذه الفرصة وخف على عجل للمرة الثالثة الى العدوة واقتبله

الفونس في استجة واستقرضه مائة ألف دينار مقابل ارتهان تاج الملوك الجلالقة وحاصرا معا سانجة في قرطبة ثم وجه السلطان السرايا للعيث في جيان وطليطلة ومجريط وهاجم النصريين في الجنوب فاحتل الحصون الغربية وحاصر مالقة وهناك اضطر ابن الاحمر الى مصالحة الخليفة مستعينا بالامير يوسف وانعقد الصلح وبعد زحف ابادي جديد عاد السلطان الى المغرب (683 هـ)

الجواز الرابع الى الاندلس (684 هـ ـ 1285 م)

وفي هذه الغضون مات الفونس العاشر (1) فانتصب ابنه سانجة ملكا على قشتالة وجس يعقوب نبض الامير الجديد فلاحظ عنادا حداه الى تجشم اعباء جواز رابع فوصل الى طريف في صفر 684 هـ وكان القشتاليون قد استعانوا بجيش الاراكون للحيلولة دون عبور الخليفة الى العدوة ولكن يعقوب تمكن من محاصرة شريش وبث سراياه فاحرزت النصر تلو النصر في اشبيلية وقرمونة وحصون شتى منها حصن مرتقوط وتوالت الجيوش من المغرب بامرة يوسف لتعزيز الموقف وقد حاول الاسطول القشتالي قطع خط الرجعة على المرينيين فاستقدم الخليفة ستا وثلاثين قطعة بحرية كانت تحمي ثغور سبتة وطنجة والرباط وطريف وتوالت عليه وفود سانجة بالجزيرة للمهادنة فقبل ذلك بشروط منها الحصول على الكتب العربية المودعة في الخزائن المسيحية وعقد لابنه ابي زيان منديل بعد أن أوصاه برعاية حدود المملكة النصرية وتوفي بقصره بالجزيرة الخضراء في 22 محرم عام 685 هـ (1286م) فنقل الى شالة حيث دشنت المقبرة المرينية عام 682 هـ بدفن أم العز والدة يوسف وهكذا لم تسفر حركات الجهاد المتوالية ضد قشتالة عن أي تعديل في التخوم القائمة بين الاسلام والمسيحية اذ تمخضت الانتصارات عن اختضاد شوكة قشتالة وتوطيد مملكة غرناطة التي واصلت الاضطلاع برسالة خالدة في الفردوس المفقود

الناصر أبو يعقوب يوسف 685 ـ 706 هـ 1286 ـ 1307 م .

كان يوسف أبيض اللون حسن القد مليح الوجه جوادا شهما مهيبا جددت بيعته في الجزيرة فدشن عهده باجزال العطاء وتسريح السجناء والغاء المكوس

---

(1) الفونس العاشر هو الذي يسميه الناصر في الاستقصاء هراندة بن الاذفونش .

والقبالات والرتب والتنازل عن زكوات الفطر والضرب على ايدى الظلمة وتحرير الرعية من الضيافة الاجبارية ورعاية امن الطرق وقد تنازل لابن الاحمر عن ثغور الاندلس عدا الجزيرة ورندة وطريف وجدد السلم مع سانجة

سلسلة الثورات : ولم يكد السلطان يرجع الى فاس حتى انتقض عليه محمد ابن ادريس بن عبد الحق بورغة فبعث لمحاربته اخاه ابا معرف فانضم الى الثوار ثم عفا عنه الخليفة واعتقل الاخرين وهم فى طريقهم الى تلمسان فسيقوا الى تازة واعدموا فى باب محروق بفاس (باب الشريعة القديمة) وفى غضون السنة التالية تمرد عرب معقل بصحراء درعة وسوس وكذلك هسكورة فانهزموا تحت ضربات اثنى عشر الف فارس ونكب اولاد محلى وفى ضمنهم والى مراكش الذى هلك فى السجن وخلفه بالحمراء الامير ابو عامر نجل السلطان بمساعدة احد الموالى وهو محمد بن عطو الجناتى الذى ما فتىء ان جر الامير الى الثورة وقاتل والده ولكنه انهزم وفر بمال الدولة الى تلمسان حيث آواه عثمان بن يغمراسن فأمنه السلطان بدافع الحنان واعاده الى ولاية مراكش وواجه الامير الزيانى طلب تسليم الجناتى بالرفض فتأزمت العلاقة بين البلدين وكانت هذه الظاهرة المتبلورة فى العفو عن الادعياء نتيجة ضعف عاطفى نخر كيان الدولة تدريجيا بتسلسل التمردات العائلية

بنو وطاس فى تازوطا

بنو وطاس من الفصيلة المرينية دخلوا الى المغرب مع بنى عبد الحق واستقروا بالريف وكانت الرياسة فيهم لبنى الوزير الذين ينتسبون ليوسف بن تاشفين وقد وجدوا فى تازوطا معقلا حصينا وكادوا يفتكون باللاجئين اليهم من بنى مرين عندما كانوا مطاردين من طرف السعيد الموحدى فأقاموا حامية بهذا الحصن نصب يوسف على رآستها ابن أخيه فطرده عمر بن يحيى بن الوزير (691هـ) وبعد انهزام وزير السلطان عمر بن السعود هب بنفسه مصحوبا بعامر بن يحيى اخ عمر الثائر الذى ضاق خناقه ففر الى تلمسان فقلب عامر ظهر المجن وتمنع فى الحصن المتمرد ثم استشفع أمير مالقة فرج بن اسماعيل بن الاحمر الذى وفد على السلطان فى اسطول رابض فى مرسى غساسة (قرب مليلة) فعفا عنه الخليفة ولكنه حاول اللجوء الى تلمسان بدل الاندلس فنكل السلطان بمن ظفر بهم من ذويه وفتح تازوطا

ابو عامر من جديد

وكان ابناء الامير أبى بكر بن عبد الحق قد أوجسوا خيفة فانحازوا الى تلمسان ولكن السلطان أمنهم فاعترضهم ولده أبو عامر فى طريق العودة بالملوية فقتلهم جميعا ثم لجأ الى غمارة فرارا من غضب والده وظل هناك بضع سنوات الى ان مات عام 698هـ فنقل جثمانه الى فاس

بنو الاحمر

وبينما كان يوسف يحارب بنى عبد الواد(689هـ) بتلمسان حيث اباد الخضراء اقتصاصا من عثمان بن يغمراسن ـ نقض سانجة عقود السلام فابحر يوسف الى العدوة بعد أن مهد قائد الحاميات المرينية الطريق بغارات هوجاء ضد قشتالة فالتحم الاسطولان فى بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) ونزل الجيش المرينى بعد انهزام القطع القشتالية لمواصلة الغارات على اشبيلية وشريش والعودة الى المغرب (691هـ) وهناك تآمر ابن الاحمر مع سانجة على اقتحام المسالح المرينية بطريف ومحاصرتها برا وبحرا فاستسلمت بعد اجهاد وعبثا استشرف لها الامير النصرى عوضا عن الحصون التى تنازل لسانجة مقابلها فخسر الصفقتين وكان يوسف قد لقيه بمربالة غداة تنصيبه على العرش وتنازل له عن معظم الثغور ترضية له وتعزيزا فندم على مابدر منه ووجه وفدا للاستعطاف بامرة فرج بن اسماعيل المذكور الى تازوطا فلم يسع السلطان الا العفو توطيدا لدعائم الجهاد فى الاندلس وما لبث ابن الاحمر ان عاد الى طنجة فى غمرة فرحه (692هـ) فوافاه يوسف بها واجزل بره وتنازل له عن الجزيرة ورندة والغربية وبقية الثغور علاوة عن وادى آش التى كانت لبنى شقيلولة الذين قطعهم يوسف بدلها عمالة القصر الكبير (687هـ) واستمرت هذه المصافاة حتى بعد وفاة محمد الفقيه (701هـ) وقيام نجله محمد المخلوع الذى ما فتىء ان حالف سانجة وأوعز(703هـ) الى ابن عمه فرج ابن اسماعيل باحتلال سبتة ونقل ءال العزفى الى غرناطة وقد تعزز الامير فرج بعثمان ابن ابى العلاء المرينى الذى رافقه الى المغرب وثار بغمارة واستولى على اصيلا والعرائش والقصر الكبير

بنو عبد الواد

وقد اصبحت مملكة بنى زيان موئلا للامراء المتشققين على الدولة المرينية

وقد نهج يوسف ووالده لحد الان سياسة التصالح ولكن تعنت عثمان الزياني دفع السلطان الى استيناف العراك ضده عام 698هـ حيث اوفد اخاه ابابكر فانضم اهل ندرومة الى المرينيين واستصرخوا يوسف ضد ابن يغمراسن فزحف لحصار تلمسان وأدار عليها سورا ثانيا وخندقا سحيقا وأحاطها بالمجانيق واستمر التطويق الخانق مائة شهر وفى عام 692هـ اختط يوسف بجانب السور قصرا ومسجدا وانتظم عمران هذه المدينة الجديدة المنصورة فى بحبوحة من القصور والبساتين والحمامات والفنادق مع مارستان وجامع ذى منار شاهقة وكانت قوات يوسف تغزو النواحي الشرقية فى هذه الغضون فاقتحمت كثير من مدنها مثل وهران ومستغانم وتنس وشرشال وانشريس ومليانة والمدية والجزائر وتنافس الحفصيون الذين انقسمت مملكتهم بين تونس وبجاية فى خطب ود سلطان المغرب الظافر الذى ورد عليه يوسف شريف مكة وبرد ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون احد مماليك الايوبيين بالهدايا والتهانى مع بيعة شرفاء الحرم المكى وقد انتحر عثمان بن يغمراسن غما لما منى بـه من هزيمة (703هـ) بينما استمر حصار تلمسان الى 706 هـ .

مصير يوسف : كانت اسرة وقاصة من يهود فاس تداخل الخليفة وتنادمه وبلغ من نفوذها ان تولى أربعة منها قهرمة القصر وسيطروا على مقاليد الدولة فشعر السلطان بوجهتهم الاستغلالية ونكل بمجموعهم عام 701 هـ وقد فسح كذلك فى البداية ابواب البلاط للخصيان فاندرجوا بين حرمه ولكنه ارتاب فى شأنهم آخر الامر فاعتقلهم وقتله عريفهم عنبر بطعنة نجلاء فى 7 ذى القعدة سنة 706 هـ فى المنصورة فنقل الى شالة .

أبو ثابت (706 ـ 708 هـ) ـ (1307 ـ 1308 م)

هو عامر بن الامير عبد الله الذى هلك بغمارة خلال انحيازه عن والده يوسف صحبة الناصر عند وفاته فاستغل خؤولته فى بنى ورتاجن ودعا لنفسه فبايعه أشياخ بنى مرين بينما شايع الوزراء والحشم الامير أبا سالم فاستنجد أبو ثابت ببنى عبد الواد لامداده بالسلاح مقابل رفع الحصار عن تلمسان واسترداد الحواضر المحتلة وقتل عمه ابا سالم وعم ابيه ابا بكر ولجأ اقرباؤه مذعورين الى غمارة واتجه هو نحو فاس 707هـ ولم يكد الجيش المرينى يبتعد عن المنصورة حتى درس التلمسانيون معالمها ثم واجه الخليفة فورة من الثروات وكان عثمان

ابن أبي العلاء لا يزال قابضا على شمال المغرب فثار أحد أبناء عم السلطان بمراكش وقتل الوالي واستولى على الاقليم ودارت بينه وبين جيوش الخليفة بام الربيع معركة انهزم فيها وعاد ادراجه الى الحمراء فقتل مرتزقة الفرنج وفر الى أغمات ثم هسكورة حيث سلمه زعيمها مخلوف الى السلطان الذى قتله تحت السياط مع ستمائة من الثوار صلبوا على سور القصبة جنوبى باب الرب كما اعدم نفس العدد في اغمات وفي هذه الغضون تمردت سكسيوة وحاحة ثم انصاعت بعد حملات عسكرية وكان العرب يعيشون في سهول الاطلنطيك بتامسنا فاستصحبهم السلطان الى انفا وقتلهم في حين صلب بالرباط فوجا آخر من الأعراب الموسومين بالحرابة وكذلك عرب رياح بالهبط.

غزو شمال المغرب : وبعد انهزام كتائب سلطانية في الشمال قرر الخليفة الاشراف شخصيا على العمليات في الريف والجبل فاقتحم حصن علودان وانتقل الى طنجة حيث نظم غارة شعواء (708هـ) ضد ابن أبي العلاء الذى التحق بسبتة المقتحمة من طرف بني الاحمر وقد اختطت تطوان من جديد كمركز لتنسيق الغارات وكان قد مر على بناء قصبتها في عهد يوسف نحو ربع قرن (685هـ)وبينما كان ابو ثابت يفاوض ابن الاحمر في تسليم سبتة وافته المنية في صفر عام708 فدفن بطنجة ثم نقل الى شالة .

وهكذا بدأ صرح الدولة ينهار بنشوء الخلافات وانبثاق الادعياء وتمرد قبائل الجنوب وعرب الساحل

أبو الربيع : (708 ـ 710 هـ) ـ (1308 ـ 1310 م)

وبعد وفاة ابى ثابت بويع اخوه ابو الربيع وهو لايكاد يبلغ العشرين من العمر فاعتقل عمه الدعى على بن زريقاء واجزل العطاء واسترضى الجيش بالاموال في تطوان ثم عاد الى فاس يتعقبه ابن ابى العلاء الذى هزم وفر الى الاندلس لقيادة الغزاة وكان الصلح قد أبرم مع ابن الاحمر وبنى عبد الواد وانتقض السبتيون على النصريين وطردوا حامية بنى الاحمر واقتحم قائد السلطان تاشفين الوطاسي المدينة (709هـ) فلم يسع أبا الجيوش نصرا بن محمد الا الرضوخ نظرا لتكالب القشتاليين ضد مملكته متنازلا للمرينيين عن الجزيرة ورندة وقد توطدت الرابطة بزفاف الامير الى أخت ابن الاحمر وبامدادات عسكرية تجهيزا للمجاهدين في العدوة وصادف الحال ورود بعثة من بنى نصر تظاهر احد رجالها بمعاقرة الخمر جهارا فجلده

القاضى أبو الحسن الزرويلى الصغير الذى حاول الوزير عبد الرحمن الوطاسى البطش به فثارت الجماهير وتدخل السلطان لاخماد الفتنة والضرب على ايدى اصحاب الوزير الذى اسرها فى نفسه وتآمر مع بنى عسكر وهم من شيوخ بنى مرين وقائد المليشية الافرنجية لخلع السلطان وتنصيب عبد الحق بن عثمان وانحاز المتآمرون الى تازة للدعوة للامير الجديد فطارهم السلطان الذى اعتل بعد استرجاع المدينة فتوفى فى آخر جمادى الثانية سنة 710هـ ودفن بحصن الجامع الاعظم الذى اسسه يوسف عام 692هـ وجهزه بالثريا النحاسية الرائعة التى مازالت قائمة الى الان وقد ازدهرت الحياة فى هذه الفترة فتغالى الناس فى مظاهر الترف لا سيما بالحواضر الكبرى مثل فاس حيث تضخمت أثمان العقارات وتنافس الاثرياء فى القصور المزخرفة بالزليجي والرخام والنقوش المختلفة وفى الازياء الحريرية الرائعة والخيول المطهمة وانواع الحلى والمجوهرات والطيوب والعطور غير ان البادية كانت قد افتقرت من جراء المضاربات فى المحاصيل وارتفاع مستوى المعيشة

ابو سعيد عثمان الاكبر (710 ـ 731هـ) ـ (1310 ـ 1331م)

كان هذا السلطان عالما جوادا ورعا امه عربية من الخلط وقد حاول ابو سعيد الاصغر عثمان بن يوسف اعتلاء العرش بعد وفاة ابن اخيه ابى الربيع ولكن الوزراء ومشيخة المرينيين اختاروا ابا سعيد الاكبر عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق الذى بويع بتازة فوجه ابنه ابا الحسن الى فاس الجديد للاستيلاء على ما فى القصر من ذخائر واموال وعتاد ثم اجزل الاعطيات وحرر الاسرى وخفض من المغارم والمكوس واسقط عن أهل فاس ضريبة سنوية

ثـــورات جـديـدة

ولم يكد الامر يستقر ببيعة اجماعية من بنى مرين والعرب والموالى حتى خف السلطان الى الرباط لتفقد الحال وتعزيز الاسطول ببناء قطع جديدة فى دار الصناعة بسلا وبعد اعتقال عدى الهسكورى الثائر فى الجنوب زحف السلطان نحو وجدة فاستعصت عليه ثم اتجه فى السنة التالية (714هـ) وفى طليعة جيوشه ولداه أبو الحسن وأبو على للاقتصاص من أبى حمو الذى ما زال يشجع الادعياء بايوائهم فتحصن فى عاصمته وكان أبو على (وأمه فرنجية) أحب الى والده رغم صغر سنه مما حداه الى تخصيصه بميزات الامارة وولاية العهد ولكنه لم يكد يصل الى

فاس حتى سولت له نفسه الانتقاض على والده الذى بقى فى تـازة وادعى الملك واصطدم بأبى سعيد فى معركة خرج خلالها السلطان وعاد الى تازة وولده يطارده فحاصر المدينة وتفاوض الطرفان فتنازل الملك الوالد عن العرش محتفظا بناحية تازة ولكن اعتلال السلطان الجديد غب عودته لفاس نفض الناس من حوله فطوق والده المدينة واسترجع الملك مسامحا أبا على الذى انتصب من جديد واليا فـى سجلماسة حين أصبح أخوه أبو الحسن مستشارا ووليا للعهد على غرار أخيـه وقد اظهر ابو على من ابهة الملك فى الصحراء ما اضفى على مملكته الصغرى طابع الاستقلال والروعة فأقام جهازا مخزنيا بدواوينه وجيشه معززا من طرف عرب معقل فى توسعة شقة مملكته باقتطاع توات وكورارة ثم درعة ومراكش (722هـ) حيث أعلن الحرب على أخيه أبى الحسن الذى هزمه فى أم الربيع ففر الامير الثائر الى سجلماسة ولكن قلب أبيه كان اعلق به من أن يختار غير العفو والرضى فأقره فى امارته .

سبتة : اما سبتة فان أبا سعيد عقد لابى زكرياء العزفى عليها منذ اعتلائه العرش (710هـ) ولكنه ما لبث ان استقل بالامارة وعاد الى نظام الشورى وعين عبد الحق بن عثمان قائدا للحرب ثم انصاع من جديد (716هـ) غير ان وفاة أبى زكرياء (720هـ) واضطراب الحال حدوا أبا سعيد الى احتلال المدينة (728هـ) واقرار مشيختها مع تعيين رجال على دواليبها .

الانـدلس : وانهماك الامراء المرينيين فى تمهيد وحدة البلاد واستئصال الادعياء والثوار شغلهم عن الاندلس نحو من ربع قرن اضطلعت خلالها ثلة من الامراء المهاجرين بوصل حلقات الجهاد ضد الجلالقة الذين حاصروا الجزيرة بينما طوق الاراكونيون المرية وزحف الدون بطرة *Don Pedro* نحو غرناطـة (718 هـ) محاولين جميعا فصل سواحل المملكة الاسلامية عن افريقيا وقد استطاع حماة المهجر من المرينيين بقيادة عثمان ابن أبى العلاء الافراج عن المرية وصيانة الحدود الغربية ولكن الجلالقة الذين احتلوا من جديد الجزيرة وواصلوا زحفهـم نحـو الشرق على طول الساحل ما لبثوا أن طردوا من مرابضهـم الجديـدة محتفظين بطريف وجبل الفتح واستصرخ المسلمون بأبى سعيد الـذى اشترط تسليـم شيخ الغزاة الثائر ابن أبى العـلاء فرفضـوا وانتصر هـذا الامير على جيـوش السليب فاسترجع غرناطة (719 هـ)

وهكذا تمكن المرينيون من استكمال وحدة البلاد وايقاف تيار بني عبد الواد الذين غير اميرهم ابو تاشفين عبد الرحمن بن حمو سياسته بالاتجاه نحو الشرق لاقتطاع بعض ثغور الحفصيين حيث هزم (729هـ) أبا بكر بن أبى زكرياء واحتل حاضرة تونس ولوح بتنصيب احد الادعياء الحفصيين اللاجئين اليه فاوفد الامير الحفصى ولده للاستنجاد بابى سعيد واستطاع خلال ذلك استرجاع عاصمته وانعقد الحلف والمصاهرة بين البلاطين فزفت الاميرة فاطمة بنت الملك الحفصى الى ابى الحسن (731 هـ)

واعتل أبو سعيد بالنقرس وهو يستقبل العروس بتازا فنقل الى فاس حيث توفى فى 25 ذى القعدة سنة 731 هـ فكانت نتيجة الصراع الذى استمر ثلاثة أرباع قرن هى توطيد المغرب الاقصى فى حدوده الضيقة .

* * *

الفصل الثامن عشر

ازدهار وانهيار

لعل أعظم ملوك بني مرين وأوسعهم نفوذا هو أبو الحسن الذى عقد له والده ابو سعيد ولاية العهد واسند اليه مراسيم الامارة منذ استقل اخوه ابو علي بالحكم واتخذ لنفسه شارة الملك بالصحراء وقد انتقل بعد بيعته بتازة الى فاس حيث اكتملت المصادقة على خلافته فبنى بالاميرة الحفصية وكان حفيا بأخيه فاتجه شخصيا الى سجلماسة لاقراره في ولايته ثم عرج على تلمسان للاقتصاص من ابى تاشفين بتعاون مع الحفصيين فاستقر بتا سالت قرب سيدى بلعباس واتصل حبل الدسيسة بين الامير الزياني وابي علي فثار هذا بايعاز ووعد من ذاك واحتل درعة ووصلت قواته الى الحوز فاضطر الخليفة الى العودة بعد ان أقر في حصن تاوريرت حامية عسكرية لمراقبة حدود المغرب الشرقية واستمر حصاره سجلماسة سنة كاملة حاول بنو عبد الواد خلالها الافراج عن المدينة التي سقطت في قبضة الجيش السلطاني (734هـ) فاعتقل ابو علي وقتل بفاس وعمره لايتجاوز سبع اوثلاثين سنة ثم اعاد ابو الحسن الكرة على المغرب الشرقي فاحتل وجدة وحواضر المغرب الاوسط (ندرومة ووهران ومليانة وتنس والجزائر) ثم احيا المنصورة واحكم الخناق على تلمسان ثلاث سنوات فاقتحمها (737 هـ) وكان مغراوة وبنو توجين قد انضموا الى بني مرين وساعدوهم على استكمال وحدة المغرب فانقرضت دولة بني عبد الواد بقتل الامير عبد الرحمن بن ابى الحسن

لابى تاشفين اخر امراء بنى زيان وتوافرت الاسلاب والذخائر وانتهت المأساة بالعفو عن الباقين من بنى عبد الواد فاندرجوا فى الجيش مع مغـراوة وبنـي توجين وبنى واسين وتكتلت زناتة كلها تحت لواء ابى الحسن الذى ذاع صيته فى العالم الاسلامى وتواردت عليه برد سلطان مصر والشـام والحجـاز الملك الناصر محمد بن قلاوون وتبودلت (738هـ) الخطابات والهدايا الثمينة من الاحجار الكريمة والحلل المذهبة والمرصعات والدرق اللمطيـة والخيـول والصحـف واستونفت العلائق بعد وفاة الناصر (741هـ) مع نجله أبى الفداء اسماعيل حيث وصل الوفد المغربى الى مصر بعد أربع سنوات (745هـ) وقد وصلت كذلك تهانى السودان عن طريق سفارة وجهها سلطان مالى منسى موسى الى ابى الحسن فبعث سلطان المغرب وفد الرد على التهنئة مع هدايا فاخرة وهكذا حقق أبو الحسن ماطمح اليه اسلافه فرضخ له ملوك عصره واكتمل بعقدهم انصياع ملك غرناطة محمد الرابع (نجل السلطان أبى الوليد بن أبى سعيد فرج بن الاحمر) الـذى وفد على أبى الحسن بفاس عام 732 هـ للاستنجاد به ضد القشتاليين حيث كانوا قد احتلوا جبل الفتح (جبل طارق) منذ ربع قرن (709هـ) فاسترد الامير أبو مالك نجل السلطان المرينى هذا الحصن (733هـ) بخمسة آلاف من الاجناد البواسل

الانكسـار بعـد الانتصـار

غير أن هذه الامبراطوريـة الجديـدة كانت منهارة من أساسهـا فمنـذ 738 هـ تقاعس السلطان عن القـدوم الى تلمسـان لتهنئـة صهره أبـى الحسن الـذى طـال انتظـاره فكانت النكسـة الاولى التى أكدت هلهلـة الصلـة بين المملكتين رغم محاولـة الخليفة تعزيـز الروابط بالمصاهـرة مـرتين وضعفت الروح العائلية لدى الاسر المالكة اذ ما كاد ابو الحسن يعتل وهو فـى ارباض تلمسان حتى سعى كل من ولديه ابى عبد الرحمن وابى مالك الى التسابق للحكم وقد سبق لابى الحسن ان اشركهما فى القاب الامارة والتناوب على اريكة الخلافة فانبثقت كتلتان وانقسم المخزن شطرين وتجلى ضعف قاعدة الدولة والسلطان لا يزال حيا فلم يسعه الا التماسك للظهور من جديد من أجل استئصال هذه الدسائس وفر ابو عبد الرحمن الذى كان احرص على استعجال الحكم من اخيه فارجعه عرب بنى زغبة الهلاليون الى والده فاعتقله بوجدة حتى قتل عام 742هـ بينما لجأ

وزيره زيان الوطاسى الى الحفصيين وقد ثار جزار من حشم الامير السجين يدعى ابن هيدور وكان شبيها بسيده فادعى انه ابن السلطان وءاواه بنو عامر خصوم السويديين وأثار الفتن فى شمال المغرب وشرقه الى ان اعتقله الحفصيون بطلب من السلطان فقتل فى سبتة

وكان أبو الحسن قد نصب ابنه أبا مالك قائدا على الثغور الاندلسية (740هـ) بعد أن هادن الجلالقة واعفى النصريين من الاتاوة التى كانوا يؤدونها الى قشتالة واغتنم الامير الشاب فرصة مغادرة الفونس الحادى عشر لاشبيلية واستعصاء تموين الجنود القشتاليين فأوغل داخل التراب المسيحى الى مدينة ادناصورولكن المسيحيين احاطوا به قرب شريش وكان مثقلا بالاسلاب فقتل فى ملحمة شريدة ونقل جثمانه الى الجزيرة فاستنفر السلطان الجيوش وهيأ الاساطيل لغزو العدوة فتواردت على سبتة ست عشرة قطعة بحرية بامرة ابن فرحون قائد اسطول بجاية تعزز بها الجهاز الملاحى المرينى فتجمعت مائة سفينة هزمت الاسطول المسيحى وقتلت قائدة الملند واستاقت السفن المسلوبة الى الثغور الاسلامية (شوال 740هـ) ثم اجاز ابو الحسن فعسكر حول طريف وطوق المدينة وانضم اليه الامير ابو الحجاج واستنجد الفونس باساطيل البرتغال وجنوة فحالت فى الزقاق دون وصول المؤن الى السلطان ونضب الزاد فى الجيش المرينى بينما تعزز القشتاليون بفيلق برتغالى ولم يكد يمضى نصف عام على حصار طريف حتى دخلها القشتاليون ليلا واستمر العراك فى الصباح وفوجىء المسلمون فتراجعوا امام زحف الحامية التى استولت على دخائر الفسطاط الملكى واضرمت النيران فى المعسكر والتجأ أبو الحسن الى جبل الفتح وعبر الزقاق ليلا بينما قتل من حظاياه الاميرة الحفصية وابنة عمه عائشة وأسر ولده تاشفين (7 جمادى الثانية 741 هـ 28 نونبر 1340) وبذلك منى الخليفة المرينى بأكبر هزيمة فى وقعة طريف قطعت الامل فى استيناف الجهاد بالاندلس فواجهت المملكة النصرية مصيرها بوسائلها الخاصة وقد حاول ابو الحسن اعادة الكرة بعد أن هاجم القشتاليون بعض الثغور الاسلامية فى ناحية غرناطة ولكن اسطوله انهزم فى بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) وحاصر العدو الجزيرة الخضراء فسقطت فى قبضته رغم الامدادات المرينية والنصرية وجلا عنها أهلها نازحين الى المغرب (743هـ) وظل حمادة بنى مرين يكافحون فى نطاق دولة بنى الاحمر فى حصون التخوم الغربية والساحلية كرندة وجبل الفتح الذى سيبقى تحت الحكم الاسلامى ازيد من قرن (1462م)

وانكفأ ابو الحسن يعزز امبراطوريته الافريقية فتزوج من جديد 747هـ بعزونة ابنة السلطان الحفصى الذى حثهم على مصاهرة المرينيين وزيره عبد الله ابن تافراجين الموحدى رئيس الفوج المناصر للمرينيين فى المخزن التونسى وتوفى السلطان ابو بكر بعد ان وصلت كريمته الى المغرب فنصب ابن تافراجين ولده عمر بدل ولى العهد ابى العباس الذى قتل فى معارك ضد اخيه واظهر الامير المستبد من التطاول ما احنق ابن تافراجين الذى التحق بأبى الحسن وكان الخليفة المرينى تواقا الى احتلال افريقية فتعلل بفتك عمر بالامير الشرعى الذى سبق أن أقر ولاية عهده فاستنفر كتائبه لغزو المغرب الادنى فهب من تلمسان 748هـ بعد ان عقد لولده ابى عنان على المغرب الاوسط وانصاع له فى زحوفه ولاة بسكرة والزاب جنوبا الى طرابلس وكذلك امراء بجاية وقسنطينة الحفصيون شمالا فاقطعهم عمالتى ندرومة ووجدة ثم طارد الجيش المرينى الامير ابا حفص فاعتقلوه وقتلوه مع حشمه قرب قابس ودخل ابو الحسن دخول الظافر الى تونس (8 جمادى الثانية 748هـ) فضم بذلك مملكة الحفصيين الى دويلة بنى عبد الواد وارتحل فى الغد فى جولة تفقدية بالقيروان واضرحتها وما ٓثرها وبسوسة والمهدية وبقية مدن الساحل ثم عاد الى تونس لاستكمال تجهيز الثغور الافريقية فعلا صيته وتلقى تهانىء قشتالة والسودان بقسطنطينة

ولكن هذا الانتصار كان قصير الامد لان عرب سليم وهلال لم يرضوا بالاعطيات المرينية التى عوضهم بها أبو الحسن عما كان لهم من اقطاعات ومن مظاهر السطوة والاعتزاز وكانت سياسته فى ذلك أشبه بسياسته ازاء البدو الاعراب بالمغرب فتذمروا وتآمروا وولوا الغارات على المزارع والمسالح وفاوضوا الامير عبد الواحد الحفصى لتنصيبه على العرش فتبرأ الى السلطان منهم واعتقل المتآمرون وتكتل اتباعهم حول أحمد بن عثمان حفيد أبى دبوس اخر ملوك بنى مرين وكان خياطا فى توزر فنصبوه أميرا وصبح أبو الحسن الثوار فى سهل تونس والقيروان ففروا ثم انقلبوا ضد الخليفة الذى تخاذل عنه اعداؤه القدامى من بنى عبد الواد ومغراوة وبنى توجين فانهزم وفر مع فلول من مناصريه الى القيروان بينما انتهبت الاعراب ذخائره (749هـ ــ 1348م) وحوصر السلطان وحشمه فى قصبة المدينة وسط المجانيق فناضل نضال الأبطال وتمكن من الخلوص الى سوسة باغرائه احدى القبائل ثم الابحار الى تونس فحصن اسوارها وبينما كان ابن ابى دبوس يعتزم ضرب الحصار على تونس تحالف السلطان من جديد مع قبائل سلمية استاقت

له الامير الدعى فزج به فى السجن وكان أبو الحسن قد عقد لشقيق زوجته الفضل على بونة (عنابة) فطمح هذا الى الملك بعد نكبة القيروان وانضمت اليه قسنطينة وبجاية بينما ثار الزناتيون واقاموا فى تلمسان الامير عثمان مجددين بذلك مملكة بنى عبد الواد الزناتية وعميت الاخبار بين المغارب الثلاثة وتناقل الناس موت الحسن فاستولى ولى العهد أبو عنان على مقاليد الملك بينما بويع منصور ابن اخيه عبد الواحد فتصادم الطرفان بتازة وعاد منصور مع فلوله لاجئا الى فاس الجديد التى أحاط بها أبو عنان بمساندة أبناء عثمان بن أبى العلاء الذين سرحوا لهذا الغرض من سجن مكناسة وافتتحت المدينة وتوافد المهنئون بعد مقتل منصور واستتب ملك أبى عنان فى الوقت الذى كان والده يكابد الامرين فى تونس محاصرا نحوا من ثمانية عشر شهرا من طرف الفضل الحفصى الذى اقتحم كثيرا من الحواضر فلم يسع ابا الحسن الا ان يبحر رغم هيجان البحر بعد العقد على تونس (750هـ) لابنه أبى الفضل الذى ما لبث ان طرد فالتحق بوالده فى ثغر الجزائر وبعد ان صده امير بجاية عن التمون بالماء فى الساحل حارب للاستقاء ولكن العواصف الهوجاء قذفت به فى شواطىء « القبائل » (زواوة) فهلك معظم ذويه واصحابه فانقذته سفينة سلمت من الزوبعة فعاد الى مرسى الجزائر بعد ان فقد اسطوله البالغ ستمائة قطعة ونحو الاربعمائة من العلماء كانوا برفقته وهناك لحق به ابنه الناصر من بسكرة وسانده انصاره من عرب سويد ورئيسهم ونزمار فزحف نحو تلمسان حيث هزمه بنو زيان وقتل ولده واستلبت ذخائره ففر الى ونشريس مع فلول من قومه ونزل بسجلماسة فى موجة من حماس اهلها فطارده ولده ابوعنان بها فانحاز الى مراكش بعد ان تخاذل عنه العرب السويديون الذين كانت فصائلهم الاخرى قد انضمت الى معسكر فاس حيث عاد ابو عنان بعد اقتحام سجلماسة ورفض جنوده الاستمرار فى الزحف والتف المراكشيون حول ابى الحسن ومكنوه من اموال الدولة وجهازها فتركزت سلطته بتأييد المصامدة والاعراب ولكن تصادم الوالد بولده مالبث ان استمر فى نفس السنة (صفر 751هـ) حول وادى ام الربيع فانهزم عسكر الملك الشيخ الذى لجأ الى هنتاتة حيث وافاه ابوعنان فتفاوض الطرفان واسترضى أبو عنان والده فعقد له ولاية العهد ولكن ابا الحسن ما لبث ان اعتقل ومات (752هـ) فنقل ولده جثمانه نادما مسترجعا الى مقبرة القصبة (قبور السعديين)ثم شالة وبذلك انقضى عهد رجل جمع الى العفة والتقوى

والحزم حنكة واسعة حدته الى بذل اكبر مجهود اضطلعت به الدولة المرينية فجدد بذلك عصور الخلفاء الموحدين وكتل قبائل زناتة التى عرفت لاول مرة فى تاريخها مظاهر الوحدة والمجد غير ان مقومات الدولة كانت قد تهلهلت وداخل الطمع المخزن والاسرة المالكة وتنافس العرب والزناتيون فى اقتسام النفوذ فى المغارب الثلاثة علاوة على تكالب القوات الصليبية فى الاندلس ومن أجل ذلك حيت فى شخصه افريقيا والشرق الادنى وقشتالة أكبر أمير من بنى مرين

ابوعنان (749 ـ 759 هـ)

كان أبو عنان عفا شجاعا عالما أخذ بحظ من الشعر يستعمل النطق غير مفهم امه شمس الضحى اعجمية بويع فى حياة أبى الحسن (749 هـ) واحس بمركب من جراء موقفه الشائن ازاء والده الذى ولاه الامارة حبا وايثارا فلم يرع العهد ولم يكن عمره اذ ذاك ينيف على العشرين فبرهن عن طموح فياض وراى فائل وجموح ثائر فى فرض فخفخة منخورة عن طريق الالقاب والنقوش الكتابية على المآثر تخليدا لعهده ومع ذلك فقد عرف كيف يعزز جانبه بين حشمه وجنده بالعطاء الوافر وقد اقتضى صون سمعة الخلافة الحفاظ بالاقل على المكاسب الحسنية ان لم يتوفر تضخيمها فلذلك لم تكد تمر شهور على وفاة ابى الحسن حتى قرر الزحف نحو تلمسان (753هـ) لاسترجاع المملكة الزيانية والاقاليم الحفصية فاصطدم فى انكاد بابى سعيد امير بنى عبد الواد الذى ادبرت اجناده واسر الامير ثم قتل بافتاء العلماء وسقطت عاصمته فى قبضة المرينيين وقد فر فى غضون ذلك اخوه ووزيره ابو ثابت مع اسرته لاجئا عند المغراويين بوادى شلف فطاردهم بنو مرين واستلبوا ذخائرهم وسبوا نساءهم واستكملت قبائل زواوة انتهاب عسكر الامير الذى ترصدت له جنود الثغور بتآمر من الوزير القائد فارس بن ميمون فاعتقل صحبة ابن اخيه وسيقا الى امير بجاية محمد بن ابى زكرياء الذى خف بنفسه مع الاسرى لمقابلة السلطان ابى عنان بالمدينة فاعتقلهم السلطان ثم اعدمهم فى تلمسان واستتم امتلاك المغرب الاوسط ببيعة بسكرة والزاب واقطاع الامير الحفصى مكناسة بدل بجاية فنقم سكانها وقتلوا الوالى الجديد عمر الوطاسى ولكن البجائيين انصاعوا وسلموا فارح رئيس الثوار الصنهاجيين ووجه أبو عنان حاجبه فأقر النظام والامن بالمدينة (754هـ) ونقل المشغبين الى المغرب واذعنت قسنطينة فسلمت تاشفين بن ابى الحسن الى اخيه

ابى عنان الذى سبق له ابعادا لادعياء العرش المحتملين ان وجه أخويه أبا الفضل وأبا سالم الى الاندلس ضمن الغزاة النصريين ثم قرر استقدامهما فرفض ابو الحجاج يوسف ابن الاحمر السماح بذلك موعزا للاميرين باللحاق بملك قشتالة الذى جهزهما باسطول انزلهما بساحل السوس حيث احتفل بهما قائد سكسيوة فلم يسع أبا عنان الا ايفاد جيشه من افريقية لقمع الثوار فى الجنوب المغربى فاختط قائده معسكرا بسفح الجبل المطوق واستسلم السكسيويون فلجأ ابو الفضل الى صناكة وهب عامل درعة لاعتقاله وتوجيهه الى فاس حيث قتل خنقا فى محبسه (755هـ-1255م) غير ان انشغال أبى عنان بثوار المغرب شجع الافريقيين على الانقضاض من جديد فاضطر الملك الى الزحف لاحتلال بجاية (758هـ) وقسنطينة التى نقل اميرها احمد الحفصى الى سبتة وانتهى الجيش والاسطول الى عنابة وتونس فاستسلما ولجأ قائد الجيش الحفصى ابن تافراجين الى المهدية بينما فر الامير أبو اسحاق بن أبى بكر مع بعض عرب رياح

وبالرغم عن هذا الانتصار الخاطف الذى مهد فى الظاهر المغربين تحت لواء ابى عنان فان دواعى الانهيار كانت تنخر كيان الدولة المرينية وتجددت تلك الظاهرة المستديمة فى تاريخ المغرب منذ عهد ماسينيسة وهى الصراع الموصول بين القبائل الرحالة والافواج القارة أو القرى والحواضر وكان البدو العرب هم الذين تزعموا هذا العيث فكانوا حربا على أبى الحسن وولده لقطعهما الاتاوة (الخفارات) التى كان الذواودة ورياح يتقاضونها وقد استنفد ابو عنان مثل ابيه موارده العسكرية فى تعقب المشغبين الذين كانوا يلوذون بالفيافى للكر من جديد متى بعدت جيوش السلطان عن الامصار وهكذا لم يكن احتلال افريقية سوى وهم زائل ارتكز موقتا على استسلام الحواضر او القبائل القارة المهزولة ومل الجيش المرينى من النقش فى الماء فسرى التذمر فى كتائبه وخشى ابو عنان مغبة ثورة مكبوتة فعاد الى فاس وخلا الجو للثوار فطردوا المرينيين من تونس وشتت ابو عنان قواه فى قتل قائده فارس ومشيخة قومه بدعوى مساندة الثوار

وكانت روح الاعتزاز تحدو أبا عنان الى مواصلة سياسته الافريقية فاستوزر سليمان والى جبل طارق وجهزه عام 759 هـ للزحف من جديد على افريقية ومهد لذلك باثارة دعى حفص ضد أبى اسحق ورياح ضد الذواودة ثم لحق فى تلمسان ولكنه اضطر لمواجهة الواقع فعاد الى فاس مع انصاره من فلول العرب فألم به مرض ألزمه الفراش وكان قد عقد ولاية العهد لولده ابى زيان

ولكن الوزير حسن بن عمر الفودودى الذى كان يستوحش من الامير المتوج دعا لبيعة أبى بكر وقتل أبا زيان وكان الخليفة لا يزال فى الاحتضار فاستبد الوزير الثائر بالسلطة واستعجل منيته بالخنق (28 ذى الحجة 759هـ) وعمره ثلاثون سنة

وبذلك اخفقت المطامح المرينية التى شجعها ضعف الحفصيين وعبد الواديين وقوضتها ثورات الاعراب الجامحة كما فتت فى اعضادها هلهلة الجهاز العسكرى المرينى الذى عجلت انقساماته بالانهيار

المنجزات المرينية

الاقتصاد والاجتماع : اذا كان المغرب قد اقفر من جراء العواقب الوخيمة التى توالت كنتيجة لوقعة العقاب فان البلاد ظلت مع ذلك جذابة « بخصبها ونقاء هوائها وسعة مسارحها ومراعيها وعذوبة مياهها وكثرة أنهارها والتفاف أشجارها وبركات ثمارها » ولم تكن لتقضى عليها أزمة عابرة وان كان المرينيون قد استغلوا هذا الوضع الشاذ للانقضاض على الموحدين ومع ذلك فقد وجدوا مغربا وفير السكان غنيا برجاله وموارده تذكيه حركة اقتصادية قوية وتطبعه حضارة يانعة بميسمها الرقيق ولعل من ابرز مظاهر الازدهار الاقتصادى قوة النقود الاقتنائية لان العملة معيار ثراء الدولة وقد لاحظ ابن بطوطة ان القوة الشرائية بالمغرب كانت تعدل ثلاثة اضعافها بمصر وقد اتجهت حركة البناء اتجاها اجتماعيا حيث تزايد عدد المارستانات واسست المدارس ورصدت الاوقاف الوافرة لتجهيزها وتسييرها ولكن عصرأبى الحسن كان نهاية عهد الازدهار حيث كان على حد تعبير اندرى جوليان أقوى ملك فى القرن الرابع عشر وما كاد أبو الحسن يندحر فى طريف حتى بدأت الضربات تترى على المغرب من المسيحيين وازداد العبء تضخما بسبب الزحف العسكرى نحو افريقية فتقلص المجهود الاقتصادى والعمرانى بطغيان عوامل الفتنة ومقتضيات التسلح لمواجهة الخطر الداهم وقد عرف المغرب أيام أبى عنان ازمة اقتصادية كادت تودى بحياة الاسرة المالكة وتفاحش الغلاء نظرا لتضاؤل مواد العيش وتضخم العملة فارتفعت فيمة منزل السكنى بفاس الى ألف دينار وهو مبلغ باهظ فى ذلك العصر وحاول السلطان مقاومة الازمة باسعاف الفلاحين الذين هم قوام الحياة الاقتصادية فى بلد زراعى فوزع عليهم الحقول والاراضى وأزواج البقر لحرثها ٠

أما النظام الجبائى فقد اتسم بطابع جديد منذ أيام يوسف وابى سعيد حيث تقلص اطاره بالغاء المكوس والمغارم والاقتصار على الزكوات والاعشار وفرض جزية فردية على الذميين بلغت دينارين وثمن دينار لكل شخص وهو حل وسط بالنسبة للجزية التى فرضت فى العصر الاول على أساس ثلاث طبقات فى الامة وقد احال المرينيون العملة الى نقد مستدير بدل الدينار المربع الذى عرف فى عهد الموحدين الا ان قيمته لم تنخفض لان الدولة كانت حريصة على التمسك بشرعية الوزن الذهبى للدينار وهو 4،729 غرام حسب المعيار العمرى فى صدر الاسلام وقد لاحظنا انخفاض هذه القيمة فى عهد المرابطين الى 3،960 غرام ٠

الصنـاعـة والفـن

أما الحقـل الصناعى فان التطـور قد تبلـور فى الصناعة التقليدية التى بدأت ترث مقومات الفن الصناعى الاندلسى فانتشرت صناعة الجلود والمعـادن والنقوش الجبسية والخشبية والزليجى والفسيفساء فهذا أبو عنان يصنع على يد مؤقته على التلمسانى عام 758 هـ منجانة بطيسان من نحاس فوق مدرسته بفاس وجعل شعار كل ساعة ان تسقط صنجة فى طاس وتتفتح طاق (1)

وقد خلف بنو مرين الموحدين فوجهوا الفن اتجاها جديدا تبلورت فيـه الازدواجية المغربية الاندلسية بصورة اعمق وادق وقد ظهرت فى نفس العصر حركة فنية عند بنى عبد الواد فى تلمسان والحفصيين فى تونس بينما واصل بنو نصر فى غرناطة نشاطهم ضمن تقاليد الفن الاندلسى الاصيلة الا ان الطابع العام كان واحدا لم تختلف سوى الاطر وبعض التصميمات والمظاهر الزخرفية فبنو الاحمر انصرفوا لزخرفة القصور بينما انكب المرينيون على اقامة المدن المحصنة ونقش المساجد والمدارس وقد انبثقت هذه الانتفاضة المرينية بعد فترة خمود تناهز القرن عقب وقعة العقاب (2) فبدأت تطبع برونق خلاب المدن الجديدة (كمنصورتى تلمسان وسبتة) وقباب الاضرحة (شالة ومدينة العباد بتلمسان) والحمامات والخانـات ولـم تكن المـدارس معروفـة بالمغرب فاتجـه الامـراء نحو تاسيسها وخاصة بفاس منذ 670هـ (مدرسة الحلفائيـيـن او الصفاريـن

---

(1) زهرة الآس ص ٠ 40

(2) مارسى ـ كتاب الفن ج 2 ص ٠ 476

ومدارس العطارين والمدينة البيضاء (I) والصهريج والوادى ومصباح وقد انشأ أبو الحسن مدرسة فى كل بلد من بلاد المغربين الاقصى والاوسط وذلك علاوة على المحارس والمناظر الممتدة من أسفى الى جزائر بنى مزغانة حسب مسند ابن مرزوق الذى ابرز فى جامعى تلمسان وهنين روعة المقربصات فى الحنايا والاقواس وقد نشطت حركة البناء فى الحواضر بفضل توافر النجارين والجباسين والزليجيين والرخاميين والفنيين والدهانين والحدادين والصفارين الذين ساهمت حرفهم فى اقامة قصر نموذجى فى ظرف أسبوع واحد طبقا لتصميم(2)وضع بأمر من أبى الحسن اشتمل على أربع قباب ودويرتين والتمويهات الذهبية والمقصدرات وبالاخص رقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والزليجيات ويلاحظ فى المدرسة العنانية بفاس مثلا تشابه واضح فى الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق ومن خواص الفن المرينى استعمال الطابية والاجر والحجر غير المنحوت والنقش الخشبى والترصيع الزليجى للمنارات والبنايات الخاصة التى تنافس الاثرياء فى تشييدها فى عهد أبى الربيع (حسب ابن خلدون) وابن ابى زرع) .

الجيــــش

اما القوة العسكرية فانها لم تقل مناعة عنها فى عهد الموحدين وقد شاركت قبائل زناتة والعرب المستقرون فى المغرب فكون هؤلاء كتائب الفرسان بينما احتص الاندلسيون فى حمل الاقواس والمرتزقة كنبالين ورماة واستعملت الجيوش المرينية لاول مرة البارود فى محاصرة سجلماسة عام 67Iهـ(3)

وبذلك يمكن القول بن تجربة أبى الحسن وولده أبى عنان لم تخل من روعة وسمو رغم ما احيطت به من مظاهر الارتجال

(I) هى فاس الجديدة التى بناها أبو يوسف المنصور (الذخيرة السنية ص ٠ 99)

(2) هذه التصميمات المعمارية عرفت منذ عهد المنصور العباسى (مظاهر الحضارة للمؤلف ج 2 ص 57)

(3) حسب ابن خلدون وصاحب الذخيرة السنية (ص٠I58) ويؤكد صاحب الحلل الموشية استعمال ابن عباد للمطاردات والرعادات فى الجواز الثانى لابن تاشفين الى الاندلس ص ٠ 48I هـ (ص٠ 55) ٠

الفصل التاسع عشر

العهد الوطاسي عهد تحول وانقلاب

مظاهر الفخفخة :

امتاز عصر الازدهار المرينى بمظاهر الفخفخة والعز فاتخذ ابو الحسن القاب الخلافة واعلاما بيضاء زخرفت بآيات قرآنية مذهبة وطبولا واريكة العرش فى ردهة بثت فيها الزرابى مع برج الذهب للاستعراض فى الساحة العمومية بفاس الجديد ومدينة متنقلة محاطة بسياج من القطائف (افراك) قد تفتحت فى جوانبها اربعة ابواب وكذلك شارة الملك او العلامة كما تعزز الجيش بمرتزقة من الاغزاز هم من بقايا العهد الموحدى وانتظمت اجور المشيخة المرينية (60 مثقال الى ستة مثاقيل ذهبية فى الشهر) ووحدة الزى عند زناتة والعرب والمسيحيين (عمائم منسدلة على الاكتاف ومناطق مبهرجة ورماح) وفى الحقل الدينى تزعم المرينيون حركة السنة رغم تشجيعهم للصوفية وانبثقت طرقية امتدت فروعها فى الشرق نتيجة للروابط المستوسقة مع الكنانة والشام والحرمين فتتلمذ البوصيرى لابى محمد صالح كما نشر الشاذلى الغمارى فى المشارقة طريقة شيخه مولاى عبد السلام بن مشيش وقد اعتنى المرينيون بالصوفية فجعلوا منهم روادا فى طلائع الجهاد بالاندلس وأسسوا مدارس للطلبة والنساك تركيزا لهذا الجهاز المزدوج من علماء السنة والطرقية

غير ان هذا الاطار الفخم مالبث أن تهلهل بانبثاق معسكرات داخل البلاط واستبداد الوزراء والحجاب وتسابق الادعياء واضطراب السلطة وتدخل المرتزقة والمليشية المسيحية وامراء بنى نصر وبنى عبد الواد بل وحتى ملك الجلالقة فى ازمات العرش الذى توالى على اريكته زهاء العشرين ملكا بعد ابى الحسن قتل او خلع اغلبهم

وظهرت فى الجنوب والصحراء امارات اقطاعية مافتئت ان استقلت عن فاس بثورة المصامدة والعرب المعاقلة والاطلسيين وكانت هنتاتة تلوح بشبح المعتمد نجل ابى عنان كما اثار الهلاليون فى صحراء المغرب الشغب لتنصيب ابى حمو بتلمسان وفى الوقت الذى تمرد منصور بن سليمان على السلطان الشاب أبى بكر السعيد وانثالت جيوشه من تلمسان لمحاصرة فاس (760هـ) برز ابو سالم بغمارة فتمكن من اعتقال منصور وقتله ثم من السعيد الذى خلع ثم اعدم غرقا فى جملة الادعياء من سلالة ابى الحسن فى طريق نفيهم الى الاندلس فتخلص الامير الجديد من بعض مزاحميه المشغبين

ابو سالم (760 ـ 762هـ) 1359 ـ 1361م)

وابراهيم المستعين بالله امير المسلمين نجل ابى الحسن امه مستولدة رومية حملته سفن ملك قشتالة الى غمارة عند ما تلكأ بنو الاحمر فى مساعدته وقد صادفت ثورته هيجان المدينة البيضاء فهب الناس لمبايعته واستوزر مسعود ابن ماساى بينما استصفى لبلاطه كلا من الخطيب محمد بن مرزوق وابن خلدون صاحب التوقيع وكتابة السر كما استقدم ابن الخطيب مع أمير غرناطة محمد ابن يوسف المخلوع(761هـ)وكان الوزير الفودودى قد نصب وليا بمراكش وتأثلت بها رياسته فتنكر له السلطان وطارده بتادلا ثم اعتقل بالجبل وقتل بفاس

احتلال تلمسان : وبعد استتباب الامر لابى سالم حن الى تجديد مآثر والده العسكرية بالزحف على تلمسان التى كان سلطانها ابو حمو ابن يوسف الزيانى قد استولى على درعة بمساندة عرب معقل وفر ابو حمو الى صحراء اكرسيف وملوية يعيث ويخرب فاقتحمها أبو سالم وعقد عليها لابى زيان حفيد ابن تاشفين من بنى عبد الواد ولم يكد يرجع الى فاس حتى عاد ابو حمو الى ملكه واضطر الخليفة لمهادنته ومنيت هذه المحاولة الزجرية بالفشل الذريع وكانت عنوانا عن تضعضع قوة الدولة المرينية التى ظلت ماسكة بالشكليات تمويها وايهاما

تعيش على الماضى فكان ابو سالم من ضحايا هذه الهلهلة حيث فتك به الوزير عمر الفودودى بتواطؤ مع قائد المليشية غرسية بن انطول (21 ذى القعدة 762هـ ونصبا تاشفين ابن ابى الحسن

تعاقب الامراء على العرائش : وكان ابو عمرهذا شجاعا فتر عقله في الاعتقال بعد وقعة طريف فبويع ونكل وزيره الفودودى بانطول وجنده لتآمرهم مع بعض الوزراء المعتقلين وكانت ملحمة عنيفة مات فى غمرتها معظم الاجناد المسيحيين وفكر الوزير الثائر فى اقتسام المغرب مع الزعيم الهنتاتى الذى كفل ابا الفضل ابن أبى سالم استعدادا للطوارىء فخلع السلطان المعتوه (763هـ) ونصب المتوكل ابا زيان بن يعقوب ابن ابى الحسن على جزء من المغرب مقابل امارة ابى الفضل على ناحية مراكش وبذلك انفصمت عرى الوحدة المغربية بظهور مملكتى مراكش وفاس تحت سلطة الاميرين الشكلية ولكن المهزلة انتهت بقتل ابى زيان فى فاتح سنة 768هـ والبيعة لابى فارس عبد العزيز بن ابى الحسن الذى تخلص من استبداد الفودودى وحاشيته بالاسر والاعدام وانضم اليه زعيم هنتاتة بعد ان أصبح أمير مراكش يتربص الدوائر بخصومه فحالف أبا فارس على محاربته وقتله (769هـ) غير أن رأى الخليفة الحكيم كان قد قر على استئصال المشغبين فاتجه لمحاصرة الهنتاتى فى معتصمه بالاطلس الكبير طوال سنة استولى غبها على ذخائر الثائر ومعاقله (771هـ) ثم قتله ودشن عهده الجديد بمؤازرة دولة بنى نصر لاسترجاع الجزيرة الخضراء (التى خربت حوالى 780هـ) ثم احتلال تلمسان عام 772هـ فى انطلاقة اولى عقبها اقتحام امصار المغرب الاوسط ولكن ابا حمو الزيانى لم يلبث ان استرجع مملكته بعد ان فوجىء أبو فارس بمرض أودى بحياته وهو فى حضرة بنى عبد الواد فتوفى وعمره لايتجاوز زهاء ربع قرن (774هـ) فخلفه ابنه الصبى السعيد أبو زيان محمد بتأييد الوزير أبى بكر بن غازى الذى استبد بمراسيم الملك فحاصره بفاس ذو الدولتين المستنصر أحمد بن أبى سالم بمساعدة امير غرناطة فخلع الاول وبويع الثانى بعد عشرين شهرا اوائل سنة 776هـ وأصبحت للمملكة النصرية دالة على سلطنة المغرب بينما استقلت عمالة مراكش الى ازمور بامرة ابن عم السلطان عبد الرحمن بن ابى يفلوسن فانشطر المغرب من جديد الى دولتين نحوا من عشر سنوات (784هـ) انتهت بمقتل أمير مراكش واستعادة الوحدة واعاد التاريخ نفسه فزحف المستنصر نحو تلمسان لاحتلالها (785هـ) واستغل أبو فارس موسى بن أبى عنان فراغ الجو بفاس فهب من

الاندلس بايعاز بنى الاحمر فافتتح سبتة وسلمها لامارة غرناطة مع المستنصر المعتقل وبايعه الناس (776هـ) واستبد بشؤون الدولة وزيره مسعود بن مساى ولكنه ما لبث أن مات مسموما وعمره نيف وثلاثون سنة بعد أن ملك زهاء ثلاثين شهرا فخلفه المنتصر حفيد ابى سالم (788هـ وعمره لايتجاوز خمسة اعوام فخلع بعد أربعين يوما وانتصب على العرش الواثق محمد بن أبى الفضل الذى كان مستودعا للحاجة عند بنى الاحمر الذين ما فتئوا أن اطلقوا العنان لدعى آخر من الامراء بعد أن طالبهم وزير السلطان بسبتة وهكذا مكنوا أبا العباس بن أبى سالم ذا الدولتين من اعتلاء العرش من جديد (789هـ) بعد خلع الواثق وقتله مع وزيره مسعود وواتت الفرصة للانفضاض على تلمسان مرة أخرى عند ما نشب بين أبى حمو وابنه أبى تاشفين ما نشب بين أبى الحسن وأبى عنان فثار الابن على الوالد وقتله واستولى على الحضرة الزيانية (791هـ) مكافئا حسن صنيع سلطان المغرب بالدعوة له على منابر المغرب وأداء الجبايات ولكن المنية عاجلته (796هـ) وهو فى تازة بعد ان تلقى هدايا ملك مصر الظاهر برقوق وشارف زحفا جديدا على تلمسان الثائرة ولم يكد عمر السلطان الراحل يبلغ الاربعين حتى توفى فبويع بتلمسان ابنه أبو فارس الذى ضم الى الفروسية ما امتاز به والده من شاعرية وقد خلفه أخوه عبدالله عام 799هـ بتواطؤ الوزراء الذين انبسطت سيادتهم على المملكة وانهار نفوذ ملوك بنى مرين فصاروا يتعاقبون على العرش شبه تماثيل زائفة وقد مات عبد الله على رأس الثمانمائة وعمره ست عشرة سنة فبايع الحجاب اخاه ابا سعيد عثمان الثالث وكان عهد الحجابة قد أصبح بداية عصر جديد فى المغرب فتغيرت كثير من الاتجاهات والعوائد والاوضاع الاجتماعية بسبب طغيان القبائل العربية التى امست تتحكم فى مصير الدولة فى المغارب الثلاثة مما احنق امثال ابن خلدون على عصاباتها المهرجة وتساوقت شتى العناصر فى هذه الوجهة الاستئصالية فشاعت الاوبئة وخربت الامصار واندرست كثير من معالم الحضارة واطل الاستعمار الاوربى الناشىء مكشرا عن انيابه فى الشرق الاقصى وافريقيا وسواحل المغرب فاحتل البرتغاليون سبتة (818هـ) وبقى أبو سعيد على العرش خمس سنوات الى ان توفى عام 823هـ فخلفه ابنه عبد الحق الذى كابد الأمرين من زحف البرتغاليين على طنجة عام 841 هـ واحتلالهم لها عام 869هـ والاستيلاء على القصر الصغير (قصر المجاز او قصر مصمودة) عام 863هـ كما تولى فى عهده ثلاثة وزراء وطاسيين هم ابو زكرياء المقتول عام 852هـ وعلى بن يوسف المتوفى

عام 863هـ ويحيى بن ابى زكرياء المذكور الذى انهارت فى عهده معالم الدولة المرينية فلم يسع السلطان عبد الحق الا ان استأصل شأفة الوطاسيين (عدا محمد الشيخ) واستوزر اليهودى هرون فثار اهل فاس وبايعوا الشريف الحفيد ونكلوا باليهود وذبحوا عبد الحق (869هـ) فكان آخر ملوك بنى مرين

بداية العصور الحديثة وثورة الشعب ضد الاستعمار الناشىء

وهكذا بدأت مظاهر ازمة عصبية تلوح فى افق قاتم بسبب تطاحن بنى وطاس وبنى مرين ثم السعديين وزحف الصليب على ثغور الاندلس وسواحل المغرب ضمن حركة استعمارية عارمة فى نطاق ما يسمى *Do recanquieta* وبرزت مراكز الهند الاقتصادية وانتقلت اوربا من العصور الوسطى الى فترة ما قبل النهضة وامحت معالم الفردوس المفقود وزحف الاسلام من الشرق على اوربا تحت راية العثمانيين واصبح المغرب نظرا لوضعه الجغرافى موزعا بين مطامع الاتراك فى حدوده الشرقية والاسبان شمالا والعالم الجديد غربا وكانت سواحله بالبحر الابيض المتوسط مسرحا لعراك عنيف بين الهلال والصليب تبلور فى سقوط الاستانة (858 هـ 1453 م)

وأبرز سمة طبعت الفورة الشعبية فى هذا العصر الذهبى هى ثورة العلماء والصوفية ضد تدخل الصليب فى شؤون الاسلام واحتلال المسيحية لثغور المسلمين وبدأت نقطة هذا الانطلاق فى حركة الجهاد المنبثقة فى ربض سبتة التى كانت أول معقل مغربى اقتحمته الكاثوليكية ولمس المسلمون خطرا داهما لم تنزجر قبائل العرب من جرائه عن عيثها ولا الملوك الحفصيون والزيانيون والوطاسيون عن تناحرهم

وهكذا لم يكد اهل فاس يبايعون الحفيد نقيب الاشراف الادارسة بفاس حتى هب لمناوأته محمد الشيخ الوطاسى الذى طفق يقتطع أمصار المغرب حتى اقتحم مدينة فاس (876هـ) فى الوقت الذى احتل البرتغاليون حضرة ملكه اصيلا وكان رجال التصوف يؤسسون المعاقل لدعم حركة الجهاد فاختط المجاهد ابو جمعة العلمى ثم ابن عمه على بن موسى بن راشد فى نفس السنة مدينة شفشاون فى نقطة استراتيجية سيرتكز عليها ءال الخطابى فى حرب الريف 1920 – 1926 ثم شيد المهاجرون الاندلسيون المنحدرون الى المغرب قبيل استيلاء الاسبان على غرناطة عام 897هـ مدينة تطوان بمساعدة بنى راشد فاصبحت

قاعدة للهجمات التي والاها المجاهدون بقيادة على المنظرى ضد الوجود الأجنبى فى المغرب وكان البرتغاليون قد اكتسحوا معظم ثغور الشمال وبدأوا يزحفون نحو المراكز الساحلية بالجنوب (انفا عام 874 والبريجة عام 907 واكادير عام 910 فمات فى غضون ذلك محمد الوطاسى (910 هـ) وخلفه ولـده محمد البـرتغالى الذى يخوض غمرة الجهاد فى الشمال بينما انبثق السعديون لمواجهة الاحتلال الاجنبى فى الجنوب وقد قاوم الشعب فى هذه الغضون مقاومة عنيفة رغم قلـة الحاميات النظامية فكبدت الجماهير العدو خسارات فادحة فى اسفى وازمور طوال سنوات عديدة وزحف الجيش البرتغالى (912 ــ 914 هـ) نحو اصيلا المحتلة منذ عام 876هـ للاقتصاص من الذين اذاقوه مرارة الاسر سنوات فالتحم الفريقان داخل المدينة ولكن النصر حالف الاسطول البرتغالى والاسبانى الذى عزز مراكزه فى المتوسط والاطلنطقى بتأسيس بادس واحتلال وهران (914هـ) ثم المعمورة المهدية (920هـ) فى نفس الفترة (922 ــ 923هـ ــ 1515 1517م) بدأ العملاق التركى يغزو الجناح الشرقى من البحر المتوسط فكانت بداية عصر التحجر والانحطاط فى العالم العربى اذ انقلبت العصور الوسطى (395هـ ــ 1453م) التى ازدهرت فى فترة منها معالم الحضارة الاسلاميـة الى عهـد صراع بين مدنيـة اسلاميـة متحضرة وحضارة اوربية نامية وساوق هذا الصراع فى الصعيد العالمى صراع اقليمى بين السعديين والوطاسيين

وهكذا تمخضت القسمة الصليبية عن وقـوع المغـرب فى منطقـة نفـوذ البرتغاليين كرد فعل لاحتلال المغاربة للاندلس طوال ثلاثمائة سنـة وحمـلات القراصنة الذين اتخذوا من بعض المراسى المغربية ملجـأ لاساطيلهم وقـد كانت الرغبة فى فصل النصريين عن العدوة الجنوبية تمهيدا لنفيهم من بواعث هـذا الاحتلال الذى فتح أيضا منافذ اقتصادية للبرتغاليين باستغلال قموح وأصواف وخيول مناطق الجنوب الثرية وكانت قلعة سانطا كروزا باكادير قاعدة برتغالية فى المحيط الاطلنطيقى وقد استغرق البرتغاليون نحوا من ثلاثة ارباع قرن فى احتلال مراسى الشمال الى نهر سبو وما يقاربها فى ضم مراسى الجنوب من مصب ام الربيع الى السوس وبذلك قبضوا على زمام معظم المرافىء المغربية (عدا سلا وبادس) التى استحالت الى حصون تحت ضغط الغارات الوطنيـة واقيمـت اسقفيات كاثوليكية فى سبتة وطنجة واسفى ولكن هذا الهيكل مالبث ان تضعضع بسبب الانتفاضات الشعبية التى ساندت تطوان والشاون والعـرائش والقصر

الكبير غير ان تخاذل بعض القبائل فى الجنوب فسح المجال موقتا لحماية برتغالية فعلية ونفوذ اقتصادى خطير من السوس الى درعة ومن اسفى الى الرحامنة وأرباض مراكش مما عزز ثورة السعديين منذ عام 915 هـ بانضمام امراء هنتاتة واحتلال مراكش (930هـ) حيث حاول أبو عبد الله البرتغالى مواصلة تطويق ابى العباس الاعرج فى المدينة ولكنه فوجىء بثورة فى الشمال فعاد الى فاس وتوفى بها حوالى 932 هـ وولى بعده أخوه أبو حسون الذى ما لبث أن خلفه احمد بن أخيه محمد البرتغالى وتولى الملك ببيعة أهل فاس (932هـ) وقد عمل ابو العباس على مهادنة كل من البرتقاليين فى الهبط والسعديين فى الجنوب بعد وقعة انماى قرب مراكش (935هـ) ولكن الجماهير ظلت فى عراك عنيف مع المسيحيين تبلور فى وقائع منها الغزوة التى اججها قرب اصيلا القائد عبد الواحد العروسى (940هـ) وكذلك فى الجنوب حيث انبرى الاعرج السعدى من جديد لمجابهة احمد الوطاسى فى ابن عقبة بوادى العبيد بعد أن عقد الوطاسيون الصلح مع البرتغاليين لثلاث سنوات فى أسفى والجديدة وأزمور وقد تمخضت انتفاضة الجماهير فى اعقاب السعديين عن انهزام ابى العباس الوطاسى (943هـ) وتوالت الاحداث فانتزع محمد الشيخ الملك من أخيه الاعرج وزحف نحو الشمال فاحتل مكناسة (955هـ) ثم فاس فى السنة التالية واعتقل الامير الوطاسى مع فلول من قومه نقلوا الى الجنوب بينما فر ابو حسون الى الجزائر لاجئا عند الاتراك الذين كان نفوذهم قد بدأ يمتد على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط فساعدوه على استرجاع فاس ولكن محمد السعدى مافتىء ان استنفر الحشود العارمة فى نفس السنة فهاجم المدينة وقتل ابا حسون (961هـ) فكان موته نهاية سلسلة من المآسى انقرضت بها الدولة المرينية كما انهارت خلالها معالم الفردوس المفقود .

وكان تهالك الادعياء على العروش هو العامل الحاسم فى تقويضها بالعدوتين فهذه مملكة غرناطة قد اعتلى عرشها السلطان أبو الحسن على بن سعد فدفع القشتاليون أخاه محمد الزغل لمناوأته وحظى بالبيعة فى مالقة فانقسمت الدولة شطرين (880هـ) ولم يكد يستتب الامر لابى الحسن حتى ثار ولده وانتهت المأساة باسر هذا الدعى فى معسكرات الاسبان وتنازل أبو الحسن لاخيه الزغل وما لبث العدوان زج بنجل أبى الحسن فى غمرة الفتن ففت فى عضد الجهاز الاسلامى بالاندلس وانفتحت أمام الكاثوليكية ثغرة فى هذا الكيان الحصين وسقطت مالقة (892هـ)

1487 م) ثم وادى آش وانصاع الزغل للحكم الاسبانى وظلت غرناطة وحدها قائمة بعد سقوط قادس والمرية يواجه اميرها الشاب ابو عبد الله بن ابـى الحسن حصارا شديد الوطأة اقام العدو خلاله معسكرا فى شكل مدينة جديدة (سانطافى) وما لبث الحصار ان انفرج تحت تأثير المجاعة باستسلام المدينة وأهلها (897هـ ـ 1492م) وكانت قشتالة قد اتحدت مع الاراكون بسبب زواج ايزابيلا وفرديناند وانقطعت امدادات المغرب باحتلال مراسى الزقاق وتطويق السواحل وانتقـال الهجوم البرتغالى الى عقر الديار المغربية فاسترجعت الكاثوليكية بذلك آخر معقل عربى فى الاندلس وانعقد اول اجتماع مسيحى بين ملوك الكاثوليكية فى قصر الحمراء غداة الاحتلال ورغم الشروط السبعة والستين التى حاول الغرناطيون بها ضمانة حريتهم الدينية واموالهم بدأت سلسلة قاسية من التعسفات دفعت الامير المخلوع الى الهجرة لفاس وتنصير المسلمين بعد بضع سنوات (904هـ) بالحيلة والمكر تارة وبالضغط والارهاب تارة اخرى واستؤصل المتمسكون بالاسلام فى بليفيق واندرش وغيرهما من القرى وبدات افواج المهاجرين تنزح فارة بدينها من التحقيق والتقتيل مخلفة ذخائرها وعقاراتها ـ الى المغرب وتونس والاستانة ومصر والشام واشرف الكاردينال سيسنيروس بتاييد البلاط المسيحى فى متم القرن الخامس عشر الميلادى على عمليات التحقيق والتمسيح الاجبارى واحراق المخطوطات العربية وفى خضـم الصراع الـوطاسى السعـدى اسفرت ثـورات المسلمين العارمة بامصار مملكة غرناطة الشهيدة عن تشتيتهم وادماجهم فـى شمال البلاد وغربها عام 1570م ولكن تعلق الكثير منهم بالاسـلام حدا فيليـب الثالث الى نفيهم نهائيا (1609 ـ 1612 م) ففسح المغرب صدره للمهاجرين وورث حضارة الاندلس اليانعة

الفصل العشرون

السعديون ومعركة وادي المخازن

كان لسقوط الاندلس وغزو البرتغاليين والاسبان لسواحل افريقيا الشمالية رد فعل قوى فى نفوس الجماهير التى انتفضت فى الحواضر والبوادى للجهاد فى معركة صليبية عنيفة اتخذت المغرب مسرحا لها وقد اذكى هذا الاعتداء الروح العسكرية وبغض الاجنبى المغير وتبطنت هذه الوجهة الساذجة باتجاه صوفى جديد نما وترعرع ضمن وحدة شعبية شاملة قاد فورتها العلماء والصوفية والاشراف وقد اصبح اقطاب التصوف فى هذه الفترة جهابذة العلوم والفنون وستتبلور الزعامة العلمية خلال القرن الحادى عشر فى ثلاثة من قادة الصوفية (I) وانضاف الى ازدهار الثقافة الاسلامية اشعاع روحى جعل من الامة الواعية كتلة متراصة فى وجه العدو

السعديون يحررون ثغور الجنوب

وفى هذا الخضم العارم انبرى السعديون لقيادة الثورة تحت شارة الانتساب لآل البيت وكان البرتغاليون قد نفذوا الى السوس حيث انتشرت

(I) هم حسب صاحب نشر المثانى السادة محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن أبى بكر المجاطى رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسى صاحب زاوية المخفية (راجع كتابنا معطيات الحضارة ج ٠ I ص 156)

الفوضى لانشغال الوطاسيين بالجهاد في الشمال فبايع الناس محمد القائم بتيدسى قرب تارودانت (916هـ) وتأجج العراك ضد المسيحيين في حاحة والشياظمة وعبدة حيث اصطدم السعديون بيحى بن تافوت حليف البرتغاليين بأسفى فانكسروا أول الامر ولكن تدخل أحمد الاعرج انقذ الموقف فلجأ البرتغاليون الى جحورهم بالمساء واستتب نفوذ الامير عقب وفاة والده (923هـ) فشمل مراكش اثر درعة والسوس بعد القضاء على الناصر بن شنتوف عامل المدينة وكان الاعرج قد تولى ولاية العهد (918هـ) وظل السعديون يواصلون الجهاد الى ان زحف على مراكش فانهزم فى التحام شديد بتادلا (942هـ) واتسعت شبكة المملكة السعدية في الجنوب ، ولكن التاريخ أبى الا أن يعيد نفسه ، فاختلف الاخوان الاعرج ومحمد الشيخ المهدى الوزير المستخلف بالسوس فاستقل هذا بالملك (946هـ) وزج بأخيه فى غياهب السجن ، واكتمل تحرير الثغور الجنوبية باحتلال فونتى (947هـ) واختطاط مرساها (أكادير) ثم الدخول الى آسفى وازمور (498هـ) اللتين نزح عنهما البرتغاليون ، وكذلك اخضاع مراكش الحيرى التى ظلت متأرجحة بين السعديين والوطاسيين

وفى هذه الفترة وقعت مهادنة بين الوطاسيين والسعديين (942 ــ 955هـ) استغلها هؤلاء لتعزيز تحالفهم مع صنهاجة الدلائيين بالاطلس الاوسط وامراء هنتاتة بالاطلس الكبير ، وبعض صوفية الريف الذين خذلهم الوطاسيون فى حركة الجهاد ضد البرتغاليين وقد ظهر السعديون بمظهر ابطال الجهاد الاشاوس وذاع صيتهم فى طول البلاد وعرضها فاحبهم الناس

احتـــلال فـاس

وما لبثوا أن حاصروا مدينة فاس (955هـ) ودسوا من قتل الشيخ عبد الواحد الونشريسى الذى كان يحض الناس على التمسك ببيعة الوطاسيين ، فخلا الجو واقتحمت المدينة ونقل الوطاسيون مصفدين فى الاغلال الى حاضرة مراكش بينما فر أبو حسون الى الجزائر حيث استمرت المؤامرات أكثر من ثلاث سنوات خلال الحملة الثانية فطمع الامير السعدى الى تنحية حسن بن خير الدين عن تلمسان لاستعادة ماكان للمغرب من سلطة بافريقية والمغرب الاوسط ولكن الحملتين باءتا بالفشل حيث زحف السعديون فى الاولى نحو عاصمة بنى عبد الواد واقتحموها بعد حصار طويل (957هـ) ووصلوا الى وادى شلف فقتل الحران ثم جلا الاتراك عنها فحاول السعديون عبثا استرجاعها واضطروا الى الهجوم فى

صفر من نفس السنــة على فــاس لاقرار أبى حســون الوطــاسى الذى مـا لبث ان قتل بعد ان كر عليه محمد الشيخ من مراكش (شوال 961هـ) فاسترجع فاس وقتل من دعاة الحكم المنهار الفقيهين عبد الوهاب الزقاق وابا على حرزوز المكناسى مع اولاد ابى حسون وفلول الوطاسيين مثيرا بذلك حفيظة العلماء وقــد خــف تحمس الشعب لاسيما في الصحراء والاطلس للدولة الناشئة عندما فرض محمد الشيخ ضريبة النائبة (الكانون) وأصبحت فاس غير مامونة فنقل السعديون عاصمتهم الى مراكش وعززوا جيشهم بالاتراك الذين قدموا مع أبى حسون بقيادة الكاهية صالح باى (وهم اليكشارية أى الجيش الجديد)

التحالــف مع الاسبـــان

وكان الشغل الشاغل لمحمد الشيخ هو مطامع الاتراك بالمغرب حيث اوفد السلطان سليمان للدعوة له على المنــابر وسك النقــود باسمه احتــداء بأبــى حسون فشعر بالخطر الداهم ولم يكد رسول البا بالعالى يعود الى القسطنطينة حتى صدر الامر بدس بعض صعالكة الاتراك لاغتيال الامير الذى كان فى نفس الوقت يسعى فى التحالف مع الاسبان لطرد العثمانيين من افريقيا الشمالية

اغتيال محمد الشيخ : واندرج الدخلاء العثمانيون فى الحرس السلطانى مغتنمين الفرصة حتى واتتهم خلال احدى الغزوات بالاطلس فقتلوا السلطان فى اكلكال (قرب تارودانت) ونقلوا رأسه فى مخلاة (964هـ) ولكن أحيط بهــم فى الطريق فانتشروا وعاد بعضهم للتحصن فى تارودانت واحتال عبد الله الغالب بعد فشل الحصار فى التظاهر بالجلاء فكر ضد الاتراك ومحقهم خارج الاسوار ونجا بعضهم بالراس الذى نقل الى الجزائر عن طريق سجلماسة وتلمسان وعلق باحد أبواب القسطنطينية ودفن محمد الشيخ فى قبور السعديين بمراكش فى الوقت الذى قتل قائدها أبا العباس الاعرج وأولاده فخلا العرش للمولى عبد الله وبذلك مات اول امير سعدى زعزع الاستعمار البرتغالى ووقف حجر عثرة فى سبيل التدخل التركى ووضع دعامة دولة فتية سوف لاتلبث ان تندرج فى طليعة الدول التى يحسب لها حسابها فى اوربا وكان من ابرز ما اصطدم به هذا الامير العالم الجرىء المشكل المالى فقرر نهج خطة استثنائية بفرض ضريبة النائبة على جميع طبقات الامة حتى الذين كانوا يعفون منها لحد الان مثل الاشراف وارباب الزوايا وكانت تدفع عينا (الشعير والقمح والسمن والشياه) وقد وظف السعديون

بافتاء بعض العلماء خراجا على الاطلس بدعوى انه فتح عنوة على غرار ما زعمه الموحدون والمرينيون وقد فتح السلطان بذلك جبهة شعبية ضد الدولة اضطرته لخوض معركة عارمة ضد ارباب الزوايا واهل درعة والاطلسيين الذين نكل بهم فمات بين احضانهم بطعنات الاتراك وكانت هذه هي الانتفاضة الطرقية الاولى ضد الحكم القائم مافتئت المناورات الخارجية ان اذكتها عندما اضطر محمد الشيخ الى محالفة الصليبيين ضد الاتراك المسلمين

عبد الله الغالب (965 ــ 981 هـ) ــ (1557 ــ 1574م)

بويع بالاجماع بفاس ثم مراكش عند مقتل ابيه الذى عقد له ولاية العهد فى حياته ولم يكد يستتب له الامر حتى فر اخواه عبد الملك واحمد من سجلماسة الى تلمسان صحبة اخيهما عبد المومن ثم الى القسطنطينية للاستصراخ بالسلطان سليم بن سليمان العثمانى وزحف فى هذه الاونة الى فاس الباشا التركى حسن ابن خير الدين فالتحم مع الجيش السعدى بوادى سبو ثم انهزم متراجعا

وكان الاتراك مشتغلين فى هذه الفترة باحتلال البلقان وأوربا الوسطى فكان للقراصنة الفضل الاول فى طرد الاسبان من ثغور الجزائر وتونس واخضاع الايالتين للحكم العثمانى ضد بنى عبد الواد والحفصيين وكان القراصنة قد استقلوا ببعض المراسى واسسوا جمهوريات حرة وتزعموا حركة الجهاد فى البحر المتوسط ومن هؤلاء الاخوان عروج وخير الدين اللذان استقرا بجزيرة جربة وحرروا عاصمة الجزائر وتلمسان(1)ولكن الاسبان استرجعوا هذه المدينة وقتلوا

---

(1) يظهر من مقارنة النصوص التاريخية ان الزحف على تلمسان وقع مرتين : عندما كان الاسبان فى وهران يحمون آخر ملك من بنى عبد الواد وفى هذه الحملة مات الحران وهناك حملة اخرى تمت بتحالف السعديين مع الاسبان عندما كان حسن بن خير الدين فى تلمسان ولكنها فشلت لان المفاوضات السرية المغربية الاسبانية افتضحت فاحتل صالح الرايس بجاية وحاول الاتراك طرد الاسبان من وهران

وتقول بعض المصادر بأن احمد الاعرج لم يعتقل بمراكش بل انحاز الى تافيلالت ومنها تحالف مع احمد الوطاسى ضد اخيه ثم مع ابى حسون بعد عودته من الجزائر وقبل انهزام ابى حسون ثم قتل هذا الاخير بتادلا (1554هـ)

ولاحظ صاحب النزهة ان صالحا جاء فى الوفد المكلف بالاغتيال والظاهر انه ورد قبل ذلك واستغل وجوده بالمغرب لهذه الغاية وتقول ←

عروج فعمد خير الدين تعزيزا لقوته الى ضم ايالته للاتراك بالدعـوة للسلطان سليم الذى جهزه بالجيش والمدفعية فاحتل عنابة وقسنطينة واصبحت جزائر بنى مزغانة عاصمة الجزائر التركية ثم احتل عاصمة الخضراء (تونس) (940هـ) التى استردها الحفصيون ثم احتلها الاتراك (977هـ) وأصبح خير الدين قبطان باشا أى أميرالا للاسطول التركى وخضعت البلاد للحكـم العثمانى عـام 981 هـ والبيلكى بامرة امثال حسن اغا وحسن باشا والباشا صالح وعلى العلج الذين صاروا يتدخلون فى شؤون العرش المغربى. وتقول مصادر اجنبية بأن أبا حسون اتجه من فاس الى اسبانيا لطلب النجدة من ماكسيميليان نظرا لتغيب والـده شارل الخامس ثم عاد الى اسبانيا مع ملكها المقبل فيليب الثانى ولكنه لم يحصل على أية اعانة اسبانية فالتجأ الى البرتغـال التـى امدتـه بست سفن ليـرابط بها فى الحصن البرتغالى بحجرة بادس وعندما كان أبو حسون متوجها نحو سواحل الريف اسره قراصنة صالح الرايس فنقل الى الجزائر

وقد حاول السلطان تغطية سياسته الخارجية المتنافية مع مبادىء التحرير والجهاد التى دعمت قيام الدولة السعدية بالزحف ضد البرتغاليين فى البريجة (الجديدة اومنزغان) فى نفس السنة (969هـ) بقيادة ولده محمد المسلوخ قتيل (وادى المخازن) فمنى الحصار بالفشل كمـا أسس جامـع المـواسين (970هـ) ومارستان وجدد بناء مدرسة بن يوسف المرينية بمراكش وتملق الى الصوفية فتتلمذ للشيخ احمد بن موسى السملالى وابى عمرو القسطلى ولكنه ظل مع ذلك يخشى مغبة نفوذ الطرقية فنفى الشيخ عبد الله بن حسين الى تامصلوحت وقتل الظاهرى محمد الاندلسى ونكل بالمبتدعة من طائفة شراقة التى انتسبت الى احمد بن يوسف الملياني

رواية اخرى بان القتلة فروا اولا الى اكادير حيث وعدوا بنجدة من السفن التركية الى بادس التى كانت قد سقطت فى قبضة الاتراك ويظهر ان العثمانيين عدلوا عن الزحف من جديد ضد المغرب لان الاسبان هددوهم فى تلمسـان فاستفـاد السعديون من التنافس التركى الاسبانى فى المغرب الاوسط وشعر الاتراك بان تخليص وهـران من السيطـرة الاسبانيـة يستلـزم احتـلال شمال افريقيـا فاعتزموا القيام بحملة جديـدة اضطـروا لتأجيلهـا فبادر الخليفـة السعـدى تعزيزا لتحالفه مع اسبانيا بالتنازل لها عن حجر باديس وبالضرب على يد قراصنة مارتيل الذين كانوا يضايقون الاسبان واحتلال شفشاون (969هـ) واستئصال امارة بنى راشد التى ساندت المجاهدين فى ناحية الهبط وتطوان

ومات السلطان بداء الربو (الضيقة) وهو في غمرة هذا الصراع (981هـ) فدفن بمقبرة الاشراف السعديين

محمد المتوكل : (981 ــ 983هـ) (1574 ــ 1576م)

وكان مولاى محمد ولى العهد نائبا آنذاك بفاس فجددت له البيعة بمراكش ثم فاس ولقب بالمتوكل وهو معروف بالمسلوخ وقد جمع بين قوة العارضة العلمية وقوة الشكيمة والدهاء وقد واجه من اعتلائه العرش مشكلة خطيرة هي وجود عمه عبد الملك وأحمد فى القسطنطينية لاجئين عند السلطان سليم يستحثانه لامدادهما بالجيش والعتاد لاعتلاء اريكة المغرب الاقصى وتقاعس الباب العالى عن النجدة أول الامر فانغمر الاخوان فى الجيش العثمانى الموجه لفتح مرسى لاكوليت (بعاصمة تونس) وتمكنا من المسارعة بنقل بشارة النصر الى الخليفة الجديد مراد قبل وصول البريد الرسمى على ظهر قارب قرصانى واستغلا هذه الدالة بمساعدة والدة عبد الملك سحابة للاستشفاع فى دفن راس والدهما الشهيد الذى كان لايزال معلقا والحصول على مدد عسكرى من الجزائر وصادف الحال وجود عناصر مثل العلج على تواقة للتدخل فى المغرب فانتظمت الحملة واستسلف عبد الملك المال والعتاد وزحف نحو المغرب الاقصى فى حشود تركية وكانت تونس قد حررت من طرف العثمانيين فتضايق الخناق بوهران على الاسبان الذين صاروا يفكرون فى مهادنة الاتراك ولكن تصلب الباشا الذى طالب مدفوعا من طرف فرنسا بجلاء اسبانيا على افريقيا اسفر عن فشل المفاوضات واصبح محمد المتوكل معزولا لايجد فى حلفاء ابيه الاسبان استعدادا لايقاف الحملة التى وصلت الى ناحية فاس دون عناء فانضم أجناد الاندلس الى عبد المالك وأشيع فرار القائد ابن شقراء مع جنده الى الجيش الفاتح ففت ذلك فى عضد المتوكل الذى سارع الى النزوح عن فاس بما خف من الدخائر ولقى قائده ابن شقراء وجيشه فشعر بالمكيدة ولكن سبق السيف العذل ودخل أبو مروان الى فاس (سابع ذى الحجة 983هـ ــ 31 مارس 1576م)

مولاى عبد الملك (983 ــ 986هـ) (1576 ــ 1578م)

وقد امتاز مولاى عبد الملك باصالة فى الراى نتجت عن تقلباته فى الخارج

الغضون كان المتوكل قد وصل الى اشبونة فتطارح على ملكها الشاب الدون سبستيان الذى كانت نفسه الطموح تحدثه بغزو المغرب فى حملات صليبية جديدة وحسب الامير المغرور الفرصة سانحة فاهتبلها رغم نصح رجال الدولة بالعدول عن هذه المغامرة الزائفة وقد سبق له أن زار سبتة فى السنة التى اعتلى المتوكل أريكة العرش بدعوى الصيد فى الارباض كما خاض معركة فى حوز طنجة ضد كتيبة من فرسان السلطان ءانذاك واشترط سبستيان مقابل الاعانة امتلاك أصيلا وتبعية المملكة المغربية للبرتغال وتنافس أبو مروان لاحباط مسعى ابن أخيه فاقترح على ماقيل التنازل عن ثغر مغربى تختاره اشبونة مع مقاطعة تبلغ مساحتها ثلاث عشرة مرحلة حول الجديدة وسبتة وغيرهما غير ان الحشود البرتغالية كانت قد تجمعت فى طنجة وأصيلا (ربيع الثانى عام 986 هـ) (1) وبرر المتوكل هذه الحملة الصليبية على المغرب وفتح أبواب أصيلا للمسيحيين - وكانوا قد جلوا عنها أيام محمد الشيخ - بتقاعس المسلمين عن نصرته فأجابه العلماء والاجناد برسالة حملوه فيها تبعة الفرار من المسؤولية والنزو على العرش الذى عهد محمد الشيخ به للاكبر فالاكبر تبعا لتقاليد الملك العضود فى صدر الاسلام وسار الاجناد البرتغاليون فى حركة بطيئة بعرباتهم ومعداتهم الثقيلة فوصلوا الى أرباض القصر الكبير فى ظرف زهاء عشرة أيام واستنفر ابو مروان فى هذه الاثناء جيش فاس بقيادة اخيه لمواجهة هذا الزحف الاجنبى الذى نصح المتوكل تعزيزه باحتلال تطوان والعرائش للاستعانة سلفا بقبائلهما ولكن أبا مروان استعجل سبستيان بالتحدى (2) فعبر وادى المخازن وعسكر قبالته وبادر أبو مروان غب وصوله بنسف قنطرته فانحبس البرتغاليون بين نهرين وتعذر عليهم كل تراجع الى الخلف لانعدام المشارع فى الوادى وانتظم الرجالة المسيحيون ضمن مربع قبعت فى قلبه قوافل عربات المؤن والذخيرة ووقف الرماة فى الطليعة والفرسان ميمنة وميسرة وواجههم المسلمون فى نفس

---

1) بلغ عدد الجنود البرتغالية 125.000 حسب نزهة الحادى والمنتقى المقصور و 60.000 حسب الذخيرة السنية ونحو 200 مدفع اما المراجع الاجنبية فانها تتحدث عن 14.000 راجل و 2000 فارس و 36 مدفعا مقابل 50.000 راجل فى الجيش المغربى و 22.000 فارس معظمهم أعراب من الخلط وغيرهم و 1.500 من الرماة و 20 مدفعا .

(2) تقول النزهة بأن ابا مروان كتب رسالة الى الامير البرتغالى يستفز نخوته للمجيء الى وادى المخازن وكانت مكيدة من الخليفة السعدى

النسق في شكل هلال مسرح الاجنحة للانقضاض من الجوانب عند الاقتضاء وبدأت المعركة في الهجيرة (متم جادى الاولى عام 986هـ ـ 4 غشت 1578م) وأشعة الشمس تبهر عيون العدو ولهيبها يلفح وجههم وأسنة الرماح وقذائف الانقاض تهددهم من أمام والمياه الزاخرة من خلف وسارع جيش أبي العباس الى الهجوم فانقضت ميمنته على مؤخرة العدو بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة فتهالك المسيحيون صرعى من جراء هذه الصدمة العارمة وانحازت الفلول الفارة فغرقت في اليم وفي ضمنها سبستيان والمتوكل ولفظ أبو مروان نفسه الاخير بعد استعصاء مرضه فسلخت جثة المتوكل وحشيت تبنا وطيف بها في المدن وسلمت اشلاء الامير البرتغالي من طرف الامير أبي العباس الى ذويه ونقل رفات أبي مروان الشهيد الى مقبرة الاسرة بمراكش وبويع أحمد خليفة فخف للقبض على زمام الامر بعد استتباب النصر واعلان موت السلطان بينما تسارعت الفلول المهزومة لاجئة لاصيلا حيث بقي الاسطول رابضا .

واذا كانت هذه المعركة الفاصلة فترة عارضة في تاريخ الصراع بين المسيحيين والاسلام ـ كما يقول طيراس ـ فانها كانت انتفاضة شعبية ضد الصليبية المعتدية انزلت الضربة الاخيرة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال دولة البرتغال لان الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثاني ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة ولكن الاساطير انبثقت لتحيط هذا الجانب أو ذاك بهالة من القداسة ربما كان الكثير منها بعيدا كل البعد عن الواقع الذي لم يكن أكثر من معركة قضت على الوجود البرتغالي بالمغرب كما قضت وقعة طريف البسيطة العادية على الوجود المريني في الاندلس ولكن صدمتها كانت من مظاهر عناية الله بالدولة الناشئة التي خطبت ودها الدول العظمى لان هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالشيء الهين ولا بالشيء الذي يمر دون أن يثير اعجاب العالم مهما تكن حقيقة الاوضاع والملابسات وأشع هذا الانتصار ففتح عهدا جديدا في علائق النصرانية والاسلام .

الفصل الواحد والعشرون

العصر الذهبي وفترة الانحلال

بويع أبو العباس أحمد المنصور غداة انتصاره في معركة وادي المخازن من طرف الجند الذين أغدق عليهم هداياه وتنازل لهم عن خمس المغانم مقابل الأعطيات العادية ثم تجددت البيعة بفاس (جمادى الثانية 986هـ) وكان المنصور عالما شاعرا رقيق الحاشية له ولوع بالمعارف الطريفة قد أكسبه مقامه في الاستانة اطلاعا على شؤون اوربا ودول البحر المتوسط فأظهر مهارة ودهاء في توجيه سياسة المغرب الخارجية وقد بادر باستغلال النصر فأبرق الى السلطان مراد ببشارة انهزام قوات الصليب وتوالت عليه وفود التهنئة من تركياوالجزائر وقشتالة وفرنسا وحتى البرتقال بالهدايا والتحف الثمينة استعرضت في حفل شعبي بفاس ٠

وكان شغوفا بمظاهر الحضارة الاندلسية المغربية وبالطابع القومي في الفكر والتقاليد وكان المرض العصيب الذي ألم به في السنة التالية (987هـ) قد ضاعف من اتزانه وانكبابه الجدي على دعم مقومات الدولة التي حاول ان يضفي عليها طابعا افريقيا بتوسيع رقعتها في اقصى فيافي الجنوب ولعل اندحار البرتغال هو الذي حداه الى أن يخلفه في اكتساح الصحراء والسودان ٠

سياسة المنصور الداخلية والخارجية :

واستشعر المنصور من مقامه في دار الخلافة العثمانية بما للمظاهر والشكليات من أثر عميق فوسم بلاطه بمعالم الفخفخة وشيد قصر البديع وشكل جيشا جديدا عزز فيه العنصرين العربي والبربري بالمرتزقة الاتراك والاندلسيين وأحاط مراسيم الملك بهالة من القداسة تبلورت في الالقاب الرنانة والحفلات الدينية الرائعة وابراز الشرف السلالي في الجمع والاعياد والمواسم الطارئة .

وبدأ المنصور بتنصيب ولي عهده محمد المأمون (987هـ) وهو بفاس وتجددت الحفلات بعد سنتين فخرج الخليفة الى الارباض لاقتبال ولده وتجلت التراتيب الطريفة في الجهاز العسكري بتنافس فاس ومراكش وأشاد الشعراء بالامير الشاب الجالس على السرادق بحضرة أهل الحل والعقد من العلماء والقادة والاجناد .

الثورات :

وفي هذه الآونة ثار داود بن عبد المومن اخي المنصور مع ثلة من البربر فانتصر عليه ابن بجة قائد الجيش السلطاني في سكسيوة ثم هزالة ففر الى الصحراء لاجئا الى معاقل الوديا الذين واصلوا تشعيبهم منذ المرينيين وكذلك الخلط الذين عاثوا فسادا في أزغار بعد ان أدرج المنصور معظمهم في ديوان الجيش جزاء استماتتهم يوم المخازن وكان والده قد نقلهم الى مراكش اثر انضمامهم لابي حسون وقد واجه المنصور (993هـ) في غمارة والهبط ثورة الحاج قرقوش الذي ادعى امارة المومنين فقتل وبعد عشر سنوات زحف الناصر ابن عبد الله الغالب من مهجرة بقشتالة - حيث نزح غداة وفاة المعتصم - فالتفت حوله كثير من القبائل التي أقضت مضاجعها صرامة المنصور غير ان معركة عنيفة دارت في الحاجب (1004هـ) أسفرت عن انهزام الناصر ومطاردة المامون له فقتل وحمل رأسه الى مراكش وترددت أصداء هذا النصر في الرسائل المبردة الى علماء مصر وسلطان الحجاز تنديدا بمناورات قشتالة الصليبية في اثارة الادعياء ضد دار الاسلام .

وكانت الاحن قد نشبت بين الاخوة بعد تجديد البيعة للمامون (992هـ) فاضطر المنصور لتنصيبهم أمراء في الاقاليم عاقدا لابي فارس على السوس ولابي الحسن

على مكناسة ولزيدان على تادلا (ثم عكس فى هذين) وخبثت طوية المامون فاستبد بفاس وآثار بتعسفاته مكامن الشعب فحنق الوالد وقرر نقله الى اقليم سجلماسة ودرعة ولكن الابن الثائر تقاعس وسم وزيره ناويا الفرار بجنده لتلمسان استصراخا للاتراك فخرج المنصور من مراكش فى حشد غامر (1011هـ) وفر الشيخ المامون مع عصابته التركية وفلول أولاد طلحة والخلط لزاوية أبى الشتاء بورغة فتعقبه الباشا جودر فاعتقل فى سجن مكناسة وهكذا كان تقسيم الدولة بداية الانحلال ٠

السياسة الخارجية

ولم يغب عن ذهن المنصور فى هذا الخضم من المناورات الداخلية ما كان يهدد كيان المملكة من الخارج لولا النزاعات الاروبية التى وجد فيها الخليفة حاجزا موقتا وكان الصراع قائما ءانذاك بين بلاد النمسا وانجلترا وفرنسا وهولندا مما قلص سياسة التوسع الافريقى الاسبانية ومعلوم ان شارل الخامس ملك اسبانيا كان امبراطورا للنمسا والمانيا وحارب ملك فرنسا فرانسوا الاول طوال ثلاثين سنة وكذلك الاتراك وخلفه ولده فيليب الثانى الذى ملك الى جانب اسبانيا هولندا ثم البرتغال بعد مرور ثلاث سنوات على وادى المخازن (1580) وعاش بعد ذلك زهاء العشرين سنة (الى 1598م) لم تمكنه الظروف خلالها من استفزاز المغرب الذى كانت ذكرى انتصاره الباهر ما زالت عالقة بالاذهان كما انغمرت تركيا فى الحروب الاوربية فلم تعد تهدد المغرب وكان بذخ المغرب وقصوره الفخمة وعملته القوية تحدو الدول الى خطب وده تقديرا لسكره وابريزه وبعد أن كان فيليب الثانى يطمح الى احتلال العرائش اضطر الى التنازل عن أصيلا (1592م) لحمل السلطان على عدم تأييد الدون انطونيو الطامع فى عرش البرتغال ،

وكان المنصور قد اقتبل ببرود وفد مراد العثمانى الذى ورد على مراكش للتهنئة بالنصر فحنق الباب العالى وانصت للطامعين فى غزو المغرب أمثال الباشا على علوج الذى تمكن من اقناع السلطان بتوجيه حملة ضد مراكش وطرق الخبر سمع المنصور فاستعد للنزال بينما وجه الى القسطنطينية سفارة فيها الاحمدان ابن ودة والهوزالى لقيت اسطول علوج فى طريقه الى المغرب فتم التهادن وتبادل الوفادات والهدايا وعززت اسبانيا حلفها للمغرب خوفا من وجود علوج

بالقرب من مركزها بوهران ولكن علوج اقصى الى الشرق الادنى ومات بعد خمس عشرة سنة فتقاربت اسبانيا وتركيا بالاعتراف بالوضع القائم غربى البحر المتوسط وكان فى ذلك تعزيز غير مباشر للسعديين ·

أما مع انجلترا فان المبادلات التجارية ظلت نشيطة وعرف المغرب كيف يستغل قضية انطونيو الذى كانت انجلترا تحدوه الى مساعدته فاحتفظ المغرب بنجل هذا الداعى واضطرت البرتغال للتنازل عن أصيلا لحمل المغرب على عدم الاعانة فحاول الاسطول الانجليزى وحده عبثا امداد الامير لاحتلال البرتغال ومع ذلك بقيت انجلترا تطمع فى اقناع المنصور بالتحالف ضد اسبانيا والاشتراك فى غزوا الهند وبدأت الدبلوماسية الفرنسية منذ ذلك العهد توجه قناصلها للمغرب كما توطدت علائق طيبة مع هولندا ·

غزو السودان :

تقع على مصب النيجر شمالى السودان أقطار مثل كاغو يملكها ءال سكية الصنهاجيون وقد حج محمد سكية أواخر القرن التاسع فحظى من الخليفة العباسى بلقب الامارة بالسودان حيث نشر معالم السنة واحتذى بمراسيم الملك العباسية وتوالى على العرش بعد وفاته ولده داود ثم اسحاق وقد سبق للمنصور أن تلقى هدايا ابى العلاء أمير برنو الذى استعان بالسعديين على نشر الدعوة الاسلامية وكان المنصور قد استولى عام 990هـ على بعض منافذ الصحراء كتوات وكورارة فاستغل وجود الوفد السودانى لدعوته الى البيعة واوفد رسولا الى الامير اسحاق للمطالبة بترتيب خراج على معدن الملح بتغازى مثقالا ذهبيا لكل حمل لتمويل الجهاد المشترك فى سبيل نشر الاسلام بالسودان وكان آل سكية يستدرون من هذا المنجم اموالا طائلة طمح المنصور الى استغلالها باسم الخلافة فكان رفض الامير اسحاق مطية لغزو السودان الذى بادر المنصور بامتطاء أوعاره رغم معارضة حاشيته متعللا بوجوب الجهاد جنوبا ان تعذر بالاندلس شمالا وتحرك الجيش المغربى باجهزة جديدة قوامها ءالاف الجمال (I) والافراس وعدد من المدافع المحمولة على العجلات بقيادة الباشا جوذرفوصلت القافلة العسكرية عن طريق درعة الى تنبكتو ومنها الى كاغو بعد ستة أشهر (I6 ذى الحجة 998هـ) جمادى الاولى

(I) تقول المصادر العربية بأن هذا الجيش بلغ 22·000 من رماة وفرسان ورجالة مقابل 104·000 مقاتل سودانى مجهزين بالرماح والسيوف ·

999هـ) فانبرى الجيش السوداني والتحم الفريقان في تونديبي فانهزم الزنوج لضعف عتادهم فاحتل جؤذر مدينة كاغو واقترح اسحاق الصلح مقابل اتاوة سنوية وهدايا نفيسة من الذهب الرقيق (1) فقبل مبدئيا بشرط موافقة المنصور فانحاز الجيش الى تنبكتو بعد أن ارهقته وخامة الجو فغضب الخليفة وبعث جيشا جديدا بامرة محمود باشا أخي جؤذر فاستحث القائد الجديد ركائبه ووصل أوائل السنة التالية (1000هـ) بقواربه المفككة لشحن الجند بمياه النيجر وساوقه أغلب الجند برا فالتحم الفريقان وطورد اسحاق وأخوه فقتلا وعاث الجند المغربي سبيا وفتكا في طريقه نحو الجنوب حيث عسر الوصول الى مناجم الذهب وارتاب المنصور في ءال اقيت وهم من ذوي السؤدد والوجاهة بتنبكتو فنفاهم الى مراكش (1002هـ) وفي ضمنهم احمد بابا الذي لم يرجع الى بلاده الا بعد وفاة المنصور وظلت السودان خاضعة للقائد محمود ثم لسلسلة من الباشوات المستقلين والكاهيات الذين حكموا البلاد ودعي لهم على المنابر الى ءاخر عهد الحسن الاول والاحتلال الفرنسي (1893م) .

وتوفي المنصور بفاس بالوباء (2) الذي عم المغرب وذلك اثر اعباء القمع لثورة ولده المامون (11 ربيع النبوي 1012هـ) .

وقد اتخذت الحضارة المغربية في هذه الفترة مظهرا جديدا تبلورت فيه الأزدواجية العربية التركية في الجيش ومراسيم الملك وأبهة العرش والتراتيب الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي وبموسم الشموع غداة العيد وسرد البخاري في رمضان ولجمع المسمعين من حواضر المغرب لانشاد اشعار الصوفية وقصائد المديح السلطاني في قصر البديع المنمنم بنمارق الذهب وحائطيات الديباج وتوافر الوصفان والعلوج الرافلين في الاقبية المخوصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة (3) وسط مباخر العود والعنبر وصحائف الفضة والذهب الاندلسية والتركية والهندية .

---

(1) يقال بأن الامير سكية اقترح بذل 100.000 قطعة من نقود الذهب و 10.000 من الرقيق مع احتكار وسق الملح الى السودان .

(2) فند اليفرني ما أشيع من أن المولى زيدان هو الذي سم والده باشارة أمه الشبانية .

(3) راجع النفحة المسكية في السفارة التركية للتامجروتي .

فتــرة الانهيــار

ولكن هذا الجهاز الضخم ما لبث ان انهار بعد ان تطاحن ابنــاء المنصور لاعتلاء أريكة العرش وتجدد انقسام الدولة الى مملكتى فاس ومراكش وانبرى أمراء الطوائف لتجزئة المغرب الى اقطاعيات بدأت الازمة العارمة بتناحر الاخوة الثلاثة مولاى زيدان المبايع بفاس وأبى فارس الذى انصاعت له مراكش وانضم اليه شقيقه المامون المحرر من طرف القائد أحمد بن المنصور العلج وحار العلماء بين المعسكرين فوجه أبو فارس ولده عبد الملك مع أخيه المامون لمحاربة زيدان والتقى الجمعان بوادى أم الربيع ففر زيدان مطاردا من أخيه المامون الذى ما فتيء أن دعا لنفسه فالتفت حوله أهل فاس وجهز ابنه عبد الله لقتال أبى فارس فدخل مراكش ونكل بأهلها فى غمرة من الفساد الصارخ (1015هـ) وفى هذه الاونــة وصل زيدان الى تلمسان مستعديا الاتراك فماطلوا وحداه اليأس الى العــودة للمغرب لاحتلال سجلماسة ودرعة والسوس ثم مراكش بعد ان فرمنها عبد الله ابن المامون فتحالف الشقيقان ابو فارس والمامون وزحف عبد الله نحو مراكش فى جيوش أهل فاس الموتورين واحتل المدينة من جديد بعــد ان انهــزم جيش مراكش بقيادة مصطفى باشا ففر زيدان ولجأت جماعة من المراكشيين الى جبل كيليز حيث بايعت الامير أبا حسون بن زيدان ابن الاعرج (1) ففر عبد الله وعاد زيدان فاسترجع مراكش بعد هزيمة ابى حسون وفى هذه السنة (1016هـ) هاجر كثير من الغرناطيين فارين بدينهم من التحقيق والتمسيح والتعسف الى تطوان وقصبة رباط الفتح فى الوقت الذى لجأ المامون الى العرائش ثم اسبانيا بعــد دخول زيدان لفاس (1017هـ) وفرار أبى فارس وعبد الله الى بنى يزناسن بالمغرب الشرقى .

مملـكـة فــاس

وقد حصل المامون على تأييد ملك اسبانيا فيليب الثانى مقابل تنازله عن العرائش التى أجبر أهلها على النزوح عنها (1019هـ) واحتل مدينة فاس فضــج العلماء والصوفية ضد هذه الصفقة الخائنــة ، ولكنــه أقنــع بعض العلمــاء

---

(1) حسب زهرة الشماريخ .

باضطراره لذلك لاحتفاظ اسبانيا بأولاده رهائن واستصدر منهم فتوى تبرر عمله ورغم اعتزازه بعرب تلمسان وتطاحن اللمطيين والاندلسيين بفاس فان روح الجهاد ظلت متأججة حيث ثار الشعب بقيادة سليمان الزرهونى ضد عيث شراقة وانتهاكهم الاعراض واستعرت المناوشات وعمد المامون الى اخماد الثورة بالقوة فاتجه نحو الشمال حيث كان المجاهدون يخوضون معركة عارمة ضد الصليبية الزاحفة بقيادة مقدم تطوان أحمد النقسيس ومقدم الفحص أبى الليف فقتل المامون (1022هـ ـ 1613م) وخلفه ولده الذى كان قد استبد بفاس وأهلك الحرث والنسل وحاول استغلال خلاف العدوتين نحوا من خمس سنوات ولكن اخاه محمد زغودة بويع فى الشمال بضريح مولاى عبد السلام بن مشيش بدعوة من الشريف سيدى على بن ريسون فطرد عبد الله من فاس (1028هـ) ثم رجع اليها وانتشرت الفوضى بتعاقب الادعياء على العرش وتقتيل العلماء ونهب الدور الى ان مات الامير عبد الله بعد أن ملك عشر سنوات (1032هـ) فكان الادمان على الخمر والدعارة السافرة من عوامل التعجيل بوفاته وبوفاة والده قبله وقد خلفه اخوه عبد الملك الذى توفى عام 1036هـ وظلت الفوضى ضاربة أطنابها بفاس رغم محاولة مملكة مراكش السيطرة عليها الى ان ملكها أهل الدلاء كان زيدان منهمكا فى تركيز سلطته بمملكة مراكش فسالم البرتغاليين فى الجديدة متجها لاخماد ثورات القواد والادعياء وقد استنجد بالباب العالى(1) واستعان بالقراصين الاسبان عند استعصاء وضعه السياسى لتهريب ذخائره وخزانة كتبه الى اكادير ولكن المنية عاجلته (1037هـ) فخلفه ولده أبو مروان عبد الملك وهزم أخويه الوليد وأحمد فتارجح هذا الاخير بين العرش والسجن بفاس الى ان قتل (عام 1051هـ) بينما قتل الاعلاج ابامروان السكير الخليع بمراكش قبله بأزيد من عشر سنوات (1040هـ) فخلا الجو للوليد الذى ظل يتقلب فى سلطنة مراكش الضيقة منكلا بمنافسيه من الاسرة المالكة رغم ماوسم به من ديانة فأودى الاعلاج بحياته (1045هـ) وبويع أخوه محمد الشيخ ولكن الثورات توالت فالتحم الامير مع هشتوكة والشياظمة علاوة على الدلائيين والعلويين الى ان مات (عام 1064هـ) فبايعت مراكش ولده مولاى العباس أحمد الذى استبد عليه

---

(1) ذكر اليفرنى أن زيدان أهدى الى القسطنطينية عشرة قناطير من الذهب فأعانوه بـ 12٠000 جندى غرقوا فى البحر ٠

أخواله من الشبانات فقتلوه (1069هـ) (1) وبايعوا أميرهم عبد الكريم (كروم الحاج) فانقرضت دولة السعديين .

وقد واجه زيدان نفسه قبل ثلاثين سنة حملة اتسمت بطابع الجهاد واضطلع بها الصوفية وكان الانحلال العام يبرر هذه الثورة التي انبثقت باسم الدين لتهالك أبناء المنصور على اللهو والمجون.

أبو محلي والحاحي : فظهر أبو محلي في سجلماسة ودرعة وهزم جيوش زيدان واحتل مراكش فاستنجد الامير بأبي زكرياء يحيى الحاحي الفقيه الشاعر وهو شيخ زاوية بالاطلس الكبير فالتحم الطرفان في كيليز (1022 هـ) ومات أبو محلي فاسحا الميدان لعودة زيدان الى العاصمة وكان الاسطول الاسباني قد أضاف الى العرائش المعمورة (المهدية) في نفس الفترة (1023 هـ) (2) .

العياشي : وهنا انبرى العياشي تلميذ سيدى عبد الله بن حسون (من بني مالك) ففر من أزمور حيث كادت تحيط به عصابة زيدان بعد اثخانه ضد الجديدة ثم حارب اسبان المعمورة فدس زيدان من يقتله من أشياخ الاندلس وتوالت الدسائس فانتقض اندلسيو سلا على زيدان وقتلوا قائده عجيبا وادلهم الجو في خضم من الفوضى والنهب فاستنجد شعب أبي رقراق بالعياشي وانضمت اليه قبائل الاقاليم الممتدة من تامسنا الى فاس وتازة معززة بالفقهاء والعلماء كسيدى العربي الفاسي وابن أبي بكر الدلائي ومحمد بن ناصر الدرعي فاضطر في بادىء الامر الى قمع المشغبين من عرب الحياينة وشراكة من الغرب وأسر جند اسباني طوح بهم الموج الى الساحل ثم استأصل بجيش فاس معظم حماة حلق الوادى وكاد العياشي يحرر المهدية لولا توارد الامدادات وتقاعس الجند الاندلسي على اعداد الجهاز الحربي لتسلق الاسوار وبدأ الشقاق يدب الى نفوس المجاهد واعوانه من الاندلسيين الذين اتهموا برقة الدين وتواطؤهم مع المسيحيين فأفتى العلماء بجواز قتالهم ولم يقتصر جهاد العياشي على المهدية بل والى غاراته على العرائش وتوغل في مملكة مراكش خلف أم الربيع للانقضاض على حماة الجديدة الذين استهانوا بالمسلمين وخاصة أزمور فاستأصل عام 1049هـ (1639م) جند البرتغال

---

(1) حسب النزهة أو 1065 حسب نشر المثاني الذى ذكر أيضا أن قتل محمد الشيخ تم عام 1063 هـ .

(2) حسب زهرة الشماريخ ونشر المثاني .

ونقل اسراهم الى سلا ثم حارب العدو فـي طنجـة (1050هـ ـ 1640م) واستتب نفوذه في الغرب باقرار النظام والضرب على يد المشغبين وخاصة بفاس ومطاردة المغير الاجنبى ولكن خصومه الاندلسيين كانوا قد لجأوا الى الدلائيين وتأزمت الغلائق فزحف البربر ضد جنود العياشى من العرب واستعر العـراك فانهـزم المجاهد وقتل على يـد عصابـة من الخلط (1051) وخلفـه ولـده عبـد الله الذى حاول نهج خطة والده فى الكفاح ولكن الدلائيين وقفوا حاجزا منيعا فى وجهـه ٠

الدلائيـون :

هم من برابرة مجاط الصنهاجيين وقد أسس جدهم أبو بكر تلميذ ابى عمرو القسطلى زاوية بالدلاء شرقى الخنيفرة باۤيت اسحـاق فأصبحت مركـز اشعاع علمى وملجأ ياوى اليه الاعلام وخلفه نجله العالم محمد الذى التف حوله برابرة الاطلس الاوسط وعند وفاته (1046هـ) أصبح ولده محمد الحاج زعيما سياسيا مالبث ان زحف نحو الغرب فاحتل مكناسة (1050هـ) ثم فاس بعد مقتل العياشى وانضمام سهول الملوية وقد عجز محمد الشيـخ عن ايقاف هذا التيـار الجارف فسالم الدلائيين لمواجهة خطر جديد انبثـق هـذه المرة مـن صحـراء سجلماسة ٠

السملاليون :

ابو الحسن او ابوحسون هو على بن محمد بن محمد نجل الصوفى احمد ابن موسى السملالى وقد انبرى فى السوس فى غمرة الحركة الصوفية التى ثارت ضد زيدان فاستولى على تارودانت ولكن صوفيا ءاخر هو يحيى الحاحى انتزعها منه بعد عراك فمات بها (1035هـ) وامتد نفوذ أبى حسون بودميعة بعد موت زيدان الى درعة وسجلماسة حيث استمر حكمه الى قيام العلويين ٠

الزيدانيون واوربا : وبينما كان الزيدانيون فى الاحتضار محاطين بامارات طرقية مستقلة اقرت وجودها بتزعم حركة الجهاد كانت أفواج المهاجرين تتوارد بعد ان طردت اسبانيا نصف مليون من المسلمين واليهود وكان فوج مرسية هو ءاخر من شملته قرارات النفى العام أواخر أيام المولى زيدان (1609 ـ 1614م) وكان التعلق بالاسلام ولغة القرءان والثقافة العربية السمة البارزة عند رجال المهجر

الذين استقروا بتطوان والشاون ومصب ابى رقراق فأصبحوا حربا على قوات الصليب وقراصنة البحار وأقاموا جمهوريات كانت لها سياستها الخارجية المستقلة ضمن كيان المغرب المنهار وقد استوطن قصبة الودايا أول الامر اندلسيون انحدروا تلقائيا من مدينة هورناشو الواقعة قرب ماردة ثم التحقت بهم بعد سنة فلول من مدن الاندلس السفلى فاستقروا برباط الفتح أو سلا الحديثة)داخل سور يقطع السور الموحدى عموديا من الجنوب الى الوادى بابراجه وابوابه (شالة ــ البويبة ــ التبن) وأشرفت القصبة على المجموع فى جهاز أوربى يدير دفته رئيس ديوان ومقدمان والتأموا مع زيدان والعياشى كجنود مجاهدين وقراصنة اشاوش ينوب الملك السعدى من اسلابهم العشر ولكنهم مالبثوا ان تحرروا من قيود السلطان الذى استنفرهم لمحاربة ابى حسون واختلفوا مع المجاهد العياشى وتارجحوا بين التكتل والنزاع مع سلا أو بعضهم بعضا داخل الرباط ولم تكن تدخلات فرنسا وانجلترا واسبانيا لتزيد الشقة الا اتساعا فاتهم العياشى الكل بالتواطؤ مع المسيحيين فأثخن الاندلسيون فى سلا وانحاز أهل هوناشو للزعيم الصوفى الذى حاصر رباط الفتح بينما انصاعت هذه فترة من الزمن لمحمد الشيخ الاصغر وتمخض التطاحن عن سقوط المدينتين فى قبضة العياشى الى أن احتلهما الدلائيون بدافع من الاندلسيين الذين طبعوا هذه الحواضر بميسم من المدنية الاندلسية الناصعة تجارة وفلاحة وثقافة وفنا .

اسبانيا والبرتغال : وقد هاجم الاسبان مصب أبي رقراق قبل وفاة زيدان بأربع سنوات بعد ان اصبحت المرسى مأوى للقراصنة الاجانب وخاصة منهم الانجليز بزعيمهم هنرى مانوارين *Mainwaring* واحتلوا المهدية فاحتدم الصراع مع العياشى فى حين داخل والى العرائش اندلسى الرباط وسالم زيدان عامل الجديدة البرتغالى الذى اقترح ايواءه بعد انتصار أبى محلى ولكن هذه الاحلاف المغربية الاسبانية لم توت أكلها لان الضغط الشعبى لم يترك للسعديين مجالا للتحالف مع المسيحيين

انجلتـرا : أما الانجليز فلم يكن يهمهم سوى حماية صفقاتهم التجارية من القرصنة وكانت لحكومة لندن وشركة بربريا *Barbary Company* علاقة ببلاط مراكش فكانت أسفى مرسى للمبادلات بينما فضل كثير من

التجار الانجليز تهريب الاسلحة للمجاهدين لاسيما منهم ابوحسون فى اكادير وماصة فمنيت الشركة البريطانية بالافلاس ومع ذلك اضطرت انجلترا لمفاوضة العياشي وكذلك الاندلسيين بالرباط وتطوان بواسطة جوهن هاريسون John Harrison غير ان العلائق كانت تفسد أحيانا من جراء غارات القراصنة التى امتدت الى المحيط الاطلنطيقى وردود فعل القراصنة الانجليز أما فى تطوان فان الانجليز والاندلسيين كانوا يواجهون خصما مشتركا هو اسبانيا فاستقر بالمدينة قنصل انجليزى واصبحت مارتيل قاعدة للسفن الانجليزية اثناء حصار قادس (1656م)

فرنسا : وكانت العلائق مستوسقة بالاخص مع مرسيليا ولم يكن القناصل الفرنسيون يستوطنون المغرب بل يكتفون باقتطاع حقوق فى مرسيليا على البضائع المصدرة للمغرب أما الدوائر الرسمية فى الجانبين فلم تكن تهتم بأكثر من افتكاك الاسرى التى كانت عمليتها تعرقل بسبب تنازع الحكم بين مراكش وجمهورية أبى رقراق ولكن الروابط تأزمت بعد قضية اختطاف ذخائر الخزانة الزيدانية من طرف البحار الفرنسى كاسطيلان وقد لعب الاطباء والرحالون الفرنسيون دورا مهما فى البلاط امثال بيرار Bérard وارنولد Arnauld وهوبير Hubert وموكى Moquet

هولندا : وكانت التجارة الهولندية بالمغرب انشط وأقوى اذ كانت العداوة متبادلة ضد الاسبان وكان التجار الهولنديون يمدون الملوك والقراصنة بالعتاد وقطع السفن وأصبحت لهذه التجارة الاسبقية بمقتضى معاهدة 1610 وقد كان ءال بالاش Pellache اليهود هم صلة الوصل بين مراكش وهولندا التى تعاملت أيضا مع كل من الاندلسيين والدلائيين .

المآثر السعدية

الاقتصاد :

كان للفوضى والاختلال الناتجين عن تسرب البرتغال الى السواحل المغربية أثر فى تضعضع الاقتصاد وانهيار الفلاحة غير ان انتصار المغرب فى معركة وادى المخازن وفتح السودان ما لبثا أن جلبا لصندوق الدولة مبالغ ذهبية وافرة عززت موارد المحتكرات الصناعية ومزارع قصب السكر واصبح للدينار نفاق

فى السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبى الى 3،548 غرام وقد تهافت المضاربون من الانجليز على هذه العملة القوية فروجوا منتجاتهم بدل الذهب الخالص والسكر والجلود وملح البارود والزيوت وكذلك الهولنديون الذين كانوا يقتنون من المغرب الاصباغ والنحاس علاوة على السكر والجلود وبلغ ثراء المنصور الذهبى مبلغا حداه الى ان يقترح على هولندا قرضا قدره مليون ونصف مليون دينار (I) (هو I8 مليون فرنك بصرف ذلك العصر) وقد وجه المولى زيدان الى اوربا عملاء داعين لمنتجات المغرب وسوائمه ومعادنه (النحاس والرصاص والقصدير والحديد والكبريت) حاميا فى نفس الوقت الصناعة الوطنية من المزاحمة الأجنبية حيث حظر توريد بعض المنسوجات الانجليزية وازدهرت كذلك المبادلات الداخلية بين الشمال الذى كان ينتج الكتان والزيوت والخزف ومواد الخياطة والحبوب الذى غمر السوق بمواده الخام وقد شوهدت قوافل الجمال (ما بين I000 و I500 جمل) تعبر يوميا وادى أبى رقراق تحمل قموح الغرب الى الجنوب (2) وقد وصف الحسن بن محمد الوزانى مظاهر الاقتصاد المغربى فى هذا العصر (3) فأكد أن الصناعة ازدهرت فى خمس مناطق(فاس والريف والهبط وهسكورة وتادلا والسوس والصحراء)حيث توافر الصوف والحرائر والاسلحة والسكاكين والسيوف ومنتجات الخشب والخزف والصابون والقنب والكتان والقطن والجلود والاحذية والاوانى النحاسية والتوابل وكانت فاس المركز الاول للصناعة التقليدية المغربية الاندلسية (520 معملا للنسيج و 360 مطحنة الخ)

وقد فرض السعديون علاوة على الاعشار والزكوات جزية جماعية حيث كان يهود فاس مثلا يؤدون أربعمائة دوكا شهريا (الدوكا كانت تساوى بصرف القرن الماضى سبعة فرنكات ونيفا) كما وظفوا ضرائب على الفنادق والمساجين والكانون والخراج البدوى وهو الزويجة وكانت عبارة عن مساحة من الارض يمكن قلبها بزوج من البقر مدة يوم واحد أى معدل ثمانية هكتارات أما

(I) وثائق دوكاستر ج • I ص 528 كما اسلف الدون انطونيو المرشح لعرش البرتغال 400•000 جنيه مقابل استرهان نجله كريستوف •

(2) كاى فى تاريخ الرباط ص 54 •

(3) المغرب فى السنوات الاولى للقرن السادس عشر ـ طبعة I906 •

المدن فكانت تؤدى ضرائب غير مباشرة تعـرف بالمستفـاد وقد جدد المنصـور بيع الكبريت والفولاذ والتبغ الذى دخل الى المغرب عام الفيل (1007هـ) فبلـغ نظام الخراج وفرض تعاريف جمركية على السكر والفضة والذهب كما احتكر معدل المداخيل السنوية 300٠000 دوكة (1)

الجيش : اقتبس السعديون من العثمانيين نظامهم العسكرى وأزياءهـم وكثيرا من مصطلحاتهـم وأسند المنصـور الى ضباط أتراك تـدريب العلـوج والاندلسيين والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السـودان واسنـدت قيادة قبائل الجيش (الكيش) الى باشوات وقد بلغ عدد جنود فاس في عهـد المنصور 22٠000 من بينهم 4٠000 مخازنية(كلهم بأكسية الملف والحرير والكتان) وفرسان مراكش اثنى عشر ألفا (2) والسلطان مولاى عبد الله هو الذى ادرج الاندلسيين فى ديوان الجيش فى حين أذحل المعتصم أهل فاس

أثرت الدولة بمادره عليها احتلال السودان وافتكاك الاسرى البرتغاليين فاتجهت نحو بناء مؤسسات معمارية كقصر البديع للحصول على مأثرة وشفوف على المرابطين والموحدين وقد استغرق العمل فيه ما بين 986هـ و 1002هـ وجلب السلطان الصناع الافرنج والرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن وكان هذا القصر عبارة عن دار مربعة الشكل فى كل جهة منهاقبة رائعة تحف بها مصانع وقصور ودور وفيها الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسـود والزليج المتنوع التلوين مع بديع النقش وقد هدم المولى اسماعيل هذا القصر عام 1119 هـ « ولم يبق بلد ـ كما يقول اليفرنى ـ من بلاد المغرب الاودخله شيء من أنقاض البديع »

ومن المؤسسات الدينية مسجد باب دكالة الذى بنته مسعودة الوزكيتية والدة المنصور ويتناسق فى هذا المسجد الاسلوب المرينى (الصحن المربع) مع بعض معالم الفن الموحدى مثل هندام القباب وبعـد ذلك بخمس سنوات أسس جامع المواسين بمرافقه من قاعة الوضوء والحمام والمدرسة والكتاب (المسيد) والسقاية ومورد الماء المخصص للحيوانات وتنم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السالفة فى الحقل المعمارى ٠

---

(1) راجع كتاب « مظاهر الحضارة المغربية »ج 1 ص 78

(2) تاريخ الدولة السعدية (ص 38 ـ 48 ـ 53 ـ 74) ٠

اما فى جامع القرويين فان السعديين بنـوا قبتين فى الصحن تتوسط كلتيهما خصة مرمرية بما يوجد فى ساحة الاسود بالاندلس

وقد أسهم السعديون فـى بناء مـدارس صغرى مضافـة الى المساجد أو الزوايا حيث توجد مثلا فى مراكش أعظم مدرسة بالمغرب يرجع فضل تجديد بنائها الى الامير مولاى عبد الله وهي مدرسة ابن يوسف التى بناها أبو الحسن المرينى ٠

واقيمت قبور السعديين على غرار اضرحة المرينيين بساحة قرب مسجد القصبة بمراكش لدفن أمراء الاسرة المالكة

ويلاحظ بخصوص المؤسسات العسكريـة أن الانقـلاب الذى طـرأ على الاساليب الحربية تحت تأثير بوادر النهضة الاوربية وانبثاق عهد الآلـة حمل الدولة المغربية الى تعديل مناهج وطرق التعمير فالاسوار المحيطة بالمدن الكبرى تعززت بأبراج مجهزة بعتاد جديد لمقاومة المدفعية مثل « باستيون » (أى الحصن) تازة الحامى لمر تازة الواصل بين الشرق والغرب طول اضلاعها ستة وعشرون مترا وتطل منها على المدينة ثلاث عشرة غرفة للرماية كما تحتوى على مستودعات للعتاد وقد أقام المنصور بفاس برجين آخرين يشرفان على المدينة وما زال البرج الجنوبى على حالته بينما أدخلت تعديلات على البـرج الشمالى خـلال القـرون الاخيرة وتجدر الاشارة هنا الى أن السعديين أضافوا أجهـزة قوية جديـدة الى المعاقل والحصون البرتغالية فى المدن المحـررة (اسفى وازمـور والجديـدة) كما بنوا قناطر ذات طابعين استراتيجى ونفعى ـ ومعابر لنقل المياه وسقايات عمومية ٠

وقد لاحظ طيراس(I)انه بالرغم عن الجهود التى بذلها كبار الامراء السعديين فانهم لم يسهموا فى انبعاث الحضارة الاسلامية بالمغرب « لان الدنية والفن كانا متجهين نحو الماضى فلم تستطع بعض التأثيرات الاجنبية تعديل الاصول القديمة ولا تركيز بذور خلق جديد » فالفن المغربى اذن هو حسب طيراس « فن خال من كل عنصر غض تكتنفه رواسب الماضى » غير أن صلات عابـرة وغيـر مبـاشرة بالفنون الاسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ما كان للسعديين من علاقة

(I) تاريخ المغرب ج 2 ص 189

بالاتراك ولعل بعض هذه الآثار تتجلى فى الطرز والنسيج والتجليد والتذهيب وكذلك فى بعض أزياء الرجال لاسيما منها العسكرية ٠

ومهما يكن فان الفن المغربى الذى استنفذ قواه أصبح يزرع تحت عناصر قوية فى النقش والزخرفة والتنميق فقدت بساطتها وازدادت فخفخة ورواء (I)

وهكذا تجلى العهد السعدى كفترة عابرة عرف المغرب أثناءها وتحت راية المنصور نوعا من الازدهار والاستقرار ولكنه ما لبث أن عاودته الفوضى العارمة التى حزت كيانه فى عهد الوطاسيين وانضمت الى الاعراب عناصر جديدة كالاتراك والزنوج أصبحت عامل تشغيب علاوة على رجال المهجر من الاندلسيين الذين كونوا أسطولا قرصنيا وأقاموا جمهوريات حرة مضاعفين مظاهر الخلل والانحلال التى هب الصوفية لاستئصالها فأحالوا المغرب الى امارات أشبه بما عرفته الاندلس تحت حكم ملوك الطوائف ولكن المغرب استطاع أن يعيش رغم هذه النواخر – على انقاض ماضيه المجيد وأن يضمن سيادته وكيانه فى بحبوحة الفوضى ٠

(I) تاريخ المغرب (كواساك)

فهرس الكتاب